عبد الله بن حمد الحقيل

رحلات ومشاهدات سائح في البلاد الأوروبية

دار الحصاد للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

رحلات ومشاهدات سائح في البلاد الأوروبية

عبد الله بن حمد الحقيل

دار الحصاد للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

ⓒ دار الحضارة للنشر و التوزيع ، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحقيل، عبدالله حمد

رحلات ومشاهدات سائح في البلاد الأوربية./ عبدالله حمد الحقيل -

الرياض ١٤٣٤هـ

٢٤٤ص ؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٩-٢٨٧-٥٠٦-٦٠٣-٩٧٨

١- أوربا - وصف ورحلات أ- العنوان

ديوي ٩١٤,٠٤ ١٤٣٤/٩٣٠٨

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٩٣٠٨هـ

ردمك: ٩-٢٨٧-٥٠٦-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ/٢٠١٤م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هاتف: ٢٤٩٦٥٥٥- ٢٧٨٧٣٣٣ فاكس: ٢٤٨٣٠٠٤

المستودع: هاتف ٢٤١٦١٣٩ فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨

موقعنا على الإنترنت www.daralhadarah.com.sa

Email: daralhadarah@hotmail.com

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

تصميم و إخراج 0500594536

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

سورة الذاريات: الآيتان: ٢٠، ٢١

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾

سورة آل عمران، الآية: ١٣٧

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

سورة غافر، الآية: ٢١

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين وبعد:

لقد استأثر أدب الرحلات باهتمام كثير من طبقات مثقفي العالم قديماً وحديثاً وعُني به أعلام بارزون عبر مراحل التاريخ ماضياً وحاضراً. فالرحلات سبيل من سبل المعرفة والثقافة الإنسانية حيث يطل القارئ منها على أنماط شتى وصور من صور الحياة فهي ثقافة تنمي العقول وتوسع المدارك وتعمق الوعي عن لمن يتأمل ويفكر ولقد قيل:

سفر الفتى لمناطق وديار
وتجول في سائر الأمصار

علم ومعرفة وفهم واسع
وتجارب ورواية الأخبار

ويسر دار الحضارة للنشر والتوزيع القيام بطباعة هذا الكتاب (رحلات ومشاهدات سائح في البلاد الأوروبية) لمؤلفه الأستاذ الأديب الرحالة عبد الله بن حمد الحقيل. والذي أثرى هذا الجانب برحلاته ومؤلفاته وكتاباته في أدب الرحلات. حيث جاب كل الاتجاهات وأبحر في كل اتجاه. وصنفه النقاد أديباً بارعاً ورحالة معاصراً. ومؤلفاً متعدد الاهتمامات وكما قيل:

فسار مسير الشمس في كل بلدة
وهب هبوب الريح في البر والبحر

إن الرحلات مصدر للمؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع بحيث يستفيد منها العظة والعبرة والفائدة ويترك الأثر الحسن بما شاهد ورأى وهذه الرحلات التي يحفل بها هذا الكتاب عن البلاد الأوروبية هي لمحات وذكريات ومشاهدات وتأملات سياحية. فهي صورة لحواضر العالم القديم والحديث. وإن هذا السفر يتناول البلاد الأوروبية وتاريخها وجولة في معالمها. وهي بحد ذاتها تعد إضافة مهمة إلى أدب الرحلات. حيث بذل المؤلف وقتاً وجهداً مما يعطي القارئ كثيراً مما يحتاج إليه ويتطلع نحوه في هذا الكتاب الذي سجل فيه المؤلف مشاهداته ورؤيته وانطباعاته عن وعي وخبرة وثقافة وعسى أن تجد أيها القارئ الكريم المتعة في قراءته. حيث يحلق بك في أجواء مختلفة وإلى ما يترك أثراً حسناً..

هذا وبالله التوفيق،،

دار الحضارة للنشر والتوزيع
الرياض ١٤٣٥هـ

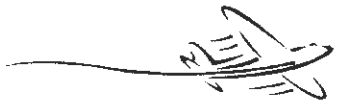

مقدمة المؤلف

يتساءل كثير من الباحثين عن أدب الرحلات ودوره في تاريخ الأدب العربي، والواقع أن أدب الرحلات استأثر بالاهتمام قديماً وحديثاً، وعني به أعلام بارزون عبر مراحل التاريخ ماضياً وحاضراً.. حيث تحدثوا فيه عن مشاهداتهم والأماكن التي مروا بها.. وزيارة المعالم والآثار والمساجد والمكتبات وما تحويه من المخطوطات، ووصفها والتعريف بها وزيارة المعالم والمواضع التاريخية.

وما زال هناك عشرات المخطوطات من المؤلفات عن الرحلات لطائفة كبيرة من العلماء لم تنشر بعد.. لذا ينبغي ألا نهمل أدب الرحلات، فهو فن متميز ومعلم بارز من معالم الثقافة والمعرفة، فهو كحديقة غناء بها ثمار يانعة ولا تخلو من الأشواك.

فالقارئ يطل منه على أنماط شتى مختلفة وصور من صور الحياة المتباينة.. ويرى ويشاهد من خلال ذلك عوالم واسعة.. يستقرئ واقعها ويتعرف على بيئاتها وحياتها.. وإذا كانت الرحلات فيما مضى عملاً شاقاً وأسلوباً مضنياً فإنها اليوم بفضل التطور الحضاري والتقنية الحديثة صارت عملاً مريحاً..

وما أجمل الرحلات التي تفيض بالمشاهدات الحية، والملاحظات الطريفة، والتجارب الواسعة، والمفاجآت والمعرفة عن طريق المشاهدة

والمعاينة وتمحيص الحقائق مع القدرة على التعبير والدقة في التصوير!. ومقابلة كل ظرف وحال بما يناسبه من صبر وتحمل.

ويجد فيها القارئ ما يلائمه ويوافقه.. فكم من رحالة أمدنا بمعلومات تاريخية وجغرافية تتخللها إشارات ومعلومات عن الحياة وعادات الناس، وعن المدن والجزر والجبال والأدوية ومختلف الظواهر وما أعظم أن نتدبر قول الله تعالى: ﴿... أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ !! من سورة غافر آية ٢١.

لقد غامر كثير من الرحالة للتعرف على الظواهر الطبيعية، ووصلوا إلى مناطق الجليد في شمال أوربا وألاسكا وبعض المناطق في أمريكا وكندا، وصعدوا الجبال العالية في الهملايا وفي الهند والصين وشرق أفريقيا كهضبة الحبشة وجبل كينيا وغيرها.

فالرحلات كما يقال منجم مفيد ومنهل ثر نافع للآخرين في شتى النواحي.. والمهم أن نستفيد من الرحلات بتسجيلها والكتابة عنها.. ولقد قيل: «قيدوا العلم بالكتابة»، ورحم الله أسلافنا الذين تحملوا المشاق والصعوبات، وجابوا الأمصار، وسلكوا فجاج الأرض، وامتطوا متن الخطر وصعوبة المسالك والطرق من أمثال ابن جبير وابن بطوطة والسيرافي والهمداني والبكري والأصمعي وياقوت الحموي صاحب معجم البلدان الذي يحوي مشاهدات ميدانية، والمسعودي ورحلاته حيث أحاط بالكثير من العلوم والثقافات وطاف أكثر البلدان..

وقد فقد الكثير من مؤلفاته ولم يبق له إلا كتابان هما: «مروج الذهب، والتنبيه والإشراف».. حيث تضمن جانباً من رحلاته التي تعد مصدراً من مصادر المعرفة الجغرافية.. حقاً لقد استمتعت أجيال كثيرة بتلك الرحلات..

وهكذا فإن أدب الرحلات حينما يتصدى له العلماء والمفكرون فإنه يظل مخصباً ومفيداً بحيث يبرز فيه الجانب التصويري بأدق وأصدق العبارات، وأعذب الألفاظ وأطيبها مما يمتع القارئ ويثير فكره ويورث العبرة.. وذلك بما تشتمل عليه الرحلة من صنوف وفنون، وبالقدر الذي يفيد القارئ ويجد فيها ما يلائمه ويوافقه ويزيد معارفه ويثري ثقافته..

وهكذا فأدب الرحلات ارتياد لمناهل الثقافة والأدب والعلم والمعرفة إذ تبدو البلاد أمامه كتاباً يقرأ المرء بين ثنايا سطوره دقائق حياة الأمم وتاريخها وثقافتها، ومآثرها وتراثها، ومساوئها ومحاسنها بأسلوب ممتع يزيل السأم عن القارئ، ويجدد نشاطه لمواصلة القراءة مع إبراز الجانب التصويري والسياق الأدبي والتحقيق التاريخي والاجتماعي، وتطعيمه بمأثور الشعر والمثل والحكم مما تقتضيه المناسبة. ولقد قيل:

سفر الفتى لمناطق وديار
وتجول في سائر الأمصار

علم ومعرفة وفهم واسع
وتجارب ورواية الأخبار

ولقد حفل الشعر بالكثير من القصائد التي تحث على الأسفار والرحلات كما عارض ذلك آخرون.. ونورد على سبيل المثال قصيدتين حول ذلك، من ذلك قول الإمام الشافعي.. رحمه الله..

تغرب عن الأوطان في طلب العلا
وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفرج هم واكتساب معيشة
وعلم وآداب وصحبة ماجد

فإن قيل في الأسفار ذل وغربة
وقطع فياف وارتكاب الشدائد

فموت الفتى خير له من حياته
بدار هوان بين واش وحاسد

كما نورد قصيدة أخرى يعارض صاحبها الأسفار وما يصاحبها من الأهوال والمتاعب والعنت والإرهاق للطرطوشي إذ يقول:

تخلف عن الأسفار إن كنت طالباً
نجاة ففي الأسفار سبع عوائق

تفكر إخوان وفقد أحبة
وتشتيت أموال وخيفة سارق

وكثرة إيحاش وقلة مؤنس
وأعظمها يا صاح سكنى الفنادق

فإن قيل في الأسفار كسب معيشة
وعلم وآداب وصحبة فائق
فقل كان ذا دهراً تقادم عهده
وأعقبه دهر كثير العوائق
وهذا مقالي والسلام مؤبد
وجرب ففي التجريب علم الحقائق

وبعد.. فهذه الرحلات التي أقدمها لك أيها القارئ العزيز هي لمحات وذكريات مختصرة بعيدة عن الإسهاب الممل.. فهي رحلات قمت بها إلى بعض البلاد الأوروبية، وتشتمل في مجموعها على انطباعات وذكريات وتأملات سياحية، وهي ما يبقى للمرء بعد ذلك.

ومهما يكن من أمر؛ فهي صورة عامة لتلك البلدان كما تراءت لي.. وأرجو أن يجد فيها القارئ من المتعة والتسلية والفائدة ما وجدته أثناء ترحالي في تلك الديار، ولقد قيل: «في كتب الرحلات فوائد مضاعفة.. لأنك تلتقي بالناس وتتعرف على البلدان خلال ذلك».

وهذه الرحلة خاصة بأوروبا إحدى القارات الخمس، والذي يزور بلداناً في هذه القارة يشعر أن بإمكانه أن ينتقل بسهولة تامة في بقية البلدان الأخرى كما لو كانت أوروبا هذه بلداً واحداً وليست قارة نظراً لتلك التسهيلات وقرب المسافات..

وأخيراً أرجو أن تجد أيها القارئ الكريم في هذه الرحلات فائدة وإمتاعاً، وأرجو الله أن يوفقنا ويرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق.

المؤلف

عبدالله بن حمد الحقيل

الرياض ١٤٣٥هـ

في ديار الغرب

رأيت بلاد الغرب في كل صورة
تجلت بأنواع من الحمد والذم

لئن راقني رأي جميل منسق
فما راعني إلا مزيد من العلم

ففي «لندن» شاهدت فيها حضارة
من العلم والتنسيق فيها على وسم

وإن تك «باريس» عن العلم أسفرت
على مركز عال ومجد بها ضخم

تؤم من الشبان من كل دولة
منابعها في العلم لاشك كاليم

«سويسرة» دار المناظر والرؤى
«فينا» بها دور المتاحف والنظم

«وأسبانيا» أرض السياحة والهناء
ولكنني فيها شقيت من الغم

تذكرت أمجاداً وعلماً وحكمة
لأسلافنا أهل المكارم والعظم

رعى الله أياماً لهم برحابها
فكانوا مصابيح الحضارة والحكم

ومهما يكن حسن وأي جواذب
فإن لتطلابي العلا وهي لي همي

ولكن غريب الدار ما عز هين
يصاول أهداف المتاعب بالعزم

ولا فخر للإنسان إلا بصبره
وخلق تحلى منه بالدين والحلم

ولكن وان سلَّتك فيها مناظر
وتاهت على الدنيا بوعي على فهم

فإني إلى ربعي ومنشأ أمتي
نبت بها فكراً وشاب بها عظمى

رعى الله في نجد كراماً أحبة
على الوطن الغالي كغيث بها يهمي

وكل بلادي في المكارم وحدة
فمن رائد بان إلى قائد شهم

تفانوا بتكريم الغريب طبيعة
لإنسانها للحب في قلبه ينمي

رأيت بلاد الغرب فيها مساوئا
تمازج فيها الخير بالشر والإثم

لقد غرقوا فيها بلج رذائل
بحرية قادت إلى السوء والهدم

فخذ منهمو علماً يفيدك خيره
ودع باطلاً إن رامه المرء قد يعمي

فيا رب زدني عصمة وعزيمة
بها أنثني عن كل عيب لنا يصمي

لنا عزة تأبى المذلة والهوى
ودين ينادينا إلى الجد والحزم

نشاهد في الأسفار حاسد نعمة
ونسمع ألواناً من البغض والشتم

نقابله منا بأخلاق ديننا
وبالأدب المحبوب والخلق الجم

فينصاع طوعاً بعد عنف وشدة
ويثني علينا بعد أن كان ذا ظلم

وأخلاقنا طبع وليست تطبعاً
وأهل وفاء في الخلاف وفي السلم

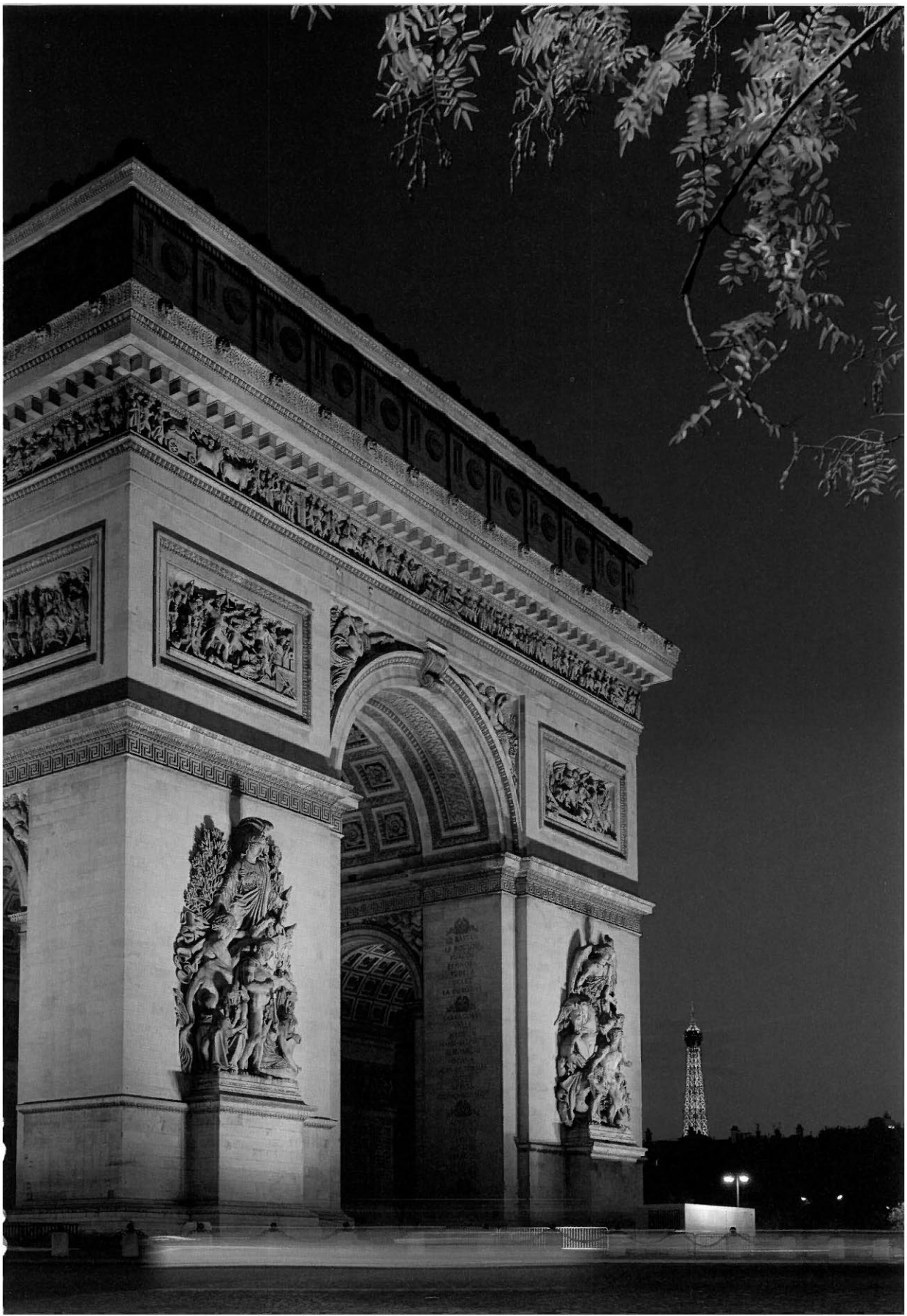

فرنسا

استأثر أدب الرحلات باهتمام كبير من طبقات المثقفين قديماً وحديثاً وعنوا به لما لقراءة الرحلات من متعة فكرية، ومنذ سنوات والنفس تحدثني بزيارة فرنسا والتعرف على معالمها والوقوف على آثارها، فهي بلاد حضارة وتاريخ وفن وإعلام وآثار كلها تستحق من زائرها الوقوف والتأمل والعبرة والاستنتاج.

ومن مطار الرياض أقلعت بنا الطائرة مساء يوم ١٤٠٢/١٢/١٧هـ حيث انطلقت بنا طائرة البوينج السعودية من الرياض إلى باريس في الساعة الواحدة والنصف ليلاً بالتوقيت الزوالي، وقد أعلن المضيف وهو شاب سعودي لطيف أن الرحلة سوف تستغرق خمس ساعات ونصفاً، وسنطير على ارتفاع ٣٢ ألف قدم، ثم انطلقت الطائرة في يسر وسهولة وتجاوزنا عتبة مدينة الرياض وكنا نشاهد الأنوار المتلألئة ولم نتمكن من رؤية سواها حيث نحن في سواد الليل.

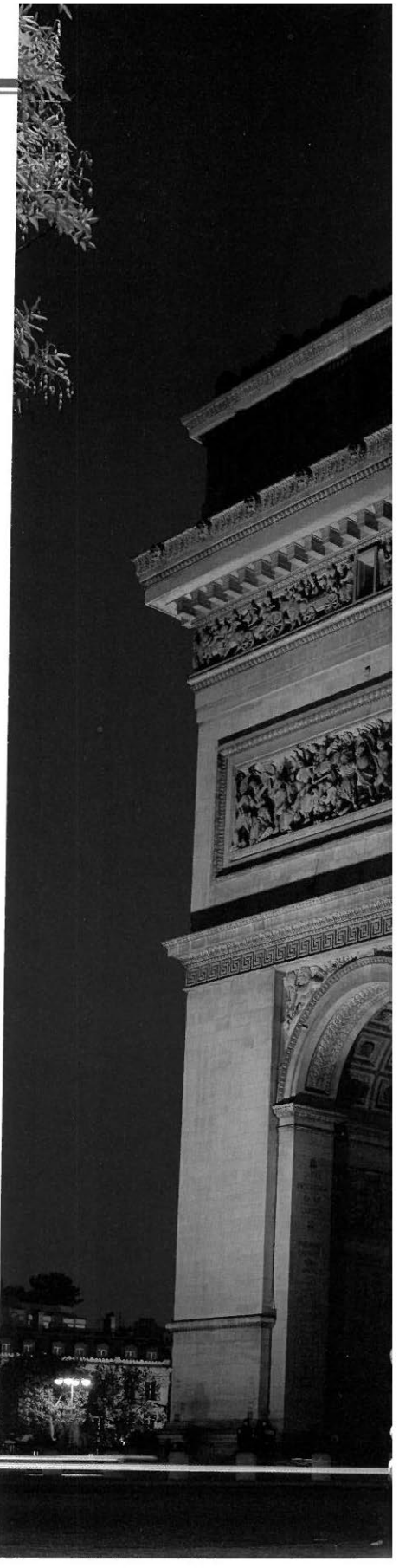

لقد كنت أحرص دائماً على أن يكون مقعدي بقرب النافذة حتى أرى الأرض ومعالم الطريق والسحب والبرق والمطر والهضاب والجبال، ولكن هذه المرة لم أجد مكاناً مناسباً، وعندما سألت المضيفة قالت: إن هذا المكان الذي تجلس فيه خير مكان وهو في وسط الدرجة الأولى.

وكانت مضيفات الطائرة على درجة من الملاطفة والمجاملة للركاب، وبعد أن جلست في مكاني صافحت الجالس بجواري، وإذا به السفير السعودي في الدانمارك حيث عرفني بنفسه، وبعد التحية والترحيب قال لي: آمل ألا تكون متضايقاً من هذا المقعد لأني رأيتك في حوار مع المضيفين والمضيفات، فهذا المكان خير مكان، وأحرص على حجزه باستمرار، فكانت فرصة طيبة للحديث مع الأخ الأستاذ عبدالله بن عبدالرحمن الطبيشي، والسفر بطبيعته يفرض على المسافرين التعارف ويذيب الحواجز.

شواطئ مدينة نيس:

وبدأنا الحديث بالسؤال عن ذكريات والده باعتباره أحد رجال الملك عبدالعزيز ومعاصريه، ثم تشعب الحديث وجرى في أمور كثيرة على حد قول الشاعر كثير عزة:

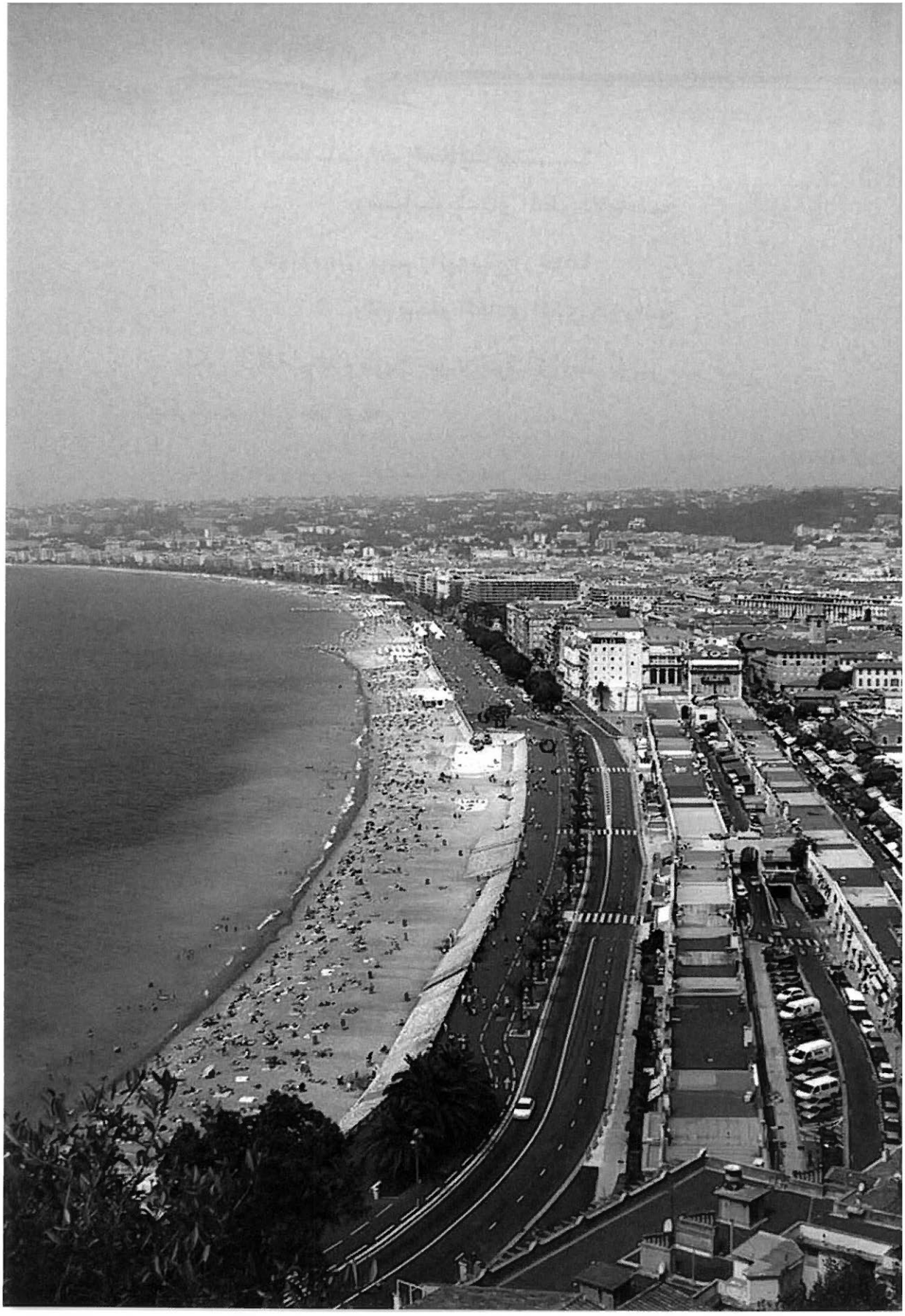

أخذنا بأطراف الحديث بيننـــــا
وســألت بأعناق المطي الأباطـح
وشدت على دهم (البوينج) رحالنا
ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

ولكن الرفقة لم تدم طويلاً حيث افترقنا في مطار باريس، ليواصل السفير سفره إلى مقر عمله.

نزلنا في مطار باريس بعد ساعات من الطيران، وتوجهت صوب مقصورة الجوازات، حيث موظف الجوازات داخل مقصورته الزجاجية، وفي دقائق أنهينا الإجـراءات وأخذ كل منا حقيبته دون تفتيش أو سؤال عن محتوى الحقيبة والعملة وغيرها مما نواجهه في بعض المطارات، وجرى ذلك في يسر وسهولة، وقد رأيت المطار في غاية الضخامة والروعة والتنظيم.

منظر من باريس:

لم أحجز قبل قدومي إلى باريس في أحد الفنادق، وكان معي دليل الفنادق في باريس، ومن مكتب الخطوط السعودية في المطار اتصلنا بعشرات الفنادق وكانت الإجابة لا يوجد مكان خالٍ، ثم توجهت لمكتب الاستعلامات في المطار فأخذ يتصل بعدد من الفنادق فلم يجدوا مكاناً خالياً، وكانت الساعة الثامنة صباحاً وسألتهم: وما السبب في ذلك؟ فقالوا: إن هذا الشهر بالذات يندر أن تجد مكاناً دون حجز مسبق فشهر سبتمبر بالذات تكثر فيه الإجازات وهو شهر

السياحة، وكما أن المعارض التي تقام هذه الأيام ساعدت على هذا الازدحام، وشعرت بالصدمة وبأني وقعت فيما لم أكترث به، ثم قلت الصبر مفتاح الفرج.

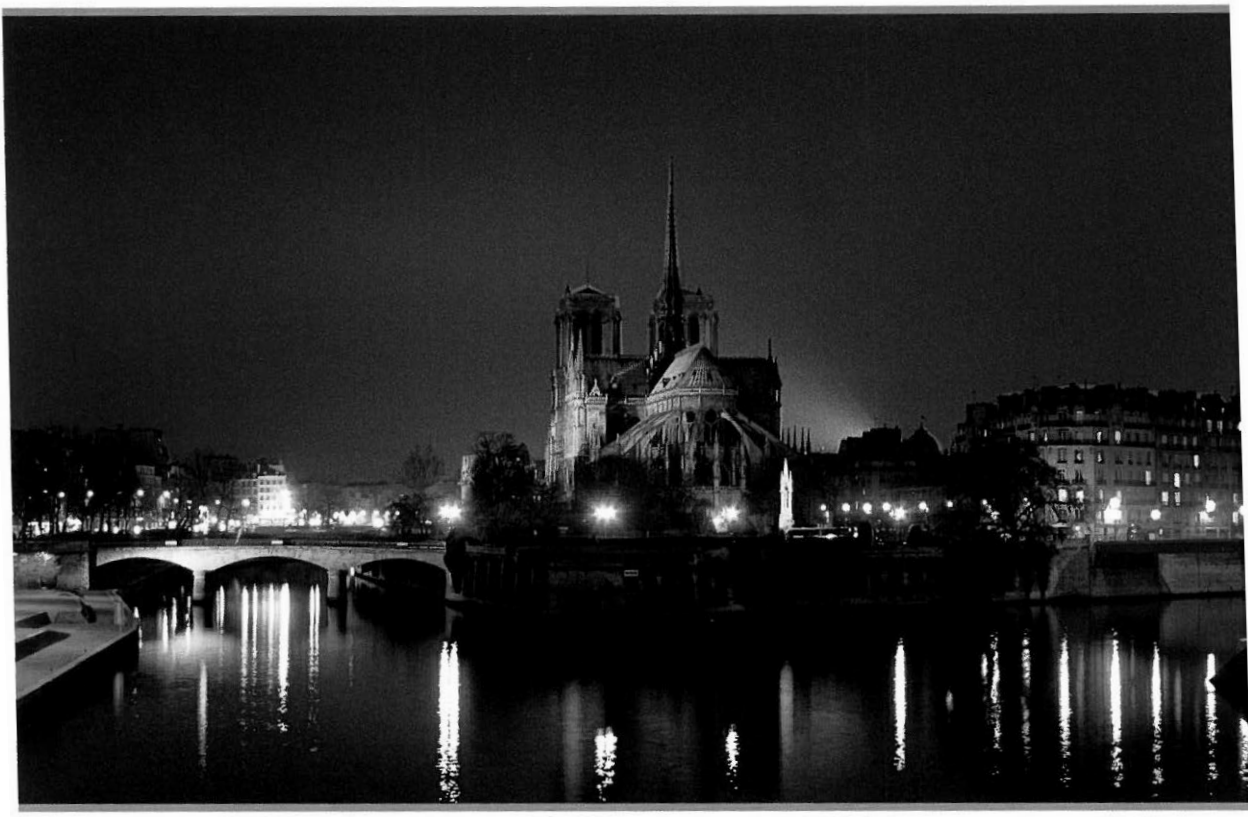

عجباً مدينة سكانها عشرة ملايين تضيق بي اليوم! ولم يخفف من شعوري بالصدمة ولا من عتبي على نفسي بعدم الحجز المسبق إلا أن أقبل علي شابان سعوديان كانا من ضمن الرحلة فقالا: تفضل معنا فلدينا حجز في فندق «المريديان»، وما يسعنا يسعك، والكثير يتعرض لما تعرضت له ولكن عندما يذهب الإنسان إلى الفندق يجد به مكاناً.

فامتطينا إحدى سيارات الأجرة، وقد كان المطار بعيداً عن المدينة، وقد كانت الخضرة والأشجار تضفي على الطريق جمالاً وكنت أردد قول القائل: نزلنا بها واستوقفتنا محاسن.

وكان سائق السيارة شاباً عربياً مغربياً، وقد كان الجو بارداً، والسماء مكسوة بالسحب، والمطر يتساقط رذاذاً، ثم لاحت لنا مدينة باريس بجمالها وروعتها ومناظرها، ورأينا نهر السين الذي يخترق المدينة، واجتزنا العديد من الجسور حتى وصلنا إلى فندق «الميريديان». وقبيل الوصول إلى موظف الاستعلامات قال لنا أحد الواقفين: لا يوجد مكان خال، وكان الفندق يغص بالناس عصبة من الأمم من شتى الأجناس، فاتجهنا صوب المسؤول عن الحجز، وناوله أحد الإخوان ورقة الحجز فقال: نأسف حيث لا يوجد مكان، وعليكم مراجعتنا غداً فربما يوجد مكان.. فوضعنا حقائبنا وخرجنا نبحث عن فندق آخر.

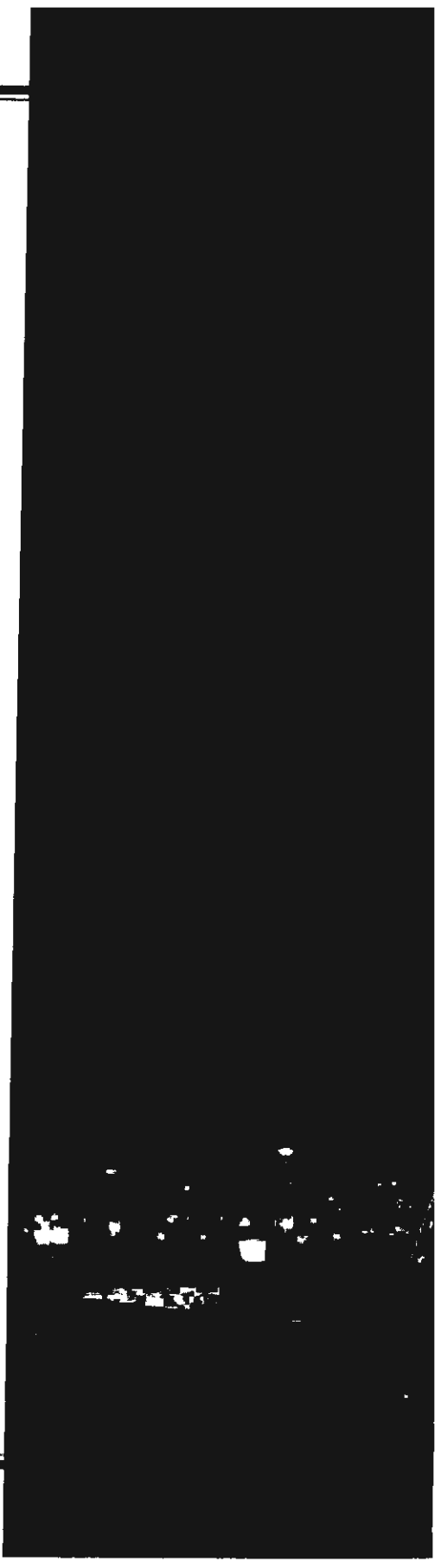

وكانت المدينة نائمة فلم نجد في الشوارع سوى العاملين في تنظيف الشوارع حيث يغسلونها صباحاً، وقد كنا في حاجة شديدة إلى الراحة إذ لم ننم طوال الليل، ولكن أين الفندق الذي نجد فيه سكناً؟ فتجولنا في عشرات الفنادق من ذوات النجوم الكثيرة والصغيرة

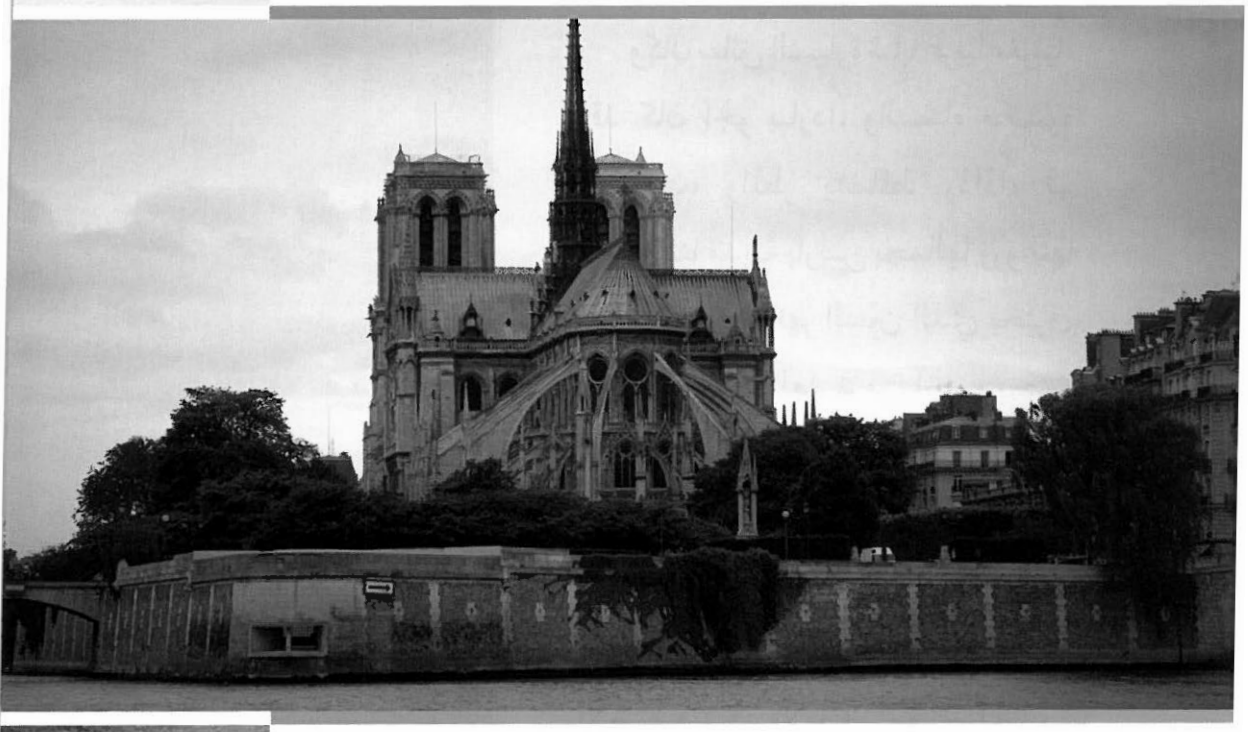

فلم نعثر على مكان، فرجعنا إلى الفندق الذي تركنا فيه أمتعتنا فأشار إلينا أحد العاملين بمراجعة قسم الحجز الذي أفادنا بأن هناك بعض القاطنين في الفنادق أبلغوه بسفرهم، فناولنا بطاقات لتعبئتها وطلب منا الانتظار حتى يتهيأ المكان.

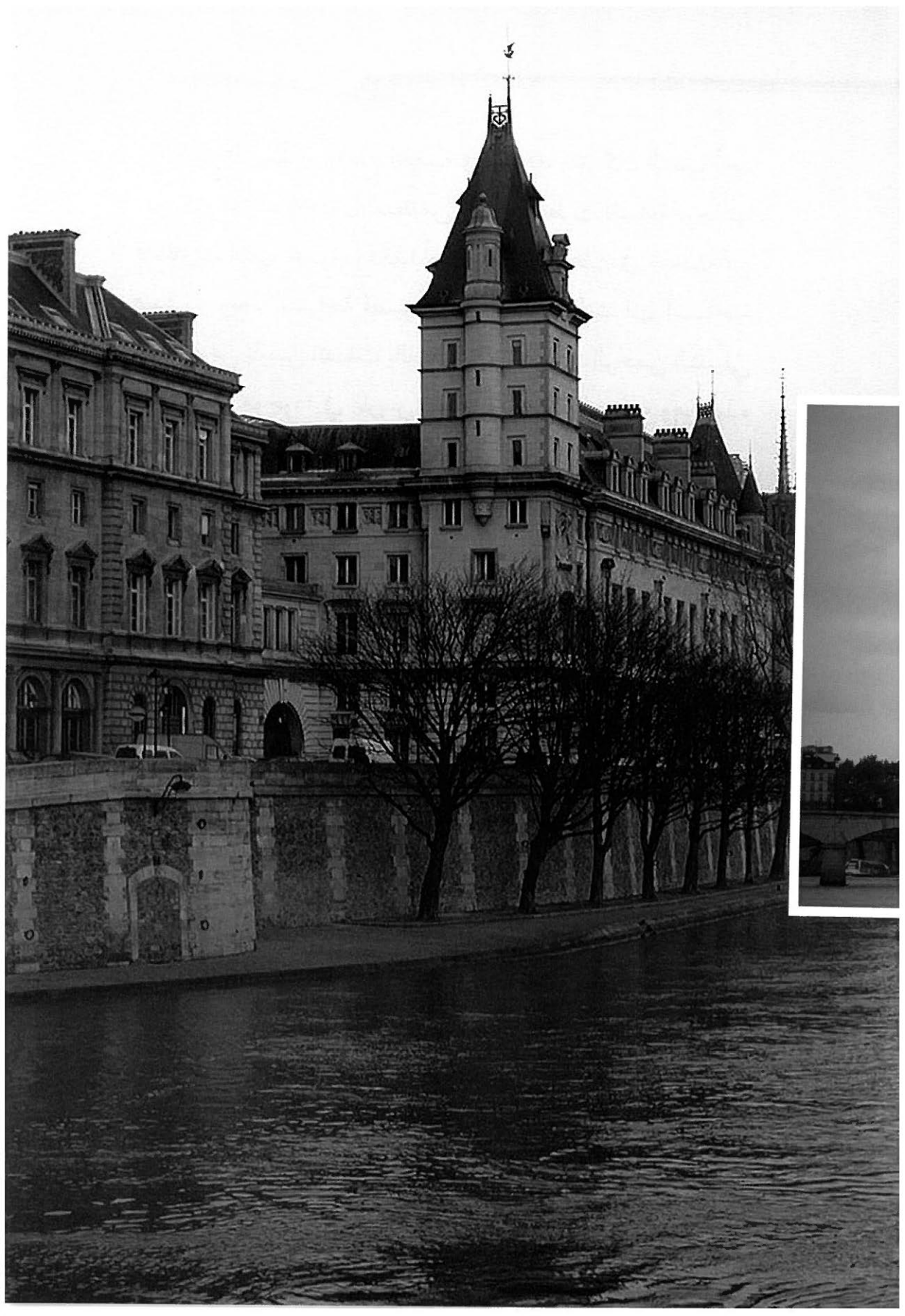

وبعد الاستقرار ووضع الحقيبة في الغرفة، وقد كان التعب أخذ مني كل مأخذ، فأخذت قسطاً من الراحة، ونظرت للساعة فوجدتها قد قاربت الثانية عشرة، وهكذا أمضيت أربع ساعات في البحث عن فندق... وبعد استراحة قصيرة ومطالعة بعض النشرات السياحية المتنوعة عن باريس اتصلت بالصديق الدكتور عبدالرحمن الشبيلي حيث كان موجوداً في باريس لتمضية العطلة الصيفية وهو بهذه المدينة خبير وعارف، وكما يقول المثل: «يا زائر الهند اسأل عمن يعرفها»، وقد رد على الفور وكأننا على موعد، وقد سعدت بزيارته في الفندق حيث أرشدنا إلى ما نريد زيارته، وأطلعنا على الكثير من معالم باريس ومظاهر الحياة، فاختار لنا رفيقاً عارفاً بها فتوجهت لزيارة بعض المعالم الحضارية فيها.

وخرجنا إلى غابة بولونيا الشهيرة قرب ميدان السباق وهي غابة تمتاز بالمناظر الخلابة، وبها مطعم فخم، ومقهى جميل، وقضينا وقتاً ممتعاً، وحدثنا عن باريس وعما ينبغي مشاهدته فشوقنا كثيراً إلى زيارة بعض الأماكن وكما قيل:

وذو الشوق القديم وإن تسلى
مشوق حين يلقى العاشقينا

فكانت سويعات جميلة عدنا بعدها إلى الفندق.

إن ما يجعل باريس بلداً سياحياً جميلاً هو روعتها وجمالها ومظاهر حضارتها العريقة وآثارها ومعالمها وميادينها ومتاجرها، فهي

تمثل أحد مراكز الحضارة الغربية وابتدأت بأهم مناطقها التي هي محل احترام الزائر والسائح: الحي اللاتيني وجامعة السوربون، وعند الوصول إلى ذلك رغبت في القيام بجولة في هذا الحي سيراً على الأقدام فشاهدت «حديقة لكسمبرج»، وهي من أجمل الحدائق.

ومشيت في شوارع الحي اللاتيني، وبعد جولة في شوارعه المكتظة بالناس والسائحين من مختلف الأجناس أعقبت ذلك باستراحة في أحد مقاهي الحي المنتشرة بشكل كثير، وخلال الاستراحة في المقهى تصورت الأدباء والعلماء الذين درسوا في جامعة السوربون، وعاشوا في هذا الحي، والروايات الأدبية التي كتبت فيه.

وبعد الاستراحة في المقهى قلت لصاحبي: فلنذهب إلى جامعة السوربون، ولا داعي للتفكير في أغوار التاريخ والانغماس في ذكريات الأمس وحياة السابقين، ووسط صخب وضجيج الحي اللاتيني لاحت لنا جامعة السوربون وعلى مقربة من الجامعة كان الطلاب يجلسون جماعات بقرب المقهى المجاور للجامعة وآخرون يجلسون على كراسي مهيأة للاستراحة.

وعدت إلى الفندق بعد جولة في هذه المدينة العريقة الجميلة البالغة من العمر أكثر من ألفي عام، والتي تتسع البهجة فيها للملايين، فقد كانت عاصمة الفنون والمواهب والرسامين والنحاتين والكتاب والموسيقيين وغيرهم ممن أتوا من كل أرجاء الأرض حيث كان المناخ الفكري والثقافي المناسب.

حقاً إنها مدينة فيها كل شيء.. كل الألوان.. كل الطبقات.. كل الأجناس واللغات، الأغنياء والفقراء... المهاجرون من شتى الأمم، تقاليد مختلفة، مطاعم متنوعة. وفي المساء خرجت مع بعض الأصدقاء للتجول في شوارع العاصمة وبعد استراحة قصيرة في أحد مقاهي شارعها الكبير «الشانزليزيه» ذهبنا إلى برج «مونبرناس TOURMONTPARNASS».

وذهبنا إلى برج مونبرناس حيث كان الجو صافياً كما أن منظر نهر السين الذي يخترق المدينة أضفى عليها جمالاً وبهاءً فصعدنا إلى أعلاه إذ يحتوي على تسعة وخمسين طابقاً، وفي أعلى البرج شاهدنا باريس عن كثب من خلال ناظور مخصص لذلك. وقد تزدحم بأعداد كبيرة من السواح حيث تجمعوا حلقاً يشاهدون المدينة من عل، ولعل هذا البرج هو أبرز مكان لرؤية المدينة، وقل أن يأتي سائح إلا ولا يذهب لهذا المكان. وبعد قضاء وقت ممتع واستراحة في أحد مقاهي البرج الذي يعج بمئات الأشكال والتقاليع والغرائب والمتناقضات، حقاً ما أجمل بلادنا وأروع صحراءها ومناظرها! ولقد صدق أبو العلاء المعري حين قال:

الموقدون بنجد نار بادية
لا يحضرون وفقد العز في الحضر

وقول المتنبي:

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها
مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

HOTEL
Vedior Bis

ثم زرنا جامعة السوربون، ودخلنا مبنى الجامعة التي تعتبر أشهر وأقدم جامعات أوروبا وإحدى ركائز الحضارة الأوروبية. وقد كانت في الأصل كلية صغيرة بناها روجردي سوربون SARBONNE في عام ١٢٥٣م للدراسات الدينية، وقد ألحق بها مكتبة كانت تضم العديد من المراجع والمخطوطات كما أنها تتمتع بأساتذة مختارين.

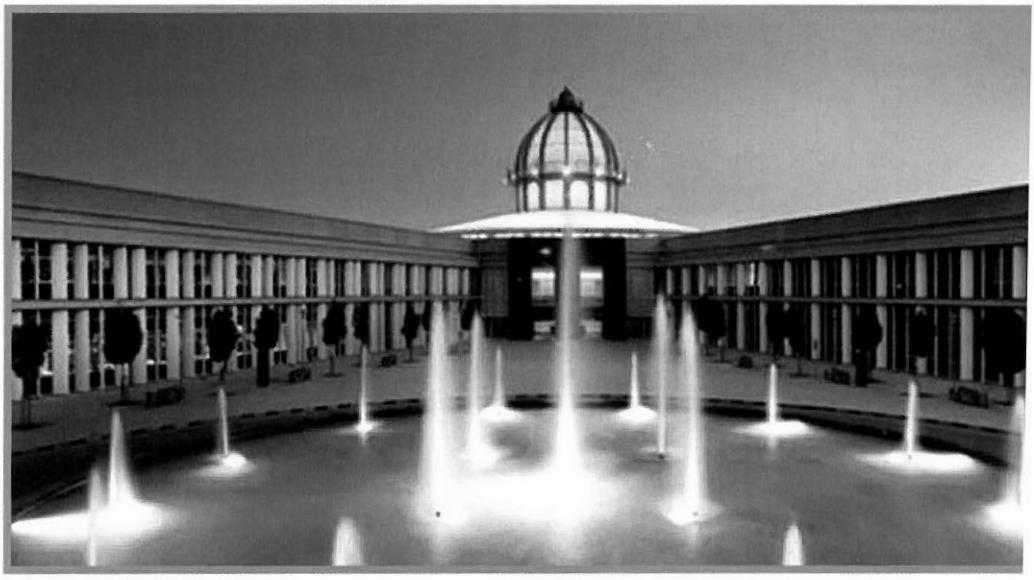

وقد أعاد ريشيليو بناءها، إذ هو مؤسسها الثاني في عام ١٦٢٤م، وقد أغلقت السوربون خلال الثورة الفرنسية، وفي عام ١٨٢١ أصبحت مقراً لجامعة باريس التي أعيد تنظيمها فيما بين م١٨٨٥ و١٩٠١م حيث أعيد بناؤها تماماً، وقد أمضيت زهاء ساعتين متنقلاً بين أقسامها ومكتبتها، وما كان الوقت متسعاً لزيارة جميع القاعات والأقسام، وقد أعيانا المشي، فاسترحت مع أحد الأصدقاء في

المقهى المواجه لمدخل الجامعة لمشاهدة جو الطلاب في الجامعة، وبعد قضاء برهة من الوقت توجهنا لبرج مونبرناس، وركبنا سيارة أجرة وقطعنا الطريق خلال دقائق رغم الازدحام الهائل حيث كان الجو صافياً، وكما أن منظر نهر السين الذي يخترق المدينة أضفى عليها جمالاً.

الحياة في باريس غالية لأن الدخل مرتفع، وحالة الناس فيما يبدو المادية والاجتماعية ممتازة، والفرنسيون يتحدثون دائماً عن بلادهم بشيء من الفخر والاعتزاز، ويرون أنهم قد وصلوا إلى أوج الحضارة والمدنية، ونسبة التعليم مرتفعة.

ولاحظت أن أكثر الفرنسيين يكرهون الملونين من السود والصفر والسمر.. ورغم ذلك فإن لديهم أعداداً كبيرة من المهاجرين من كل أفريقيا ممن أقاموا مدة طويلة.

والشعب الفرنسي شعب ينتمي إلى الفرنجة الذين سكنوا بلاد الغال وهي أرض فرنسا القديمة من أوائل القرن السادس الهجري، ولما قسمت إمبراطورية شارلمان بعد وفاته وقعت فرنسا من نصيب شارك لوبراف، واستمر فترة حتى قام فيليب أغسطس عام ١٢٢٣م، وكان عصره عصر حروب مع ملك إنجلترا وإمبراطور ألمانيا، واشترك أبناؤه من بعده في الحروب الصليبية، وعلى الأخص لويس التاسع حيث هزم وأسر في مصر في مدينة المنصورة.

ولعل من الطريف أن نورد للقارئ أسطورة من الأساطير الكثيرة في تاريخ فرنسا، أسطورة جان دارك التي ادعت أن الأرواح أمرتها بالذهاب لتخليص فرنسا من الاحتلال الإنجليزي، وفعلاً حاربت مع الجنود ونجحت في تحرير بعض الأراضي الفرنسية ثم وقعت في الأسر.. ومما هو معروف أن الإنجليز احتلوا فرنسا فترة طويلة انتهت في عام ١٤٥٣م.

ولذا فقد لاحظت رواسب في نفوس الفرنسيين، فهم يكرهون التحدث إليك باللغة الإنجليزية إلا عند الضرورة.. ومما يروي لي أحد الإخوان أنه تحدث مع أحد الفرنسيين وكان متعصباً للغته لدرجة أنه أجابه قائلاً: احتفظ بسؤالك! وكما تعرضت فرنسا للاحتلال الإنجليزي فقد تعرضت للاحتلال الألماني في الحرب العالمية الثانية ولم تتحرر من ذلك إلا في سنة ١٩٤٤م.

ولنعد إلى باريس ومتاحفها، حيث ذهبت إلى متحف اللوفر أحد المتاحف العريقة في العالم، وهو قصر ضخم واسع، وبه معروضات شتى ترجع في تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد وحتى القرن التاسع عشر الميلادي، وتغطي مساحات ثقافية وجغرافية شاسعة، لقد كان هذا المتحف في بدايته قلعة، ثم تحولت إلى واحة من أكبر قصور العالم، ويضم متحف اللوفر بين جوانبه العديد من المكاتب الإدارية والقاعات ومتحف الفنون الزخرفية، وبه كنوز شتى وأعمال فنية مبدعة، كما تتميز واجهاته بأهمية معمارية خاصة.

ثم قمت بجولة شاهدت خلالها برج إيفل وقصر رئاسة الجمهورية وشارع الشانزليزيه، والمسلة المصرية، التي نقلت من مصر رغم طولها.. وبقيت بارزة شامخة في نهاية شارع الشانزليزيه وعلى ضفاف نهر السين، وكذا محكمة العدل وسجن الباستيل الذي يقول فيه الشاعر:

وما الباستيل إلا بنت أمس
وكم أكل الحديد بها سجينا

ومررنا ونحن في السيارة بقبر نابليون، ومررنا بعشرات الشوارع الرئيسية مثل سانت جرمان وسان ميشيل وكنيسة نوتردام وقوس النصر والأوبرا.

ووقفت مع صاحبي عند نهر السين الذي يخترق المدينة ويقف الناس على ضفافه حيث باعة الصحف والمجلات والكتب والرسامون بلوحاتهم، وبعد ذلك توجهنا للاستراحة في أحد مقاهي الشارع الجميل «الشانليزيه» وهي من أجمل وأروع الشوارع في أوروبا كلها، وعلى جوانبه المحلات التجارية الضخمة ومكاتب البنوك وشركات الطيران والمطاعم الفخمة والمقاهي الجميلة، كل شيء موجود ولكن بأسعار مرتفعة. وفي هذا الشارع يشاهد المرء أصنافاً شتى من البشر حيث يوجد سائحون كثيرون من عرب وعجم وأشكال وألوان متباينة نشاهدهم في هذا الشارع غادين رائحين جماعات ووحداناً، منهم من يمشي الهوينا، ومنهم من يسير على عجل.

خلال تجولي في هذا الشارع الجميل وفي مقاهيه الأنيقة التقيت بعدد من الإخوان والأصدقاء من سعوديين وكويتيين وقطريين ممن أعرفهم سابقاً، ومنهم من جرى التعارف معه ولعل الفضل في تعارفنا في هذه الديار كما يقول الشاعر:

وكل غريب للغريب نسيب

وخلال هذا اللقاء أنست بلقاء الإخوة حيث أمضينا وقتاً جميلاً تحدثنا فيه عن هذه المدينة الصاخبة ومظاهر الحياة فيها وتاريخها القديم والحديث.

وفي هذا الشارع دخلت العديد من المكتبات التي تحفل بالكتب المتنوعة، ولعل جهلي باللغة الفرنسية من الأسباب التي لم تمكني من معرفة قيمة هذه الكتب وفائدتها.

ومع مجموعة من الأصدقاء توجهنا صوب برج (إيفل) ذلك البرج الحديدي الذي أقامه جوستاف إيفل، والذي بناه ليكون نموذجاً للمعرض الفني عام ١٨٨٩م، وقد عارضه في ذلك الوقت مجموعة من الشخصيات الفرنسية بحجة أنه غير مأمون ومعرض للسقوط.

وقد حكى لنا أحد الفرنسيين الواقفين بجواره قصصاً شتى عنه منها: أن الألمان حينما احتلوا فرنسا حاولوا تفكيكه وأخذ حديده وغير ذلك من الأحاديث التاريخية.. وقد شاهدت الناس يتفرجون على البرج وتعرضت لأسئلة كثيرة من قبل سائحين آخرين عن هذا البرج بلغات شتى وكنت أكتفي بهز رأسي!!..

وتركنا البرج للذهاب في رحلة لجبل السان ميشيل، وهو يبعد عن باريس ثلاث ساعات إلا أن زيارته متعة للسائح حيث مشاهدة الريف الفرنسي في المدن والقرى الجميلة والمزارع الخضراء البديعة، وهو يقع بين منطقتي البريثانية والنورماندي اللتين تلتقيان مع بحر المانش والأطلنطي، وهاتان المنطقتان غنيتان بالجمال الطبيعي مما يشد السائح ويجذبه للتجول ورؤية هذه الأماكن والصخرة التي يجثم عليها هذا الجبل يعترضها المد والجزر.

وهذا الجبل يعود لفترة طويلة من الزمن يعود إلى القرن الثامن الميلادي كما حكى لنا المرشد الفرنسي، وروى لنا أساطير وحكايات متعددة حول هذا المكان مما هو قابل للصدق والكذب،

ولعل منظر المدينة وأسواقها ومنازلها التي تطل من جهات متنوعة على البحر مما يلفت نظر السائح ويجعله ينعم بجو من الهدوء والانسجام والتأمل.

وبعد فترة من التجوال جلسنا في أحد المقاهي للاستراحة، وإذا بشيخ طاعن في السن من أبناء المنطقة يقبل علينا مرحباً، فرددنا عليه التحية وجلس بجوارنا فسألنا: من أي البلاد أنتم؟ فأخبرناه، فتحدث لنا عن بلاده وحضارتها القديمة وجعلها كل شيء فيها.

فقلت له: كما هو معروف تاريخياً قبل العصور الحضارية التي تشير إليها كانت بلادكم وغيرها من البلاد الأوروبية تعيش عصر ركود وتخلف فكري، فقد رأيتك قد ضربت صفحاً عما زخرت به بلاد الأندلس من حضارة مستفيضة كان لها الأثر الكبير في أوروبا، فإن كنت ترى أن بلادك وحدها أم الحضارات فإن أرضنا الطيبة هي منبع الوحي والعرفان.

فأدرك أنه مجحف في حق الآخرين فارتد قائلاً: نحن في مقام التحية والترحيب بكم، فجهلي بتاريخ بلادكم ليس معناه إنكار ذلك التاريخ أو نقده أو التقليل من شأنه.

فقلت له: عندما ظهر عصر النهضة في أوروبا أقبل العلماء الأوروبيون على ترجمة مؤلفات المسلمين كما استعان ملوك أوروبا بعلماء من العرب المسلمين على تدعيم مدارسهم ومؤسساتهم العلمية

وظل الأوربيون يعتمدون كلية وخلال ستمائة سنة على ترجمة الكتب العربية إلى اللغات الأوربية بل كانت النقود المتداولة في بعض البلاد الأوربية، منقوشة باللغة العربية، كما أن شارلمان ملك فرنسا حينما أرسل له هارون الرشيد الخليفة العباسي ساعة دقاقة اخترعها العرب فتعجب شارلمان وظنها رجاله سحراً، ولكن شارلمان أقنعهم بأنها من اختراع العرب وغير ذلك من الروايات التاريخية المعروفة..

ومن حديث إلى حديث سرعان ما امتلأت السماء بالغيوم الكثيفة وقبل أن يتساقط المطر عدنا إلى باريس استعداداً لرحلة آخر يوم إلى قصر فرساي الشهير.

في قصر فرسَاي:

وفي الصباح توجهت بصحبة بعض الإخوان إلى قصر فرساي وقد كان الجو صافياً جميلاً وكان الطريق ممتعاً- فقد حبا الله هذه البلاد بجمال طبيعي أخذ يسُر الناظر وينشرح له القلب مردداً قول الشاعر:

الأرض قد كسيت رداء أخضرا

والطل ينثر في رُباها جوهرا

ولأهمية التاريخ سوف أعطيك أيها القارئ لمحة تاريخية عنه.. قصر فرساي، يشمل القلعة والحدائق وبهو الأعمدة، ويصور المدى الذي وصل إليه الفن الفرنسي، فزوار المكان منذ القدم يبهرهم فن المعمار، والديكورات، وروعة الحدائق.

وقد نبعت عظمة فرساي من قوة فرنسا منذ عام ١٦٨٢م فصاعداً حيث أصبحت فرساي المقر الملكي الدائم والمركز الإداري للدولة.

وقد كان هذا القصر في البداية جناحاً متواضعاً خُصِّص لرحلات الصيد جرى تحويله أولاً إلى مقر ريفي، ثم اتسع كي يصبح قلعة حقيقية تحيط بها الحدائق.

وجرى استكمال القصر بعد ذلك ببناء مدينة حتى تم اختياره في النهاية كمقر رسمي للملك وبلاطه لإدارة شؤون البلاد.

وقد قام الملوك الأربعة الذين حكموا فرنسا منذ عام ١٦١٠م إلى ١٧٨٩م بإحداث تغييرات كبيرة على القلعة وما يُحيط بها من بيوت كل بما يتفق مع ذوقه ومفهومه لمعنى القلعة.

وكما أسلفنا القول فإن بناية القصر بدأت عام ١٦٢٣م على يد لويس السادس عشر بجناح صغير لرحلات الصيد على التل المُطِل على قرية فرساي شمالاً. وكان البناء رديئاً لا يلفت انتباه الإنسان العادي أو يثير إعجابه.

لكن الموقع كان من الجمال بحيث دفع لويس الثالث عشر عام ١٦٣١م لأن يطلب من فلبرت لي روي PHILIBERT LE RAY أن يبني به قلعة من الطوب والحجارة وتكون سقوفها من ألواح الأردواز.

وحين مات الملك عام ١٦٤٣م اضطرت زوجته النمساوية الملكة آن ANNE بفعل تقلب الظروف السياسية إلى تغيير محل إقامتها باستمرار والتنقل بابنها الصبي لويس الرابع عشر ما بين باريس وسان جرمان.

ونتيجة انبهار لويس الرابع عشر بقلعة فرساي الصغيرة قرر في مُستهل عام ١٦٦١م أن يولي كل اهتمامه نحو تجديدها حتى يستقر هناك. وبالتالي جرى تكليف الفنانين ومنهدسي المعمار بإنفاق كل وقت وجهد في توسعة وتجميل فرساي.

وكان رأي لويس الرابع عشر أنه لا يكفي تجميل المكان بالفنون التشكيلية المرئية بل يجب إضفاء أبهة الموسيقى والأدب عليه.

وقد حرص على إقامة ثلاثة مهرجانات، وتم اختيار موضوعات المهرجانات من أعمال أدبية كبرى وأوبرات عالمية.

وفي عام ١٦٦٨م بعد ثاني المهرجانات الثلاثة وأشهرها جميعاً قرر لويس الرابع عشر توسعة فرساي، وأقام البنايات الثلاث الكبرى حول القلعة الصغيرة بحيث تطل على الحدائق.

ولذا أصبحت قلعة لويس الثالث عشر مُحاطة من ثلاثة جوانب بالمباني التي صممها المهندس المعماري لي فو LE VAU.

وفي الجزء الشمالي منها أقيمت حجرات الملك، وفي الجنوبي حجرات الملكة مع شرفة فسيحة تفصل بينهما وتطل على الحدائق.

وبعد وفاة أشهر مهندسي النصف الأول من القرن السابع عشر الفنان (لي فو) تولى ابن أخيه فرنسوا مانسار FRANCOIS MANSART مسؤولية البناء- وقام بتمديد مساحة الواجهة المطلة على الحدائق، واستبدل الشرفة بالمجمع الذي يضم الصالون العسكري وصالون السلام وقاعة المرايا.

وفي داخل القلعة بنى المعماري MANSART السلم الملكي الخاص بالملكة في القسم الجنوبي ليقابل درج السفراء في الجناح الشمالي والذي تم هدمه فيما بعد عام ١٧٢٥م.

أما الحجرات الملكية المطلة على ساحة الرخام فتغيرت وأخذت طابعها الحالي مع غرفة النوم الملكية وسط القلعة.

وفي عام ١٦٦٩م بنى مانسارت الكنيسة الملكية التي افتتحها الملك عام ١٧١٠م بعد وفاة المهندس بسنتين، وتولى استكمال البناء صهره روبرت دي كوت ROBERT DE COTTE (١٦٦٥-١٧٣٥م).

وعند وفاة لويس الرابع عشر عام ١٧١٥م كان قصر فرساي قد استكمل شكله الخارجي الحالي- وقام الملوك الذين أتوا بعده بتغيير الديكور الداخلي للحجرات فقط.

وقام لويس الخامس عشر (١٧١٠- ١٧٧٤م) بتحويل قصر فرساي إلى مقر لإقامته من جديد وأضاف المزيد من الأبنية، ورغم أن هذه الإضافات ترتب عليها إزالة بعض الحجرات التي كانت تبهر زوار قصر لويس الرابع عشر إلا أنها أدت إلى بناء حجرات الملك الرائعة والتي حرص فيها الفنانون على التفوق على أنفسهم في العمل تحت إشراف المعماري جاك آنج جبراييل JACQUES-ANGE GABRIEL.

لقد كان هذا هو نفس المهندس الذي استكمل مشروعات بناء أوبرا فرساي الفخمة في واحد وعشرين شهراً في الجناح الشمالي من القلعة وتم الافتتاح عام ١٧٧٠م.

واليوم يستمر قصر فرساي في القيام بدور المتحف التاريخي.

ففي الجناح الشمالي تمثل غرف القرن السابع عشر مقدمة إلى جولة بين الحجرات الرسمية يمكن الاستمرار بعدها إلى قاعة المعارك. أما الحجرات في الجناح الجنوبي فقد خصصت لعصر نابليون. ومع حجرات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تكتمل هذه البانوراما الضخمة لتاريخ فرنسا.

لقد ترك كل من ملوك فرنسا بصماته على قصر فرساي الذي أصبح يضم كنوزاً لا تُحصى بالنسبة لكل من الزائر المتلهف للمعرفة ومؤرخ الفن.

فالرائي يحس في قلعة لويس الثالث عشر بروح الفن في أواخر القرن السادس عشر والفن الكلاسيكي في القرن السابع عشر حيث تلمس التطور الرائع في الفن الفرنسي. ورغم تنوع الآثار التي خلفها سكان القصر بأذواقهم المتباينة فإن القصر يُعطي انطباعاً متكاملاً شاملاً في الانسجام والتوافق الفني.

وسط هذا الجو عاش ملوك فرساي، وفي حدائق هذا القصر ترى البساط الأخضر تتناثر عليه أحواض الزهور ذات الألوان والنافورات المزخرفة وبرزت أهمية فرساي حيث أصبح مقراً دائماً للمعارض والمؤتمرات، وقد حكى لنا المرشد أشياء كثيرة عن هذا القصر وتاريخه، وأخيراً أنه تاريخ مضى ولن يرجع مهما حاول المسؤولون عن هذا القصر على إعادة الحياة إليه.

وبعد أن انتهينا من التجوال في القصر وحدائقه قمنا بالسير إلى البلدة التي تمتاز بمناظرها الساحرة ومتاجرها الأنيقة وشوارعها الفسيحة حيث تزخر بالحركة والنشاط السياحي، ثم عدنا بعد ذلك إلى العاصمة وخلال الطريق كنا نشاهد الريف الجميل، وننعم بالمناظر الرائعة حيث الأشجار والحدائق والحقول الممتدة مرددين قول الشاعر:

كست الطبيعة وجه أرضك سندساً
وحبت نسيمك إذ تضوع طيباً
بسط تظللها الغصون فأينما
يممت خلت سرادقاً منصوبا

وفي صباح يوم الاثنين كنت قد قررت السفر إلى لندن واتصلت بالخطوط الفرنسية لتأكيد الحجز وأخذت منهم مواعيد السفر فكان موعد الحضور إلى المطار صباحاً الساعة الثامنة والنصف، وقد أسرعت صباحاً في الذهاب إلى المطار، وفي الموعد المحدد كنت هناك، وبعد إنهاء الإجراءات أخذت رقم بوابة الخروج والتفت يميناً وإذا برجل مغربي يربت على كتفي قائلاً: الأخ عربي؟ فقلت: نعم وقد فرحت بوجوده حيث كان يتقن اللغة الفرنسية، فتعارفنا وأخذنا مقعدنا بين الجالسين في قاعة السفر، ونظراً لسعة الوقت فقد أشرت إليه أن نتجول ونشاهد ما بقربنا من أمكنة كالسوق الحرة والمقهى والمكتبة والمصرف لاستبدال النقود الفرنسية التي بقيت معي،

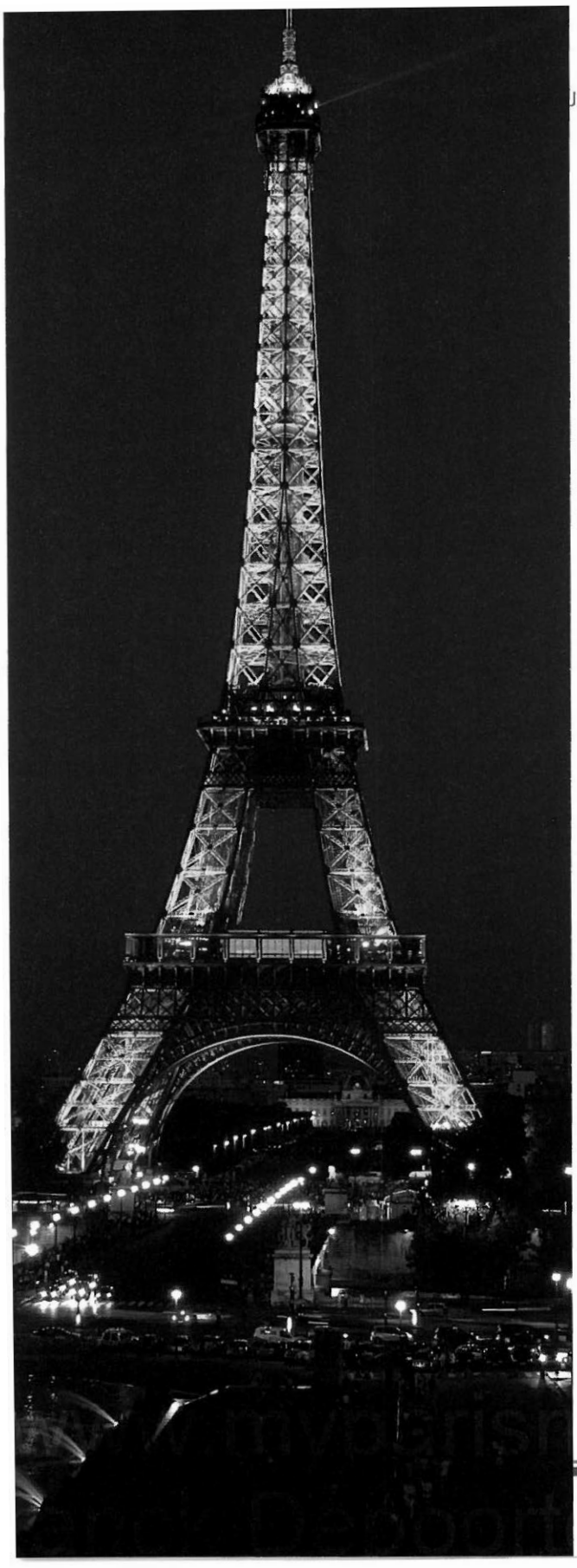

وكـان أخـونـا متحدثاً بارعاً باللغة الفرنسية فتحدثت إليه مما انطبع في ذهني من ذكريات عن باريس وعن فرنسا عموماً فـزادني معرفة بأمور كثيرة بحيث تمنيت أن يطول أمر الجلوس والانتظار ولكنا افترقنا. وقد كانت وجهته روما بينما أنـا مسافر إلى لـنـدن، وهـكـذا تبقى الأسفار رغم متاعبها فيها الذكريات والتعارف إلى جانب فوائدها الخمس المعروفة.

في بريطانيا

في يوم ١٥/٨/١٣٩٤هـ غادرت مطار شيكاغو إلى لندن، وبعد رحلة استمرت أكثر من تسع ساعات من الطيران هبطت الطائرة في مطار لندن وبعد الانتهاء من إجراءات الدخول المعتادة قصدت مدينة لندن وأويت إلى أحد الفنادق في قلب المدينة.

ولقد كان الطقس في لندن لطيفاً يغري بالنزهة رغم أنه غائم وينذر بالمطر، وبعد استراحة قصيرة خرجت من الفندق أتجول في شوارع المدينة وبين جنباتها ومتاجرها.

ومدينة لندن من أكبر العواصم الأوروبية وأكثرها ازدحاماً بحركة السير والسياحة، ومتاجرها غاصة بالسلع المختلفة، ولعل شارع أكسفورد هو أشهر منطقة للتسوق في لندن، وكذلك البيكاديلي وريجنت وباكر وغيرها من المناطق والشوارع ذات الحركة والنشاط

والازدهار. ولكم كتب الرحالة والمؤرخون عن هذه المدينة! فقد كانت عاصمة الدنيا وتوالت عليها صور من الأمجاد والماضي العريق، وبقيت الآن حروفاً في سطور.

وفي اليوم الثاني توجهت لحديقة هايدبارك أشهر المنتزهات حيث زانها الربيع نضرة وزينة وجمالاً، وكانت مليئة بأفواج من الناس من مختلف الجنسيات.. والأوربيون بصفة عامة يستمتعون بالربيع ويبتهجون به لأن الشتاء في أوربا همّ ثقيل وبرد قارس وغيوم

وأمطار وثلوج، كما أن الغمام المتراكم يسد الآفاق والثلج المتراكم يملأ الطرقات، فهم في شوق دائم وحنين متواصل إلى الربيع، فهو حيوية وحياة وحركة بعد انقباض وكآبة. فالربيع تجديد في حياتهم، ونشاط لهم، فالشمس والدفء من الأمور الحيوية الهامة في حياة أوربا وغيرها من البلدان التي هي شبيهة بمناخها بعكس بلادنا التي أنعم الله عليها بالشمس المشرقة طوال العام حتى ألفتها النفوس لأنها لا تنقطع وفي ذلك حكمة.. ولذا لم يحفل الأدب العربي بروائع قصائد الشعر في الشمس والدفء لأنهم ألفوها.

وفي هذه الحديقة شاهدت ألواناً شتى من الأجناس واللغات وغرائب العادات وطرائف التصرفات وطبائع الشعوب المختلفة والأصوات المتعددة، حيث ترتفع الأصوات في النقاش، ويغلظ القول ويزداد صلابة وقوة وخشونة، ولقد تذكرت قول إمام البيان الجاحظ حينما قال في الأعراب: إنما خشنت أصواتهم لمخاطبتهم الإبل، ولكن القوم الذين شاهدتهم لا أتصور أن أحداً منهم قد خالط الإبل، بل ولا شاهدها، ولقد شاهدت شاباً عربياً يتحدث عن قضية فلسطين ولم يكن ينصت إليه إلا بضعة رجال فتذكرت قول شاعرنا العربي:

قد طال نظمي للأشعار مقتدراً
والقوم في غفلة عني وعن شأني
هذي المعاني تناجيهم فما لهم
لا ينصتون بأفهام وأذهان

وإن لندن مدينة كبيرة، وهي ذات تاريخ قديم، فهي قد أسست قبل الميلاد بـ ٤٣ عاماً عندما شيد الرومان قلعة صغيرة على ضفاف نهر التايمز، والتاريخ يسجل أحداثاً درامية ورهيبة مرت بها هذه المدينة، وفي هذا العصر تغيرت واتسعت فهي المدينة الثانية في العالم، وأكبر موانئ أوروبا إلى جانب كونها اليوم مدينة سياحية ومركزاً للمال والتجارة ورجال الأعمال نظراً لضخامتها واتساعها وموقعها.

وحديقة هايدبارك تعتبر من أجمل المنتزهات التي تقع في غرب لندن، ولقد كانت في الماضي حديقة تابعة للملك هنري الثامن والمعروف بسفاح النساء.

ويرتاد هذا المنتزه مئات بل آلاف من الناس ويمضي الجميع وقتاً ممتعاً وبهيجاً حيث المناظر المتعددة والمشاهد المتنوعة، والخطباء من مختلف الأشكال والأجناس، وحيث الحلقات التي تجمع فيها أعداد من الناس، وذلك من العلامات البارزة في هذا المكان.

وفي هذه الحديقة يلتقي المرء بأعداد كبيرة من السياح والمصطافين وإلى جانب ذلك توجد الكتب المعروضة والصحف والمجلات وألعاب الأطفال إلى جانب البحيرة الجميلة بزوارقها اللطيفة حيث تؤجر للراغبين.

وبعد التجوال في جنبات هذه الحديقة التقيت بمجموعات كبيرة من الإخوان العرب، واقترح أحد الإخوة أن نبتعد قليلاً عن لندن وضوضائها، وأن نذهب في رحلة نهرية نروح بها عن نفوسنا، ونشاهد خلالها الكثير من معالم لندن من على ظهر قارب آلي في نهر التايمز، فاستغرقت رحلتنا بضع ساعات تمكنا خلالها من مشاهدة بعض المناظر العامة لمدينة لندن وسهولها وهضابها ومرتفعاتها وقصورها التاريخية وعماراتها العالية وفنادقها وساعتها الشهيرة.

وفي آخر يوم قمت بزيارة لبعض متاحفها إذ إنها تحتوي أصنافاً شتى من المتاحف العلمية والجيولوجية والزراعية والبحرية والتاريخية.

وخلال زيارتنا لمتحف لندن شاهدت ألواناً شتى من المعروضات فهو يطلع الزائر على تاريخ لندن منذ القدم إلى عصرنا الحاضر، وقد كان المبنى من القصور الملكية القديمة.

وذهبت بعد ذلك لحديقة لندن للحيوانات، وهي حديقة واسعة الأرجاء، وتحتوي على أصناف الحيوانات المشهورة في العالم، وقد أخبرنا المرشد أنه يوجد بها أكثر من ٨٠٠٠ حيوان من شتى أرجاء العالم، وبعد التجوال الطويل قصدنا المطعم للاستراحة به وتناول طعام الغداء.

ثم خرجت في رحلة إلى الريف الإنجليزي حيث الهدوء والجمال والمناظر الخلابة والنسيم العليل والمناخ الجميل والشاطئ البديع، والرياض الغناء والسفوح الخضراء الجميلة. وقد قمت بزيارة مجموعة أخرى من المعالم والآثار ودور العلم والمتاحف.. وكان من أبرزها المتحف البريطاني.

في مكتبة المتحف البريطاني:

المكتبات في كل أمة عنوان وعيها ودليل رقيها وتطورها، كما أنها مقياس لتقدم تلك البلاد ونهوضها، إذ هي من أهم ركائز المعرفة ودعامات العلم، فهي زاد لا ينضب تتحف القارئ والباحث والطالب والمعلم ورواد العلم والآداب والفنون بروافد ثرية وينابيع متدفقة من الفوائد والمعارف والعلوم.

ولقد أتيح لي من خلال وجودي في لندن زيارة مكتبة المتحف البريطاني في لندن، وهي من أكبر المكتبات في العالم وأحفلها ولها من الشهرة والمكانة مما هو معروف لدى الباحثين والدارسين، وعند الباب الداخلي وجدت خارطة توضع أقسام المتحف المتعددة، وعند الدخول للمكتبة يحتاج الإنسان إلى المرور بمكتب الأمين العام لتعبئة بعض

النماذج والأوراق، وذلك للحصول على بطاقة تعطيك حق الدخول إلى المكتبة مع تحديد الأيام التي تحتاج إليها في ارتياد المكتبة.

ولقد رأيت العديد من رجال العلم والمعرفة والباحثين والدارسين قد جاؤوا من مختلف البلدان وشتى الجامعات ومراكز البحوث وغيرهم من الطلاب الذين يحضِّرون الرسائل العلمية.

وفي هذه المكتبة تشاهد أصنافاً شتى من الناس، وبعد استكمال إجراءات الدخول وزعوا علينا مجموعة من النشرات تحمل بعض الملاحظات للقراء والزائرين عن كيفية استخدام غرفة القراءة وقاعة المكتبة، والتنظيمات التي تحكم السلوك العام داخل الغرف، وكيفية الحصول على الكتب وطريقة إعادتها في نهاية اليوم.

وفي حالة الرغبة في الاحتفاظ بالكتاب في اليوم الثاني فلابد من كتابة الاسم على ورقة صغيرة موجودة مع الكتاب حتى تتمكن من الحصول عليه غداً بيسر وسهولة، ومتى أراد القارئ حجز كتاب لليوم التالي فلابد من إعطاء الاسم ورقم المقعد حتى يصل إليه الكتاب.

أما الوثائق والخرائط والمخطوطات فيوجد لها دليل خاص وللحصول على ما يريد الباحث فلابد من الاستعانة بأحد المرشدين في المكتبة.

أما المراجع العلمية فهي موجودة بجوار المقصورات المعزولة صوتياً داخل المكتبة.

أما القراء الذي يرغبون في استخدام المايكروفيلم أو المايكروفيشات

أو المايكروكارد فإن عليهم أن يتقدموا بطلباتهم إلى الموظف المختص بقاعة المكتبة ومن ثم تقديم ما يطلبه القارئ بسرعة وسهولة..

وفي هذه المكتبة تتم الخدمات الإعلامية باستخدام الكمبيوتر، فيمكن للقارئ الحصول على المعلومات التي يحتاجها من معرفة بقوائم الكتب أو الحصول على مقالات وبحوث حول موضوعات معينة..

كل ذلك يتم بطريقة معينة عن طريق الحاسب الإليكتروني وفي مقابل بعض الرسوم لتلك الخدمات.

وفي قاعة المطالعة شاهدت مئات المجلدات التي تشتمل على قوائم الكتب المقيدة لدى المكتبة، وهي مرتبة ترتيباً أبجدياً تحت رؤوس موضوعات. ولقد لاحظت أن أغلبها منذ عام ١٨٨١م إلى ١٩٦٠م.

أما الكتب الأخرى فهي مدونة على شريط في الفترة من عام ١٩٦١م إلى ١٩٧٥م، كما يوجد شريط يحتوي على جميع الكتب والمراجع التي اقتنتها المكتبة منذ عام ١٩٧١م إلى ١٩٧٥م.

وخلال زيارتي للمتحف توجهت لزيارة القسم الشرقي من مكتبة المتحف، وهناك التقيت بمدير القسم العربي الدكتور ياسين الصفدي، فأخبرته برغبتي بالاطلاع على قوائم الكتب العربية المطبوعة الموجودة لديهم، وكذا المخطوطات العربية، فيسر لي الاطلاع على بعض الكتب والمخطوطات العربية، ولقد اطلعت على فهرس الكتب العربية الموجودة في المتحف.. ثم تحدثنا عن الكتب

العربية والمؤلفات والمخطوطات، وعن الاستشراق والمستشرقين ودورهم في نشر التراث، واطلعت على بعض المخطوطات ومن ذلك كتاب لأحد المستشرقين بعنوان «يوميات من ينبع إلى القطيف»، وهذا الكتاب في طريقه لأحد الناشرين في الكويت، وأبى كرم الأستاذ الصفدي إلا أن نعطيه موعداً للغداء فكان لقاء في أحد المطاعم المجاورة للمكتبة الشرقية، فكانت فرصة أخرى للحديث عن المكتبة العربية والمخطوطات وعن جهود الناشرين لكتب التراث، وعن المكتبة الشرقية وما تقدمه من تسهيلات للباحث، وتحدثت عن أهمية العناية بهذه المخطوطات ووضع فهارس شاملة لها وتوزيعها على المهتمين بذلك ونشر دراسات وافية عن نوادر المخطوطات.

إن القسم العربي في المكتبة يحتوي على أكثر من مائتي ألف مطبوع، وحوالي عشرة آلاف مخطوطة، وغير ذلك من الوثائق.

ورغم الساعات الطويلة التي أمضيتها في رحاب المتحف البريطاني وقاعاته المختلفة التي تحتوي على بعض الآثار والمقتنيات الشرقية والرومانية، وكذا بعض الرسوم الفنية فلم أتمكن من مشاهدة ورؤية الكثير مما يشتمل عليه المتحف.. وخرجت وأنا أحمل شتى الانطباعات وأجمل الذكريات وهي جديرة أن تذكر في سجل أوائل المكتبات..

وبعد تمضية عدة أيام في لندن غادرتها والنفس مفعمة بشتى الانطباعات والذكريات.

ما بين قصر فرساي ومتحف اللوفر ومعهد العالم العربي في باريس

والرحلات من أوسع أبواب المعرفة والثقافة الإنسانية لكشف المجهول، والوصول إلى الغاية، ومعرفة الحقيقة، والاطلاع على المعالم والآثار، والاستمتاع بمشاهد التاريخ، ومعالم الحضارات، ومظاهر الحياة وما تزخر به من جبال ووهاد وبحار وأنهار وأنساب ونبات.

ولقد تيسّر السفر والانتقال في هذا العصر، واستطاعت وسائل الإعلام بتقنياتها الهائلة أن تجعل من العالم قريةً صغيرةً وكتاباً مفتوحاً لأغلب شعوب الأرض.

وما زالت الرحلات إلى يومنا هذا مصدراً لتعرّف أحوال الأمم وثقافات الشعوب؛ فهي مصدر للمؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع، ولقد قيل:

سفر الفتى لمناطق وديار
وتجول في سائر الأمصار

علم ومعرفة وفهم واسع
وتجارب ورواية الأخبار

وللرحلات أثر علمي كبير في تدوين ثقافات الأمم وحضاراتها. وفي صيف سنة ١٤٢٧هـ قمتُ برحلة إلى فرنسا، وهي بلاد حافلة

بالمعالم الشهيرة، والمتاحف، والمكتبات، ومؤسسات الثقافة، ودور الفنون، والجامعات، ونهر السين، والمباني التاريخية، وينفرد كلّ منها بجماله وأناقته الأخاذة.

بدأت الزيارة بمتحف اللوفر، الذي يحتوي على تراث عالمي، وعلى مجموعة من أثمن كنوز العالم على الإطلاق، مع أن القرون الثمانية التي عاشها حافظ فيها على تناسق رائع كقلعة حصينة بناها

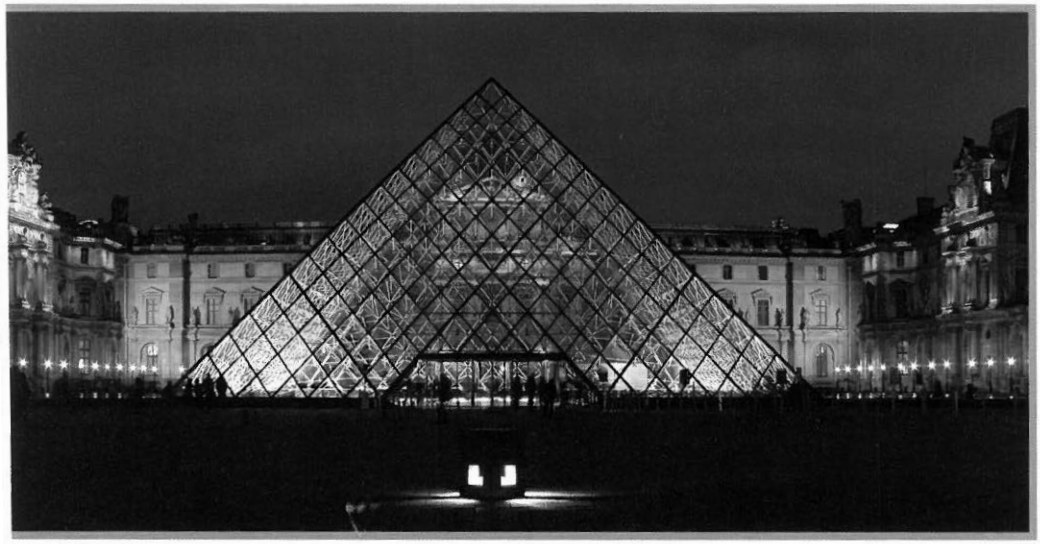

فيليب أوغست عام ١١٩٠م؛ لذا يُطلق عليه الفرنسيون متحف اللوفر الكبير، وقمتُ بزيارة قاعات المتحف، والتوقف بين لحظة وأخرى عند المعروضات التي نعتقد أنها أكثر جاذبيةً لكلّ واحد منا، ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال لأي زائر استيعاب جميع المعروضات المتحفية، ولابد من قراءة الأدلة التي يصدرها المتحف بلغات كثيرة عدا اللغة العربية، منها دليل موجز، ويشتمل على ما يقارب ٨٥٠

صورة مقرونة بمعلومات موجزة تغطّي المراحل التاريخية التي تمثّلها العروض المتحفية.

وفي هذا الصدد يقول رئيس متحف اللوفر في مقدمته لهذا الدليل: «إن الزائر يُفاجأ للوهلة الأولى بالحجم الكبير للمتحف وثرائه بالمجموعات المتحفية؛ فالمتحف يعدّ آلةً لا يتوقف وقتها بشكل غير طبيعي، وينتقل الشخص من قاعة إلى قاعة، ويرتحل عبر القرون على امتداد الحضارات، لذلك فإن الدليل المطبوع يختصر الوقت للزائر والقارئ في آنٍ واحد؛ إذ ليس بالضرورة أن يشاهد الزائر كلّ شيء في المتحف، لكن الدليل يغطي كل شيء.

ويعود البناء المعماري لمتحف اللوفر إلى أواخر القرن الثاني عشر للميلاد، وتعاقبت على المبنى مراحل معمارية كثيرة من قبل ملوك فرنسا، ولعل من المشروعات التي بُدئ بتنفيذها هو إنشاء جناح كبير ليستوعب أكثر من عشرة آلاف قطعة نادرة من الفن الإسلامي تغطّي الحضارة الإسلامية عبر العصور.

ويتكون متحف اللوفر من أربعة طوابق: السفلي، والأرضي، والطابق الأول، والطابق الثاني. وتتوزّع في هذه الطوابق الأربعة قاعات العروض الرئيسة.

ويحتوي البهو الرئيس للمتحف تحت الهرم الزجاجي على المرافق وخدمات كثيرة، منها: المركز الإعلامي، والخدمات المجانية، ومكاتب الحجوزات للزيارات الجماعية، ومركز المتحف على شبكة

الإنترنت، وخدمات ذوي الاحتياجات الخاصة، وقاعة كبرى للمحاضرات، إضافةً إلى المكتبة، والمتاجر، والمستنسخات، والمقاهي، والمطاعم، ومرافق أخرى كثيرة.

ومتحف اللوفر يستقبل الزوّار كل يوم عدا الثلاثاء، وبعض أيام العطل الرسمية. وقد خرجتُ من المتحف مردّداً قول الشاعر:

وإذا لم تَـــدْرِ مـا قـــوم مـضـوا
فـاســأل الآثـــار واســتـنـبِ الـديـارا

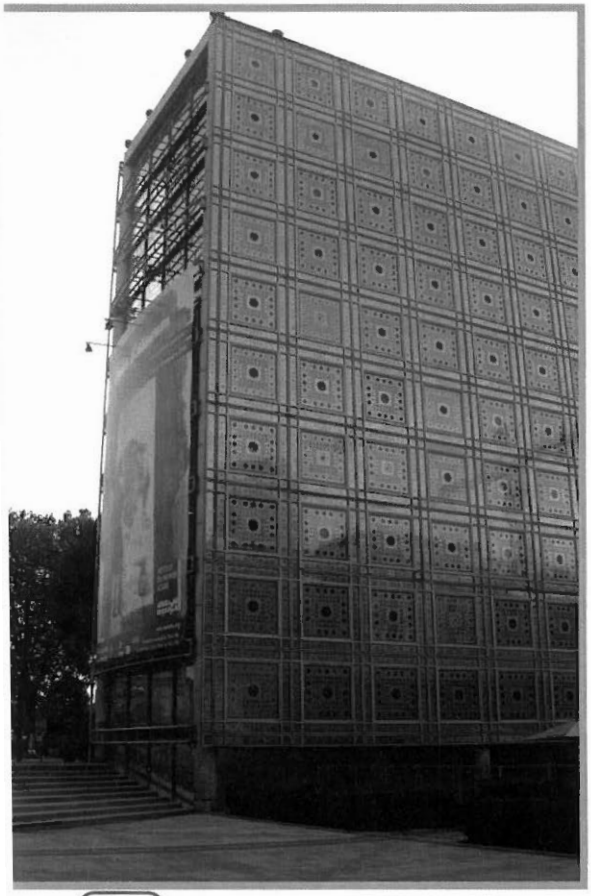

ثم قمتُ بعد ذلك بزيارة معهد العالم العربي في باريس، الـذي هو جسر بين الثقافتين العربية والفرنسية. ذهبت إلى مقرّ المعهد الواقع في أفخم أحياء باريس، وقد نُقشت مقولة الإمام علي بن أبي طالب: «قيمة كلّ امرئ ما يحسنه» على مدخله.

وكان في استقبالنا الدكتور مختار طالب بن دياب - مدير المعهد، وهو من الجزائر- فرحّب بهذه الزيارة، ووجدنا منه كلّ حفاوة وتقدير، ثم استدعى

الأستاذ عدنان الشافعي مدير المكتبة، ومديرة المتحف، وهي سيدة فرنسية؛ للقيام معهما بجولة على أرجاء المعهد.

لقد تمّ بناء معهد العالم العربي في قلب باريس على أيدي عدد من المهندسين المعماريين، وشارك أحد المهندسين السعوديين في ذلك. ولقد استُوحي في تصميمه أسلوب العمارة العربية الإسلامية؛ فالصحن في قلب المبنى، وقاعة الأعمدة، يذكّران بالمسجد الجامع في قرطبة، وبرج الكتب في صدر المكتبة يستوحي المئذنة الشهيرة في سامراء بالعراق.

والواقع أن جملة مبانيه عناصر تذكّر بالعمارة الإسلامية، ويتم الصعود بين طوابقه من خلال مصاعد شفافة. كما أن الثقافة الغربية شديدة الحضور في أكثر معانيها من خلال الأشكال والفضاءات، واختيار المواد التي يهيمن فيها الزجاج والفولاذ والأنوار والظلال، والمعهد محاذٍ لضفة نهر السين، ويواجه جزيرة سان لويس، التي يطلّ سطحها على منظر شديد الجمال، كما أن الواجهة الجنوبية تؤلّف شاشة تعكس باريس الحديثة.

ويعدّ المعهد مكان حوار بين الثقافتين العربية والغربية، فهو مؤسسة ثقافية لمعرفة العالم العربي، ولغته، وحضارته، وجهده في التنمية، وفهمه، وتطوير دراسته وتعميقها، وتشجيع المبادلات الثقافية، والتواصل والتعاون بين فرنسا والعالم العربي، خصوصاً في مجال العلوم والتقنية، والإسهام في تطوير العلاقات بين العالم العربي وأوربا.

وخلال زيارتنا المتحف شاهدنا مجموعةً من التحف التاريخية؛ إذ يحتوي على ٦٠٠ قطعة يمكنها أن تسهم في فهم تاريخ العالم العربي في جوانبه المختلفة، وهناك قطع أثرية من بعض الأقطار العربية، وقد شاهدت عدداً من الزوار يتأملونها، ويستفسرون عن تاريخها.

كان معنا في زيارة المكتبة مديرها الأستاذ عدنان الشافعي، وقد حدثنا عن المكتبة ونشاطها؛ إذ يحتلّ ثلاث قاعات على ثلاثة طوابق تستقبل يومياً أكثر من ٦٠٠ قارئ، وتشتمل على ١٥٠ مكاناً للجلوس، وفضاء مخصّص لقراءة الصحف، و١٥ جهازاً للاستعلام، وإنترنت، وثمانية بنوك معلومات للمكتبة، وتضم كذلك ٨٥ ألف مجلد، نصفها باللغة العربية، ونصفها باللغات الغربية، خصوصاً الفرنسية. وسألته عما تتناول هذه الكتب، فقال: الدين، والأدب، والتاريخ، والفلسفة، وعلوم اللغة، والعلوم الاجتماعية في العالم العربي. كما تضم ١٥٠٠ دورية، مع ٣٢٠٠ مقالة مفهرسة، وكذلك ٤٠ صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية.

وسألته عما تنشره المكتبة، فأفاد ببليوجرافيا وملفات وثائقية وعدة كتب، آخرها: الحصان العربي من الأمس إلى اليوم، وخمسون عملاً من روائع الأدب العربي، والأمير عبدالقادر، والأدب الفلسطيني المعاصر، وغيرها.

كما يُقام معرض الكتاب العربي الأوربي على باحة مبنى المعهد كل عامين، وتجتمع فيه ٢٥٠ دار نشر عربية وفرنسية وأوربية؛ لتقديم آخر منشوراتها في مجال الثقافة والحضارة العربية.

وسألتهم عن دور المعهد من حيث تشجيع الثقافة العربية، فأفادوا بأن المعهد يدعو المبدعين في العالم العربي، ويوفّر لهم فرص تعرّف بعضهم إلى بعض وإلى الأدباء الغربيين، وتعرّف أعمالهم الثقافية، إلى جانب الحوار بين القيم الحضارية التي تتجسد في تعايش الثقافات.

ويوجد في المعهد منوّعات من الأنشطة، والمعارض، والأمسيات، والندوات الأدبية، والمؤتمرات، ومجلة ثقافية فصلية باسم (قنطرة) تهدف إلى بناء جسر بين العالم العربي والأوربي.

ويستقبل كرسي المعهد كلّ ثلاثاء شخصيات عربية أو فرنسية أو أوربية من مستوى رفيع؛ للقيام بإلقاء سلسلة من المحاضرات تهدف إلى تقديم دراسة في مجال تاريخ العالم العربي ومجتمعه وثقافته، ويتم نشر هذه المحاضرات ضمن سلسلة كرسي معهد العالم العربي. وهناك المقهى الأدبي في كلّ يوم أربعاء وخميس؛ إذ تُعقد ندوات حول مختلف الموضوعات بحضور مؤلف يُدعى بمناسبة صدور كتاب أخير له.

وبعد أن أمضينا عدة ساعات في رحاب هذا الصرح العربي الشامخ أحسسنا أننا حاجة إلى الراحة، فتوجّهنا نحو قاعة الطعام في المعهد، وتناولنا طعام الغداء، ثم شاركنا المسؤولون في المعهد الذين غمرونا بلطفهم، وتفضّلوا علينا ببشاتهم وكرم أخلاقهم؛ إذ سُررنا برؤية هذا المعهد في قلب عاصمة الثقافة والفنون.

ويعدّ المعهد من أبرز سبل التواصل الحضاري والتبادل الثقافي بين المشرق العربي والعالم الغربي، وهو يسعى إلى تعميق دراسة العالم العربي، ومعرفته، وفهمه، من حيث لغته وحضارته وسعيه إلى التنمية، كما يضطلع بإحياء التراث الثقافي العربي عبر كل العصور من خلال أنشطته المتعددة.

وفي الصباح توجّهنا بصحبة بعض الإخوان إلى قصر فرساي الساحر المفعم بالأبهة والبناء المزيّن بالرخام والذهب والكريستال، وكان الجو صافياً جميلاً، وكان الطريق ممتعاً؛ فقد حبا الله هذه البلاد بجمال طبيعي أخّاذ يسرّ الناظر، وينشرح له القلب، مردّداً قول الشاعر:

الأرض قد كسيت رداءً أخضرا
والطلّ ينثر في رُباها جوهرا

ولأهمية القصر التاريخية سأعطيك -أيها القارئ- لمحةً تاريخيةً إليه. يشمل قصر فرساي القلعة والحدائق وبهو الأعمدة، ويصوّر المدى الذي وصل إليه الفنّ الفرنسي؛ فزوّار هذا المكان منذ القدم يبهرهم فن المعمار، والديكورات، وروعة الحدائق؛ فهو من أعظم قصور ملوك فرنسا.

كان هذا القصر في البداية جناحاً متواضعاً خُصِّص لرحلات الصيد، ثم جرى تحويله أولاً إلى مقرّ ريفي، ثم اتّسع كي يصبح قلعةً حقيقيةً تحيط بها الحدائق.

وجرى استكمال القصر بعد ذلك ببناء مدينة؛ حتى تم اختياره في النهاية مقراً رسمياً للملك وبلاطه لإدارة شؤون البلاد. وقد قام الملوك الأربعة الذين حكموا فرنسا منذ عام ١٦١٩م إلى ١٧٨٩م بإحداث تغييرات كبير في القلعة، وما يُحيط بها من بيوت، كلّ بما يتّفق مع ذوقه ومفهومه لمعنى القصر وتاريخه. ففي الجناح الشمالي تمثّل غرف القرن السابع عشر مقدمةً لجولة بين الحجرات الرسمية يمكن الاستمرار بعدها إلى قاعة المعارك. أما الحجرات في الجناح الجنوبي، فقد خُصِّصت لعصر نابليون. ومن تجديد حجرات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تكتمل هذه البانوراما الضخمة لتاريخ فرنسا.

لقد ترك كلّ ملك من ملوك فرنسا بصماته على قصر فرساي، الذي أصبح يضمّ كنوزاً لا تُحصى لكل من الزائر المتلهف للمعرفة ومؤرّخ الفن؛ فالرّائي يحس في قلعة لويس الثالث عشر بروح الفن في أواخر القرن السادس عشر، والفن الكلاسيكي في القرن السابع عشر؛ إذ تلمس التطور الرائع في الفن الفرنسي. وعلى الرغم من تنوّع الآثار التي خلفها سكان القصر بأذواقهم المتباينة فإن القصر يعطي انطباعاً متكاملاً شاملاً في الانسجام والتوافق الفني.

وسط هذا الجو عاش ملوك فرساي، وفي حدائق القصر ترى البساط الأخضر تتناثر عليه أحواض الأزهار ذات الألوان والنافورات المزخرفة. وبرزت أهمية فرساي عندما أصبح مقراً دائماً للمعارض

والمؤتمرات. لقد حكى لنا المرشد أشياء كثيرة عن هذا القصر وتاريخه؛ فهو تاريخ مضى ولن يرجع مهما حاول المسؤولون عن هذا القصر إعادة الحياة إليه.

وبعد أن انتهينا من التجوال في القصر وحدائقه قُمنا بالسير في البلدة التي تمتاز بمناظرها الساحرة، ومتاجرها الأنيقة، وشوارعها الفسيحة التي تزخر بالحركة والنشاط السياحي. ثم عُدْنا بعد ذلك إلى العاصمة، وخلال الطريق كنا نشاهد الريف الجميل، وننعم بالمناظر الرائعة حيث الأزهار والأشجار والحدائق والحقول الممتدة مردّدين قول الشاعر:

كست الطبيعة وجه أرضك سندساً
وحبت نسيمك إذ تضوع طيباً
بسط تظللها الغصون فأينما
يممت خلت سرادقاً منصوبا

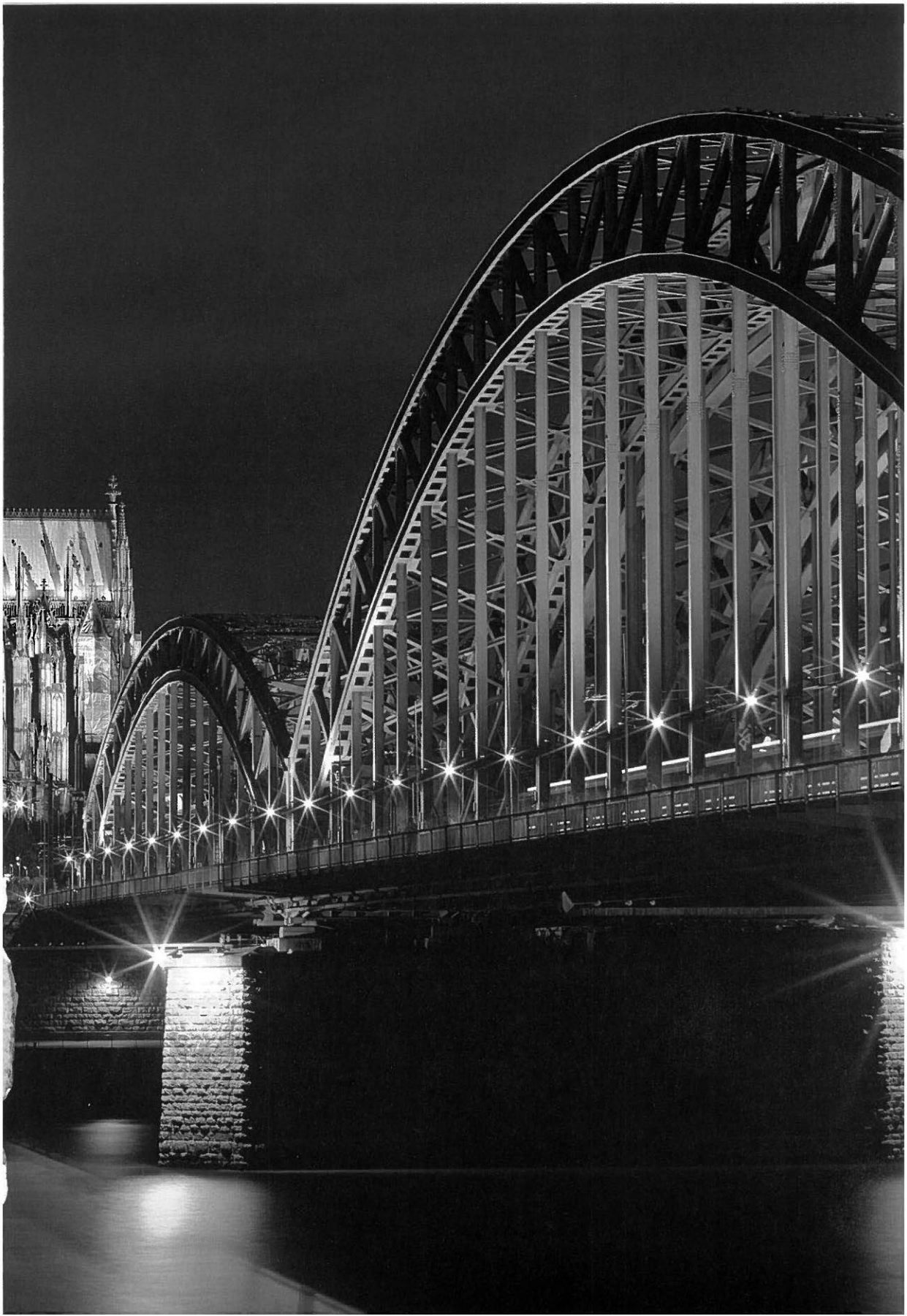

في ألمانيا

لأدب الرحلات أهمية كبيرة، إذ حفل تراثنا العربي الإسلامي بذلك وترك أسلافنا ثروة كبيرة تعتبر من أهم روافد الثقافة والأدب والتاريخ.. وإذا كانت الرحلات بالأمس ممارسة شاقة.. فإن الرحلات في هذا العصر أصبحت ممتعة بفضل الله، ثم بفضل تطور وسائل المواصلات.

وفي الرحلات يتعرف المرء على حقائق تاريخية وجغرافية وعلمية وأثرية، وعبر دروس ومواقف وأشخاص وجبال وأنهار... الخ. وكل شاهد رحلة يروي مشاهداته على طريقته وأسلوبه.. والمهم أن ينتفع المرء بما رأى.. ففي الرحلات دروس وعبرة ومتعة للخيال والذهن.. وهناك أناس يروحون ويجيئون دون أن يستفيدوا أو يتثقفوا من الرحلات.

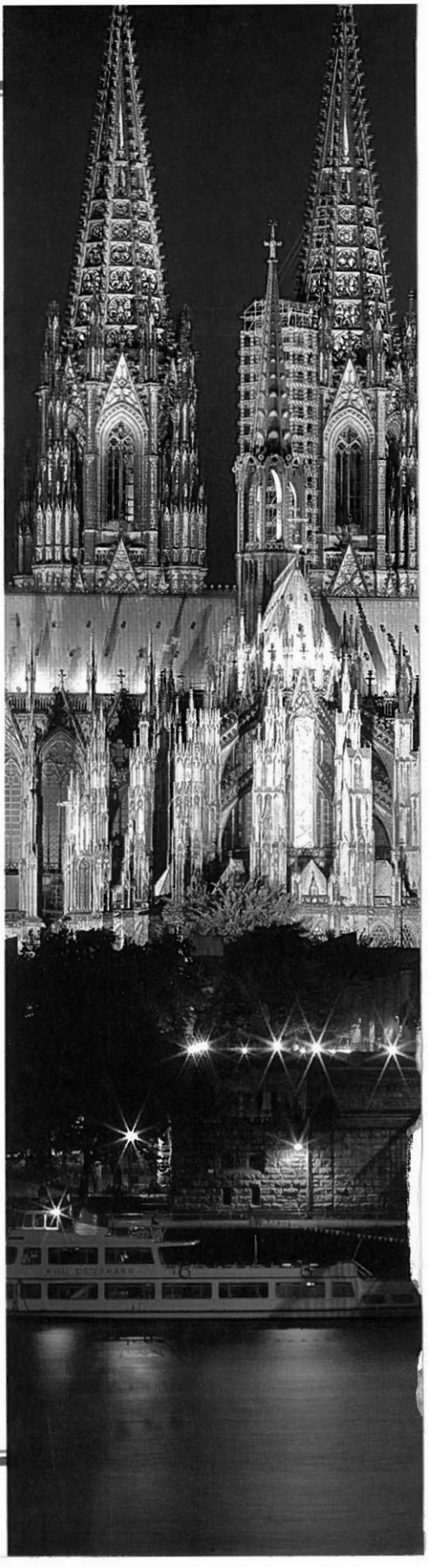

ولعل من أبرز صفات الرحالة أن يكون صبوراً قادراً على الاحتمال في البحث، وتحمل المواقف المتنوعة والمفاجئة، والعيش مع أناس غرباء.

ولقد رأيت في رحلاتي أصنافاً شتى من الرحالين والسائحين. فهناك من يعشق الشمس ويبحث عنها، وهناك من يهوى تسلق الجبال والصعود إلى قممها.. وآخرون يبحثون عن الجليد والتزلج عليه ويجدون في ذلك لذة ومتعة، وآخرون يبحثون عن العلم والأدب والفن.

ومما لاحظته خلال رحلتي مجموعات سياحية من شتى الأجناس، حريصون على الرحلات والتجوال في البلدان، وزيارة مختلف القارات، وخاصة التي تحوي الآثار والمعالم التاريخية القديمة.. فهم يعدون العدة لذلك ويخططون للسياحة ويوفرون مصاريفها من طعامهم وشرابهم. كما لاحظت اهتمامهم بكل صغيرة وكبيرة، ووقوفهم على كل أثر ومعلم، وإعجابهم بكل ما يشاهدونه، ويصدقون كل ما يسمعونه من المرشدين السياحيين رغم ما قد يكون فيه من مبالغات وقصص خيالية.

إن أدب الرحلات أدب شهي لذيذ بما يقصه من ذكريات وأخبار ومعلومات عن أحوال الأمم، وما تتميز به من عادات وتقاليد.. ولقد استأثر أدب الرحلات باهتمام كثير من طبقات مثقفي العالم قديماً وحديثاً وعني به أعلام بارزون عبر أطوار التاريخ فتركوا لنا فيه ثروة تعتبر من أهم روافد الثقافة على اختلاف مناهج الرُّحَّل من أجناس العالم.

ولنعد إلى موضوع رحلتنا:

ففي صباح يوم ١٤٠٦/١١/٢٣هـ غادرنا النمسا صباحاً وبدأت رحلتنا لألمانيا.. وعلى متن إحدى العربات السياحية وضعنا أمتعتنا وتهيأنا للسفر مردداً قول الشاعر عمر بن أبي ربيعة:

ولما قضينا من مِنىً كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطي الأباطح

وشدت على «دهم المرسيدس» رحالنا
ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

ولقد اخترنا الرحلة بالسيارة لنتمكن من الإحاطة والاطلاع بشكل أوسع.

وجمعتنا الرحلة مع مجموعات شتى من مختلف البلدان، وبالطبع فلابد من الاندماج والتعرف على هؤلاء، وذلك بالبدء بتحيتهم والتعارف معهم كما قال شاعرنا العربي:

قد يمكث الناس حيناً ليس بينهم
ود فيزرعه التسليم واللطف

وقد أخبرنا المرشد أننا سوف نصل الحدود النمساوية الألمانية بعد سير نصف ساعة. وبعد أن وصلنا الحدود كان الوقوف بضع دقائق..

لم نهبط من سيارتنا أو يُطلب منا فتح الحقائب وهكذا في جميع البلدان الأوربية التي مررنا بها.

ثم واصلنا المسيرة في داخل الأرض الألمانية وكانت الساعة التاسعة صباحاً، والسماء كلها ضباب كثيف وأمطار رغم أننا في شهر أيلول (سبتمبر).

فالأرض قد كسيت رداءً أخضرا
والطل ينثر في رباها جوهرا

ووصلنا إلى بلدة «قوقن» الألمانية حيث تناولنا طعام الإفطار في أحد مطاعمها ودفعنا لهم الثمن بالشلن النمساوي، إذ لم نكن بعد قد استبدلنا الدولار بالمارك الألماني. وقد أخبرونا بأن الشلن مقبول

الدفع في الكثير من المدن الألمانية، ثم توجهنا إلى قلعتها السياحية فوجدناها مليئة بالسواح من مختلف الأمم، ثم واصلنا الصعود في سيارات سياحية خاصة بالصعود إلى تلك المناطق التي تقوم الجبال العالية في جوانبها، وكان الطريق ضيقاً ومرتفعاً بشكل لا يسمح بمرور سيارتين حتى وصلنا إلى جبل شاهق أخبرونا أنه كان

مقراً للقائد الألماني «هتلر».. ثم صعدنا بواسطة مصعد وسط الجبل لمشاهدة استراحة هتلر وموسوليني والمقر الذي كانا يلتقيان فيه، وقد حُوِّل إلى منطقة سياحية تحف بها المطاعم والمقاهي وأماكن لبيع التحف.

ثم عدنا مع ذلك الطريق المرعب، وصادف أن التقت العربة التي نستقلها بعربة أخرى فأخذ كل منهما يدنو إلى حافة الجبل الشاهق، وقال المرشد: إن هذا الموضع يسمى مكمن الخطر فكم من سيارة تدحرجت في أرجائه! فقلنا: وما دمتم تعرفون صعوبة اجتيازه وخطورته وضيق ممراته فلماذا تذهبون بنا إليه وليس هناك ما يدعو إلى هذه الرحلة التي تشد الأعصاب!؟.. ولكنكم أيها الأوربيون مفتونون بالبحث وركوب الخطر لأمور ليست ذات بال. وبعد أداء الامتحان المروري الرهيب لسائق عربتنا صفق الجميع لمهارته وقدرته على السير على حافة الجبل.. ثم توجهنا بعد ذلك إلى مدينة قوقن التي تركنا فيها سيارتنا، وصعدنا فيها شاكرين الله على السلامة والعافية.

وواصلنا السير صوب مدينة «انسبرك) في جو بهيج جميل حيث طاف بي الخيال في أغوار التاريخ، فنحن في ألمانيا بلد الصناعات العملاقة وضجة التاريخ، وتذكرت بسمارك وهتلر وما عانته هذه البلاد من ويلات الحروب والشقاء حيث خرجت من الحرب بأسوأ نصيب، وفقدت الملايين من أبنائها، ودمرت حضارتها وعمرانها، فقد أثخنتها الحرب العالمية الثانية بالتدمير والتخريب.

وهكذا كنت أستعرض في ذهني ذكريات شتى عن هذه البلاد ماضياً وحاضراً حتى صحوت من تخيلاتي وأفكاري على صوت الدليل السياحي الذي أخذ يحدثنا عن ألمانيا وتاريخها ومصانعها

والهزيمة الألمانية في سنة ١٩٤٥م، حيث أصبحت أمة مجزأة مقسمة وانتصار الحلفاء وما عانته برلين من تخريب جسيم، وتقسيمها وضياع دورها كعاصمة مزدهرة بالأمس.

حقاً إن انتصار المعارك والدماء والدمار لم يخلد هولاكو ولا الاسكندر المقدوني ولا نيرون أو هتلر أو غيرهم لأن نهايتهم تعيسة.. وما أكثر ندم من غلطوا في حق أممهم وأوطانهم وأثاروا الفتن والدمار لبلادهم! وألمانيا اليوم مؤلفة من إحدى عشرة مقاطعة، وهذه المقاطعات متفاوتة في نشاطها وثرائها واقتصادها ومعاملها ومصانعها.

وخلال سيرنا كنا نشاهد الطرق الواسعة والغابات بأشجارها الكثيفة.. ووصلنا مدينة «انسبرك» حيث توجهنا صوب فندق «بيلفير» في وسط المدينة، وبعد استراحة استغرقت ساعة.. ذهبنا في جولة لأطراف المدينة لزيارة ما أمكن رؤيته من معالمها، كمتحفها القومي وحدائقها والمدينة القديمة وأهم شوارعها.. ثم عدنا للفندق حيث أمضينا تلك الليلة بها.

وفي الصباح شددنا الرحال لزيارة المزيد من المدن الألمانية والتعرف على هذه البلاد التي تبلغ مساحتها ٩٥٫٧٩١ ميلاً مربعاً، أما السكان حسب آخر إحصاء فكانوا (٦٢٫٧٥٠٠٠٠ نسمة)، وعاصمتها بون ولغتها الألمانية.

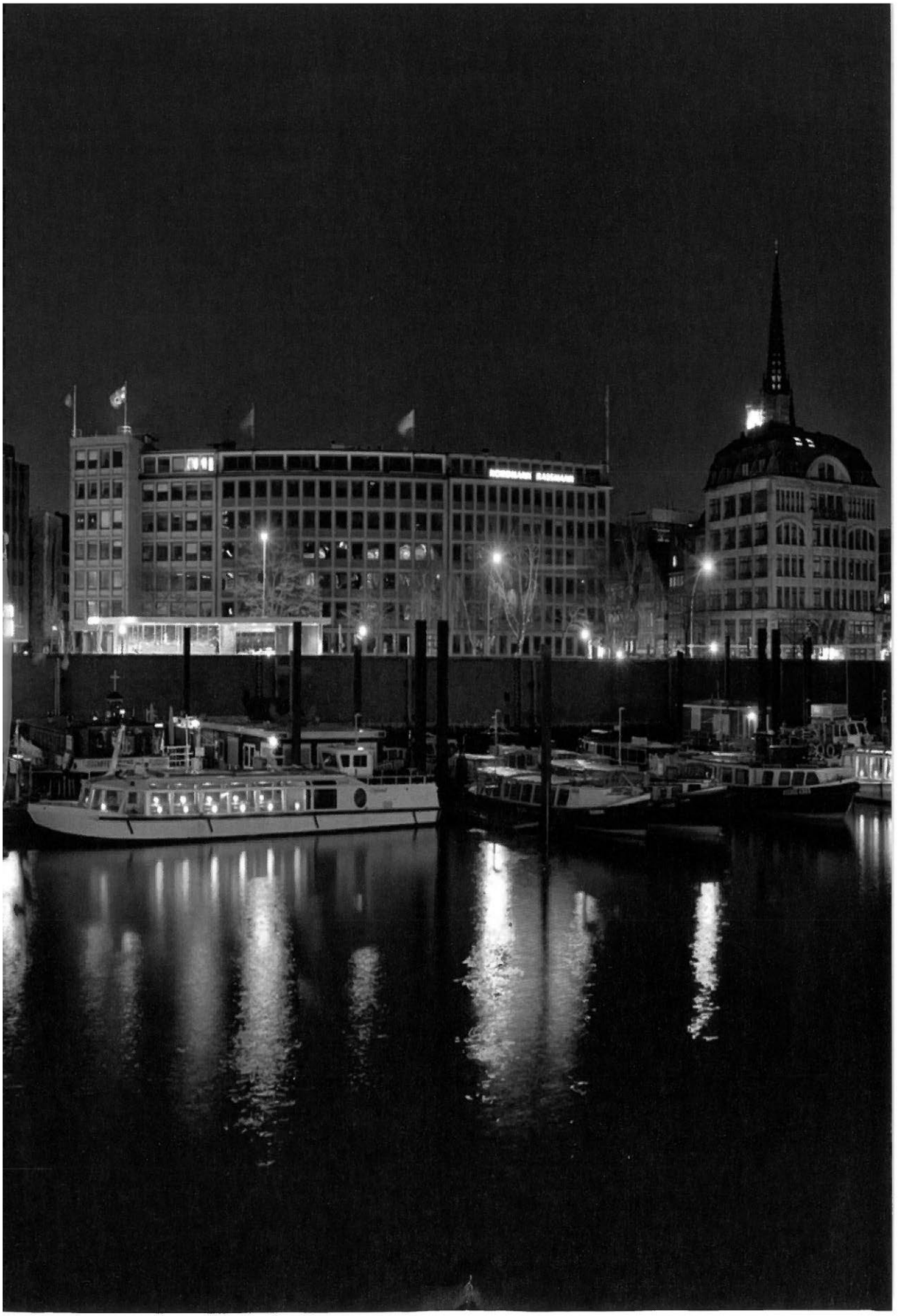

ولقد انتعشت ألمانيا اليوم اقتصادياً انتعاشاً مرتفعاً، وتبوأت مكانتها بين الدول الغربية.. فهي عضو بارز في المجموعة الاقتصادية الأوربية. ولقد لاحظنا قوة المارك الألماني في مختلف أسواق النقد في العالم فهو عملة صعبة.. والدخل لدى

الفرد الألماني مرتفع كما أن حالتهم المادية والاجتماعية جيدة. ولقد لاحظت غلاء الحياة وارتفاع الأسعار بالنسبة للسلع والكماليات وأسعار الفنادق والمطاعم.

وخلال فترة تجوالنا في العديد من المدن مثل «هامبورغ وكولون وميونيخ وراين كوز

ورثمبروغ وفرانكفورت ومانهايم وهايد لبرج هلون ديسبورج» وغير ذلك لاحظت ما تزدان به من طبيعة خلابة ومشاهد مثيرة.. ومعالم تاريخية.

وفي ألمانيا توجد الغابات الكثيفة الموجودة في المرتفعات، وهي من أشجار الصنوبر والزان وغيرها، كما أنها منتشرة في جبال الألب.. وكل ما شاهدناه يوحي بعضه ببعض من المدن والقرى والأرياف.

وفي ألمانيا أكثر من خمسين جامعة أقدمها جامعة هادلبيرج التي أنشئت سنة ١٣٨٦م.

في كثير من المدن كنا نحرص على أن نمشي على الأقدام لمشاهدة ما وصلت إليه هذه البلاد من رقي وعمران وصناعة وحضارة والتعرف على المعالم والآثار والقلاع والحصون.. وهذه المدن تبرز في مستوى واحد من النهضة والعمران وطراز موحد في البناء وأسلوب الحياة.

ولقد حققت ألمانيا نهضة صناعية ونشاطاً اقتصادياً. والشعب الألماني شعب قوي.. يجب العمل والإنتاج والكفاح نساء ورجالاً.

إن حركة التعمير التي أعقبت الحرب كما حدَّثنا أحد الإخوة الألمان أضفت على الكثير من المدن أحياء عصرية الطراز وخطط

إسكان واسعة.. وفي هامبورغ الواقعة على نهر الألب يوجد أهم الموانئ الألمانية، وفيها صناعات هامة لا تقل عن ميونيخ.. كما أن كولون الواقعة على نهر الراين التي دمرتها الحرب وأعيد بناؤها من جديد تعتبر من المدن المهمة.

أما فرانكفورت فهي العاصمة التجارية.. إذ تحتوي على المراكز الرئيسية لجميع بنوك ألمانيا الغربية وبيوتاتها المالية بالإضافة إلى العديد من الشركات والمؤسسات الصناعية.

حرصت خلال زيارتي لمدينة فرانكفورت على زيارة معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية.. ولكن إقامتنا كانت قصيرة.. وصادف المرور بها في نهاية الأسبوع.. وهذا المعهد كما قرأت عنه يعمل على نشر المخطوطات، وعلى توسيع نطاق المعرفة عن إنجازات العلماء العرب والمسلمين ليبين مكانتهم الخاصة في تاريخ العلوم.. كما أن له مجلة علمية هي «مجلة تاريخ العلوم العربية الإسلامية».. وقد صدر المجلد الأول لها في عام ١٤٠٥- ١٩٨٤م وهي تحتوي على ٣٣٥ صفحة من الأبحاث باللغات الأوربية مع تخصيص ٨١ صفحة باللغة العربية.

وبالطبع فألمانيا الغربية اليوم ثاني أكبر دولة منتجة في أوروبا.. كما أنها الدولة الثانية في العالم بعد أمريكا في صناعة السيارات.

والغابات الموجودة بها تمثل مصدراً تجارياً كبيراً. وتزداد مساحة الغابات في المناطق الجنوبية.. كما أن نهر الراين وروافده يشكل ثروة

هائلة.. لذا فكم يستمتع المرء برحلته بالسيارة رغم طول المسافات.. إذ تمر الساعات كلمح البصر.. حيث يتنقل بين الاستراحات والغابات والتلال والأودية والمروج الخضراء التي تزدان بالمياه في أغوارها.. وكذا البساتين والحقول المنسقة البديعة والتي هي متعة لعين الناظر

وبهجة لنفس المتأمل وتسلية للقلب والوجدان.. وكذا القرى والبلدان المنتشرة بمبانيها الجميلة في أعالي الجبال وسفوح التلال، فما أطيب الربى، وأحسن المصطاف!!.

وفي ألمانيا الخطوط الحديدية التي تصل كل بلدة وقرية.. وتجد فيها الحركة الهائلة حيث تموج بالبشر المسافرين والعائدين من

مختلف النواحي، ومنها ما يسير في جوف الأرض، وآخر فوق الأرض.. كما أن شبكة ممتازة للطرق تواجه هذا التقدم في حركة المرور وكثافة السيارات.. وهكذا كل شيء يعمل ويتحرك بسرعة.. الرجال والنساء، والصغار والكبار والكهول.. فالحياة عمل متواصل وجري سريع، فمن لم يعمل ويكدح فلا مكان له.. كما أنهم أمة تحترم النظام وتحرص على المحافظة عليه.

ومع ما في هذه البلاد من جمال ومناظر رائعة ورقي وحضارة.. غير أن هناك سقوطاً أخلاقياً في كل ديار الغرب، واختفت فيها المثل والقيم فلنتَّقِ عدوى هذه الحضارة وما فيها من رذائل وسلبيات وتفسخ أخلاقي.. فقد ضاقوا اليوم بها وصاروا يبحثون عن النجاة لشبابهم وشاباتهم من شرورها.. فأكثر شباب الغرب اليوم كما لاحظت تائه لا يجد ملاذاً غير المجون والمخدرات والتسكع في الشوارع والمحطات.. فلا المدرسة قادرة على توجيهه، ولا البيت قادر على إصلاحه والحنو عليه نتيجة التفكك الأسري.

وبعد، فما أجمل روائع الصحراء وعبيرها في بلادنا! فنحن نعيش في مجتمع لا يزال متماسكاً ومليئاً بالخير ومفعماً بالتعاطف والتعاون.. ولا يزال محافظاً على قيمه ودينه ومثله.. ولنحرص على ألا تصيبنا العدوى التي يضيق بها الإنسان الغربي اليوم، فعلينا بالحرص على قيمنا الروحية وفضائل الأخلاق.

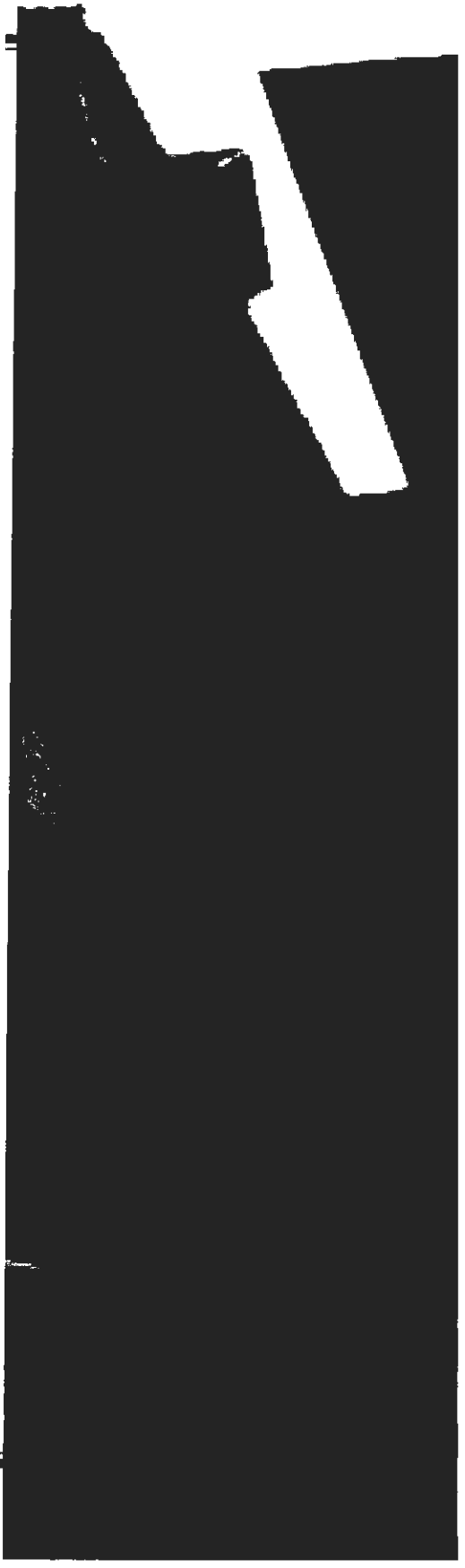

في سويسرا

في صبيحة يوم ١٤٠٦/١١/٢٨هـ، وفي الساعة السابعة صباحاً ودعنا ألمانيا متوجهين صوب سويسرا، وفي الطريق مررنا على «ليشتنشتاتين» وهي كما فهمت من الدليل السياحي إمارة صغيرة تقع على ضفة وادي الراين ومساحتها ١٦٥كم، وقمنا بزيارة لقلعتها التاريخية والتي يعود تاريخها إلى القرون الوسطى، ثم زيارة للمتحف القومي بها وهي مقر العديد من الشركات الدولية.. ثم غادرناها مواصلين السير نحو الحدود السويسرية.

وقد مررنا بالعديد من المزارع والغابات ومشاهدة سهل الراين، ثم لاحت لنا الحدود وتوقفنا بضع دقائق واصلنا السير بعدها في الأراضي السويسرية، وبدأ الهواء البارد يلفح وجوهنا، وكان الجو ممطراً وبديعاً.

وسويسرا تشتهر بمشاهدها الجبلية الرائعة، وهي تتألف من اتحاد مكون من ٢٢ مقاطعة ومساحتها ٤٢٠٠٠كم مربع وعدد سكانها ستة ملايين ونصف المليون.. ولها حدود مع ألمانيا وفرنسا وإيطاليا.. ولذا فإن لهذه البلاد ثلاث لغات رسمية.. الألمانية ويتكلمها قرابة ثلاثة أرباع السكان.. والفرنسية ويتكلمها أهل جنيف والمقاطعات المتركزة حولها.. أما الإيطالية فيتكلمها قسم منهم يقدر على حد تعبير الدليل السياحي ١٠٪ من السكان في الجنوب.

وهناك توجد لغة رابعة هي اللغة الرومانسية وتتكلمها أقلية صغيرة.. فسبحان من علّم اللغات، وعلّم الإنسان ما لم يعلم.. فهذا البلد يتكلم أهله أربع لغات إلى جانب اللغة الإنجليزية، فالكل يتحدث بها في الفنادق والمطاعم والبيع والشراء بالنسبة للسائحين.

إن سويسرا منتجع سياحي جميل ولذا فهي مليئة بالسواح، والفنادق محجوزة طوال فصل الصيف، ولذا حرصنا على أن يكون سفرنا لها بواسطة شركة سياحية تتولى بدورها توفير المواصلات والفنادق والرحلات وما إلى ذلك تجنباً للمتاعب وتوفيراً للوقت والجهد الذي يلقاه المسافر اليوم من صعوبة الحجز في الفنادق وغيرها.

ومنذ دخولنا سويسرا ونحن ننعم بمناظر خلابة وجو جميل على حد قول الشاعر:

والروض مخضل الجوانب مشرق

وشذا الزهور يشيع في الأرجاء

وقول الشاعر:

بـــلاد بـهـا مـا يمـــلأ الـعـين بهجة

ويـسـلـي عـن الأوطـــان كـل غريب

وقول الآخر:

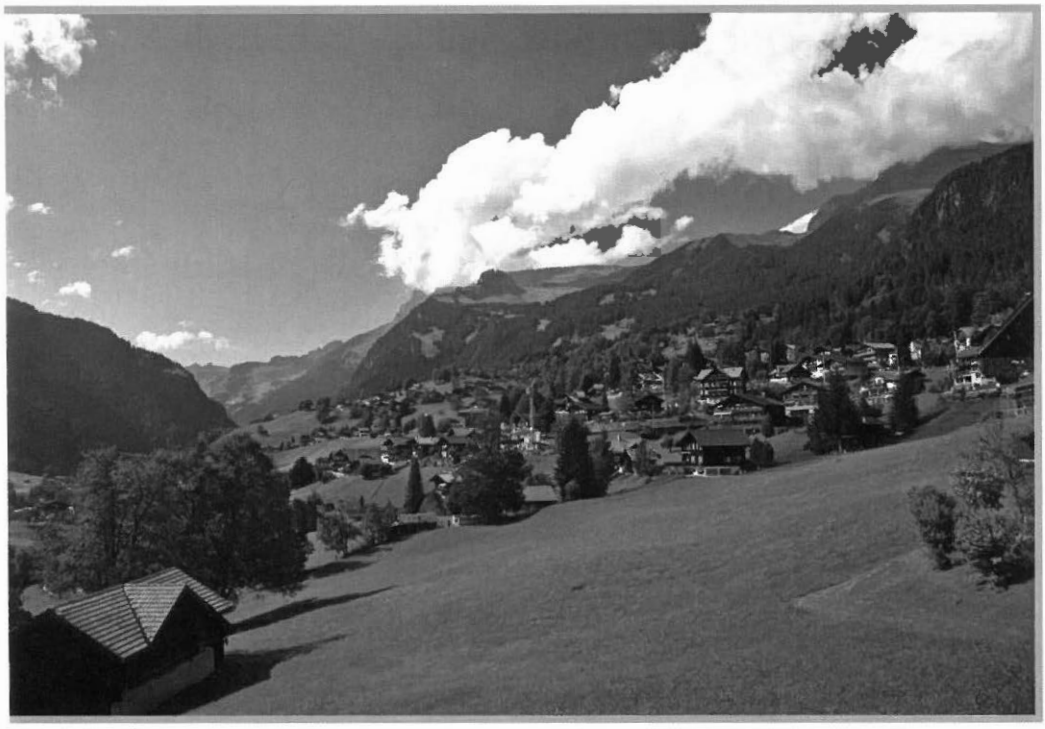

ووشـــى لـلـريـاض ثـوبـاً وحـلَّـى

كـــل جـيـد مـــن الـــربـــا بـعـقـود

لقد أحاطنا المرشد علماً أن سويسرا تتألف من منطقة تلال خصيبة واقعة بين جبال الألب التي تغطي أكثر من نصف مساحة البلاد وبين جبال الجورا في الشمال الغربي.. وهي بلد

قاري محاط بثلاث دول كبرى هي فرنسا من الغرب، وألمانيا من الشمال، وإيطاليا من الجنوب، وليس لها أي منفذ على البحر، وبها الأنهار والمياه الغزيرة، إذ يجري بها نهر الراين ونهر الرون ونهر تيسان ونهر أين، كما أنها جبلية إذ ثلاثة أرباع أراضيها مؤلفة من الجبال. وبعد مسيرة ثلاث ساعات من الحدود وصلنا إلى مدينة «لوسيرن» وتوجهنا صوب فندق «بيلفيدير» في وسط المدينة ويطل على بحيراتها الجميلة..

وبعد استراحة بالفندق وتناول طعام الغداء خرجنا بعد العصر لنتجول في المدينة فوجدناها روعة في الجمال وفي طراز البناء والنظافة، وزرنا المدينة القديمة والمناطق والمعالم الجديرة بالاطلاع والمشاهدة.

وفي اليوم الثاني خرجنا للبحيرات وقمم الجبال المغطاة بالضباب، وهي مناطق سياحية بهيجة فاتنة وأودية خضراء تمثل الجمال الساحر.. وصعدنا بالقطار ثم بالسيارة اللاسلكية فوق الضباب وحينما هبطنا في تلك الجبال لم يستطع بعضنا أن يرى بعضاً من شدة الضباب والسحب الكثيفة وكان الجو بارداً ثم هبطنا بواسطة «تلفريك» من علو مرتفع حيث كنا نشاهد نهر الراين والقرى وكأنها شيء صغير.. ووصلنا إلى الأرض بسلامة الله.

وكانت رحلة ممتعة حيث أمضينا يوماً كاملاً وسط مناظر رائعة، ثم عدنا في المساء بقلب منشرح على ما رأيناه. وقصدنا الفندق واسترحنا، وحضرنا في المساء حفل العشاء الذي نظمته الشركة

السياحية في أحد مطاعم المدينة الفخمة، ولقينا هناك مجموعات شتى من البشر في كل القارات والأجناس وكانت فرصة طيبة مع هؤلاء كما قال الشاعر:

إذا وجد الإنسان للخير فرصة

فلم يغتنمها فهو لاشك عاجز

فكانت فرصة للتعريف ببلادي والحديث عن الإسلام وفضائله ومزاياه، والحكمة في تحريم لحم الخنزير والخمور.. ومن العجيب أنهم حريصون ومتلهفون على أن يتعرفوا على الإسلام بانفتاح وبحب.

إن الحوار مع غير المسلمين من الأمور المهمة حتى يتمكن المسلم من إيصال حقيقة العقيدة إلى غيره وتوضيح حقيقة الإسلام. «ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين». ثم عدنا للفندق الذي كنا نازلين فيه للنوم والاستعداد للسفر.

وفي صباح اليوم الثالث وفي الساعة الثامنة صباحاً غادرنا لوسيرن بعد أن ألقينا عليها نظرة حب وود من بعيد، وتوجهنا بعد ذلك إلى جنيف ولوزان وهما مركزان تجاريان مهمان ومن مراكز الاصطياف والتجارة.. كما أن منظر البحيرة يضفي عليهما جمالاً وروعة.. وفي جنيف أمضينا يوماً وليلة وأقمنا في فندق«هيلتون» وهي مدينة جميلة.. تذكرنا بقول الشاعر:

متع فؤادك بالجلوس هنيهة
بين الحياة وروضة خضراء

وفي الصباح خرجنا لنشاهد بعض معالم مدينة جنيف.. وبعد جولة في شوارعها ومشاهدة بحيرتها وحدائقها نزل المطر رذاذاً فحاولنا تحمله.. ولكن سرعان ما هطل بغزارة فكان لابد من العودة إلى الفندق.

وفي صباح الغد ودعنا تلك المدينة وما تحفل به من مناظر جميلة وركبنا سيارتنا متوجهين نحو شلالات نهر الراين، وكانت تطوي بنا الأرض، والذهن يطوي بي التاريخ والذكريات وكان الجو لطيفاً بارداً إلى حد ما، وكنا نشاهد قمم الجبال وهي مكسوة بالثلج تتلألأ تحت الشمس..

كما أن السفوح عابقة بالزهر والعطر والرياحين.. وجعلت أستعرض في ذهني ما قيل من الشعر في وصف هذه المناظر، ففيها يحلو الشعر وما يصفه من حس وحب وجمال.. فإن تراثنا الشعري حافل بهذا اللون.

وكم تعطرت بالريحان وامتزجت
رياك بالروض أفناناً وأزهاراً
ما أن نشقتك حتى خلت منتعشاً
ماء الحياة جرى في الجسم أنهارا

ولكم يخفق القلب للربيع الجذاب والهواء العليل! وسرَّحت

النظر أجيل الطرف في أحياء تلك الرياض الفيحاء وقد تبرجت وتجلت فتنة للناظرين مما يذكرني يقول الشاعر:

فلست تبصر إلا واكفاً خضلا
أو يانعاً خضراً أو طائراً غردا

ومررنا في الطريق بمدينة زيورخ، وأمضينا في رحابها عدة ساعات.. حيث شاهدنا معالمها وأسواقها وميادينها فهي المركز

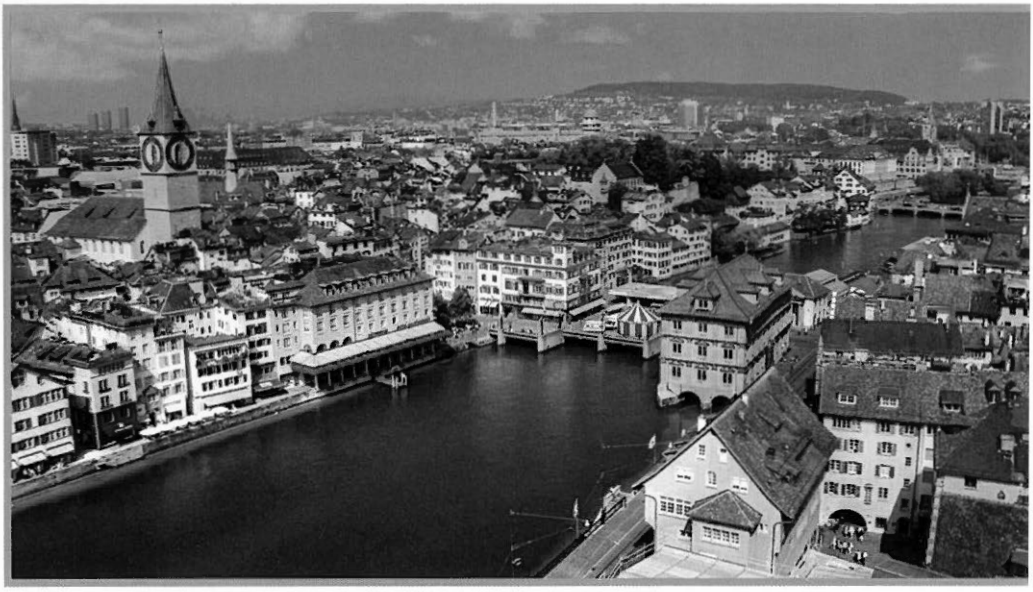

التجاري المهم، وبها البنوك والمصانع.. ولاشك أن الحياد الذي عرفت به سويسرا أتاح لها أن تكون مركزاً تجارياً مهماً ومقراً للمؤتمرات الدولية وتجارة سياحية مهمة فحققت بذلك مستوى عالياً من المعيشة رغم قلة الموارد الطبيعية فيها.. كما أنها متخصصة في صناعات الساعات بمختلف أشكالها والمجوهرات والمنسوجات وغيرها.

ووصلنا شلالات نهر الراين وتوقفنا لمدة ساعتين.. وكانت مليئة بالسواح يموج بهم المكان، وكان منظر الشلالات رائعاً وبديعاً، ومياهها العذبة البراقة صافية ورقيقة توحي بالبهجة في الأفئدة والأنس في النفوس وعلى ضفافه المطاعم والمقاهي وباعة التحف ومؤجري «القوارب» فأخذنا مركباً نتجول به في وسط هذه الشلالات الهادرة الراقصة.. وأخذت أجيل بصري في جنان وبساتين المناطق المجاورة لها ورق النسيم، وراق الجو فتذكرت قول القائل:

يا نسيما هب مسكاً عبقا
هذه أنفاس ريًّا جلقا

وسعدنا بقضاء وقت رغد ممتع.. وهكذا ودعنا تلك البلاد بعد أن نعمنا بجمال مناظرها الطبيعية وعذوبة هوائها البارد، وكحلنا ناظرينا بتلك الأنهار والبحيرات، وتذكرت أبيات وجيه الدولة بن حمدان:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها
فلي بجنوب الغوطتين شجون

فما ذكرتها النفس إلا استخفني
إلى برد ماء النيرين حنين

وقد كان شكي بالفراق يروعني
فكيف يكون اليوم وهو يقين

إن الجمال في سويسرا مشاهد لا ينتهي أولها إلى آخرها، ففيها متعة النفس ومسرح الفكر.

في إيطاليا

غادرنا فرنسا متوجهين إلى إيطاليا في صبيحة يوم حافل بالحركة والنشاط ٢- ١١/١٤٠٦هـ، واتجهنا صوب الحدود الإيطالية وبعد أن توقفنا قليلاً عند بوابة الدخول وقدمنا جوازاتنا للموظف الذي أعادها في الحال عبرنا الحدود ودخلنا إيطاليا واجتزنا طريقاً تكثر فيه المرتفعات والتعاريج والالتواءات الجبلية، لقد اجتهد الإيطاليون كثيراً في شق الطرق وسط الجبال حيث مررنا بأكثر من ١٧٠ نفقاً، ومثلها جسور معلقة تضج بالحركة والنشاط.

ومررنا بعشرات القرى والبلدان التي تزدان بالحدائق النضرة والتي لا تفتر الحركة فيها والمصانع تنفث دخانها.. وألوان من الناس وأشكال شتى من البشر وزحام شديد في محطات الاستراحة من السائحين من مختلف الجنسيات، وتسمع مختلف اللغات، وتشاهد شتى الملامح..

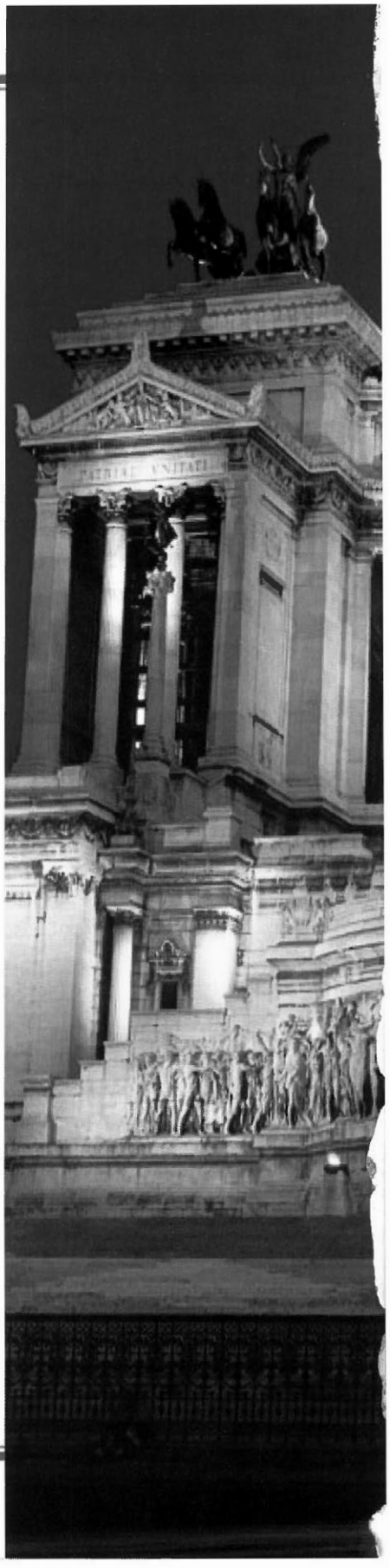

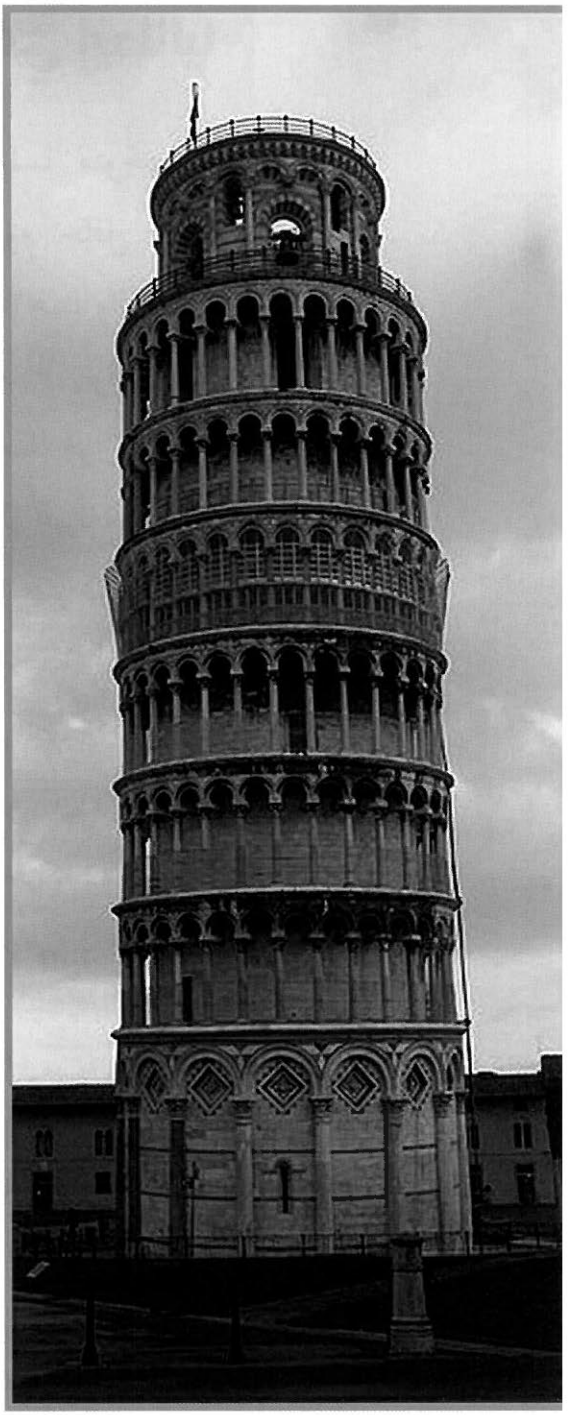

وكانت السماء صافية، والشمس طالعة، وواصلنا السير في أرض مستوية تتخللها بعض التلال والأودية.

وتنقسم إيطاليا إلى مجموعتين، فإيطاليا القارية عبارة عن سهل فسيح يحيط به جبال الألب، أما إيطاليا الممتدة على سواحل البحر الأبيض المتوسط فهي تتكون من شبه جزيرة طويلة تشكل سلسلة جبال، وكنا نشاهد جبال الألب الإيطالية والمياه الغزيرة التي تصل منها.. كما أن شبه الجزيرة الإيطالية كانت عرضة للزلازل.

وتجمع هذه البلاد بين مناخات متعددة وفصول متباينة في الشمال والجنوب.. وسكانها أكثر من ستين مليوناً، ومساحتها ٣٠٠ر٠٠٠كم مربع زرنا خلال جولتنا في هذه المناطق كلاً من

(جنوا) ثم (نابولي) وهي مدينة جميلة وميناء مهم لأنها على مقربة من روما، وبها المصانع والمعامل والشركات، وبها البيوت المختلفة الأحجام والأشكال.. وكان الجو يغري بالنزهة، فتجولنا في متاجرها ومعروضاتها وشوارعها الفسيحة، ثم توجهنا إلى مدينة (بيزا) الثغر الجميل، حيث التاريخ والمناظر القديمة، وجمال منظر النهر الذي يخترقها، والحركة السياحية النشيطة الدائبة في المدينة القديمة بمطاعمها المتناثرة على الأرصفة.

كما قمنا بزيارة إلى برج بيزا الشهير، وقد عُدّ من عجائب الدنيا السبع.. وقد كان العالم (جاليلو) يلعب بالحصى أعلى البرج حتى اكتشف قانون الجاذبية.

وواصلنا السير حتى وصلنا إلى مدينة (فلورنسا) وهي مدينة مفعمة بتاريخها المعماري والفني، وفي فندق «الإسكندر» وهو فندق سياحي جميل كان مقامنا، وكان المطر ينزل خفيفاً حينئذٍ والسماء متلبدة بالغيوم وكان مثل هذا الجو لا يسمح لنا بالتجول براحة فبقينا في الفندق وأمضينا تلك الليلة.

وفي الصباح رحنا نتجول في بعض أحياء المدينة، ونشاهد المعالم والصناعات اليدوية المحلية والأسواق القديمة..

وكانت المدينة تعج بالسياح والزوار، وبعد تمضية يوم في ربوعها توجهنا نحو الريف الإيطالي ومررنا بعشرات القرى وسط السهول الفساح المترامیات والحقول والمروج، ثم يأخذ الطريق نحو الجبال

والمرتفعات حيث الأنفاق والجسور المعلقة بحيث يطل المرء على المدن من علٍ وبشكل مذهل وجميل، وكنا نشاهد القلاع والجبال وبجانبها مصانع الرخام.

وفي مدينة «جيتو» توقفنا بها لتناول طعام الغداء، ثم قمنا بجولة في ربوعها وأطرافها، وكم يستمتع المرء بالرحلات البرية حيث يتمكن من مشاهدة الطبية الساحرة الخلابة!. وفي إحدى الاستراحات السياحية التقينا بأحد الإيطاليين فحدثنا عن مدينة بيزا وقال: إنه من أبنائها، فأخبرناه أننا كنا بالأمس في زيارتها..

فقال: وهل أكلتم «البتزا» الإيطالية التي اشتهرت بها تلك المدينة ومنها شاعت في العالم؟. ثم سألته عن برج بيزا، وأن هناك مرشداً سياحياً أخبرنا بأن البرج على وشك السقوط، ولقد زرت البرج من داخله فلم أجد فيه ميلاناً كما يشاع، وقد صعدنا إلى شرفة البرج العالية حيث شاهدنا الحدائق الغناء ومنظر المدينة وميناءها الشهير، وقد كان له دور في الحروب الصليبية، وله دور نشط في التجارة بين الشرق والغرب، وقد بني البرج عام ١٩٧٥م.

وقال الإيطالي: إن حكاية السقوط قد أصبحت شائعة منذ أوائل هذا القرن عندما لاحظ العلماء أن الميلان يزداد في كل عام، ولميلان هذا البرج يعود فضل اكتشاف قانون الجاذبية وسرعة سقوط الأجسام، وأن الاهتمام من العلماء بالبرج قد بدأ منذ أكثر من سبعين عاماً حيث شكلت لجنة من الأخصائيين لمعرفة أنظمة

وقوانين هذا البرج، وفحص مواده وعمارته، وهناك من اقترح تفكيك البرج وإعادة بنائه من جديد بعد ترسيخ قاعدته وهناك من يطمئن الناس بسلامة البرج.

والواقع أن مثار الدهشة هو ميلان البرج، وهو مثار الجدل بين العلماء والسياح.. وأفاد بأن أول من عالج الميلان عام ١٢٧٣م مهندس إيطالي يدعى «جوفاني سيموني».

وتوجهنا بعد ذلك إلى مدينة «جيتو» وزرنا معالمها، وهي مدينة صغيرة بها شارع كبير تموج فيه الحركة والنشاط، ثم واصلنا السير إلى مدينة «سورينتو» حيث وصلناها الساعة السابعة والنصف مساء، وهي مدينة جميلة تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.. وتكتظ بالسياح وتزدان بالحدائق والمتاجر والشاطئ الجميل.. حيث شاهدنا صيادي الأسماك.

وقمنا برحلة إلى جزيرة (كابري) وتقع قرب المدخل الجنوبي لخليج نابلي في جنوب إيطاليا في مواجهة شبه جزيرة «سورينتو»، والجزيرة عبارة عن كتلة منعزلة من الحجر الجيري بطول ٦ر٢٥ كيلومتر وبأقصى عرض ٢ر٨٠ كيلومتر، ومساحتها عشرة كيلومترات مربعة، ويرتفع جبل سولارو إلى ١٩٣٢ قدماً، وتستخدم تعاريج الشاطئ كمراس للسفن، والمرسى الكبير يقع على الشاطئ الشمالي، ويحميه حاجز للأمواج، ويقع المرسى المفتوح (مارينا بيكولا) في الجنوب، وهو يستخدم في حالة هبوب الرياح الشمالية بقوة.

والجزيرة مسكونة منذ ما قبل التاريخ، ثم أصبحت مستعمرة يونانية، ثم منتجعاً للأباطرة في بداية عهد الإمبراطورية الرومانية، فقد أقام الإمبراطور أغسطس هناك، كما بنى الإمبراطور تيبيريوس عدة فيلات إحداها فيلا لوفيس على القمة الشمالية الغربية المطلة على نابولي، وقد تم الكشف عنها خلال الحفريات الأثرية.

وحين خاف سكان الجزيرة من هجمات القراصنة في القرن العاشر انتقلوا من مساكنهم على ساحل البحر إلى المدينة الحالية وهي (كابري) في الشرق و(آناكابري) في الغرب أعلى الشاطئ، ولا يمكن الوصول إلى المدينة الثانية إلا عبر طريق البحر إلى أن تم بناء طريق للعربات في القرن التاسع عشر بين المدينتين. وكان قبل بناء الطريق يلزم صعود سلم من ٨٠٠ درجة يطلق عليه السلالم الفينيقية.

وخلال العصر الوسيط كانت كابري تابعة لكنيسة فونت كاسينو وإلى جمهورية (أمالفي) قبل أن تنضم إلى مملكة نابلي، وقد تبودلت بين الفرنسيين والإنجليز عدة مرات خلال الحروب النابليونية قبل أن تعاد إلى مملكة المصنفليتين عام ١٨١٣م، وقد وجدت أدوات حجرية في أحد الكهوف في الشواطئ الصخرية التي تحيط بالجزيرة وأشهرها هو الكهف الأزرق الذي أعيد استكشافه عام ١٨٢٦م، ولم يمكن الوصول إليه إلا بالقارب، ويعطي ضوء الشمس الذي ينعكس من صفحة الماء إلى مدخل الكهف منظراً غريباً من الضوء الأزرق، ومن هنا اشتق الاسم..

وتوجد آثار قلاع من العصور الوسطى مثل قلعة باربا روس وقلعة كاستيليون، وأقدم الكنائس كنيسة القديس كوستانزو الرئيس الروحي للجزيرة، وقد أقيم في مكان فيلا تيبيرويس فيلا أخرى تسمى فيلا سانت ميشيل بناها الكاتب السويدي «اكسيل مونث».

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبحت كابري إحدى أشهر المنتجعات في جنوب إيطاليا نظراً لمناظرها الرائعة وطقسها المعتدل والخضرة النضرة، وبها أنواع عديدة من الطيور المهاجرة تحط هناك لعدة أيام.

وقد يكون اسم المدينة أصلاً. إما كابرا وهي العنزة، أو كابروس

وهو الدب الوحي.. وترتبط كابري بنابولي وسورينتو بخدمات القوارب البخارية، وإلى جانب السياحة هناك النشاط الزراعي وصيد الأسماك.

وبعد زيارة جزيرة سورنيتو- كابري زرنا ميدان القرية الملونة، ثم عدنا بالمركب إلى سورنيتو حيث أقمنا في فندق «كاساراوجت» بعد رحلة يوم على ارتفاع مئات الأقدام في الجبال ووسط المغارات في البحر.. وقد كان البحر هائجاً مخيفاً، وتزدحم هذه الجزر بآلاف السياح.

والواقع أن إيطاليا محور جذب قوي للسياحة بحكم آثارها ومناخها وشواطئها وجزرها ومرتفعاتها الجبلية ومدنها الريفية ذات الطبيعة الرومانية وطبيعتها ومناظرها الجميلة والأنهار والبحيرات والأطلال والمناظر التي تعود إلى حضارة تلك البلاد وما مر بها من تطور ثقافي وفني، ولتاريخها البعيد انتشرت ثقافتها عبر معظم بلاد أوروبا والبحر المتوسط.. وما كان للرومان والأغريق من آثار وحضارة وتجارة وفنون ومخترعات..

وبعد تمضية وقت غير قليل غادرنا مدينة «سورنيتو» إلى ميدان القرية الأثرية، ثم زيارة المناظر والمشاهد التاريخية في «بومبي» عاصمة الرومان.. وقد دفنت هذه المدينة نتيجة ثورة أحد البراكين، وبدأ حفرها في القرن الثامن عشر، وهي تضم أشياء كثيرة عن آثار الرومان وتاريخهم.

ومررنا ببلدان كثيرة وقرى وحدائق وبساتين وبحيرات وجبال وأنهار وأودية وغابات قبل أن نصل إلى العاصمة روما التي برزت بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية كعاصمة للمسيحية، وقد كانت «تورينو» خلال حقبة طويلة عاصمة لإيطاليا، وهي اليوم أحد المراكز المهمة لصناعة السيارات.

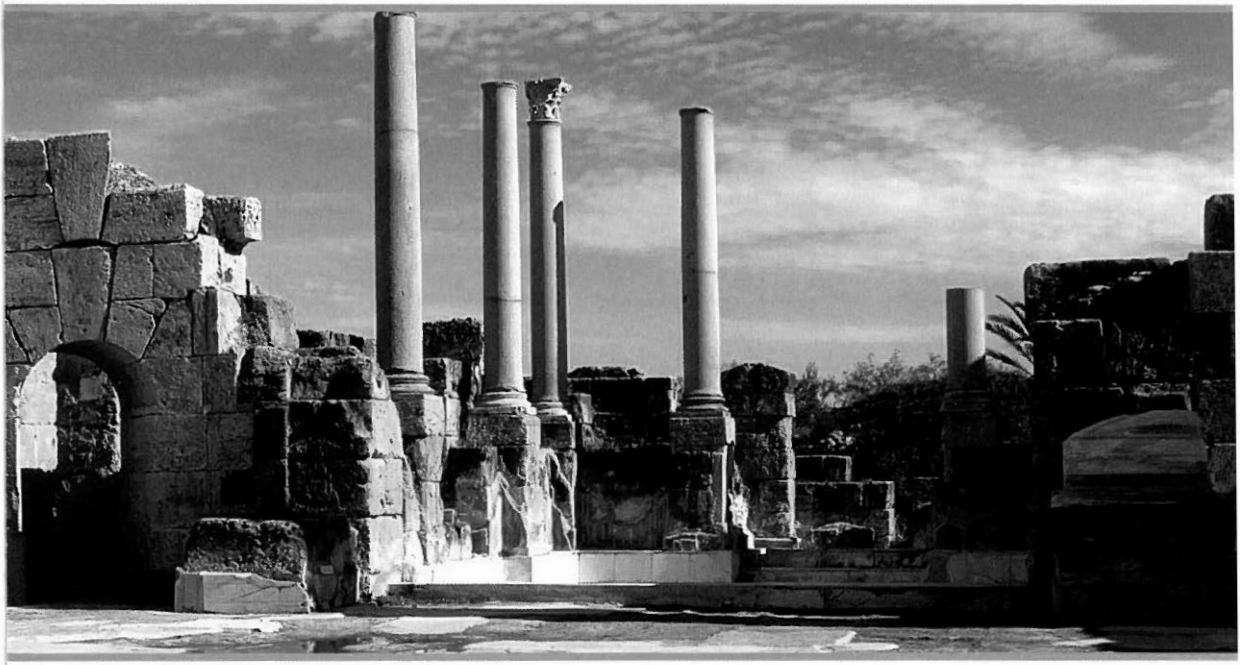

ووصلنا العاصمة بعد الظهر وتوجهنا صوب فندق «فيلا بامفيلي» واستقر المقام بنا فيه حيث الهدوء والمرافق السياحية.

وخلال الطريق إلى روما كان الطريق ممتعاً وجميلاً ومليئاً بالحركة وتذكرت قول الشاعر:

كست الطبيعة وجه أرضك سندسا

وحبت نسيمك إذ تضوع طيبا

ومررنا بالجسور والمزارع والبحيرات والبساتين التي تمتلئ بالزهور ومنها بكثرة ما نسميه «دوار الشمس»، وقد تبين أنهم يستخرجون منه الزيوت النباتية وغيرها من المأكولات، وقد شاهدنا ذلك في مناطق أخرى من أوروبا، وكنت أستغرب من كثرته وتعدد زراعته على هذا النحو، وقد سألت أحد الإيطاليين فعدد لي مزاياه وفوائده الاقتصادية.

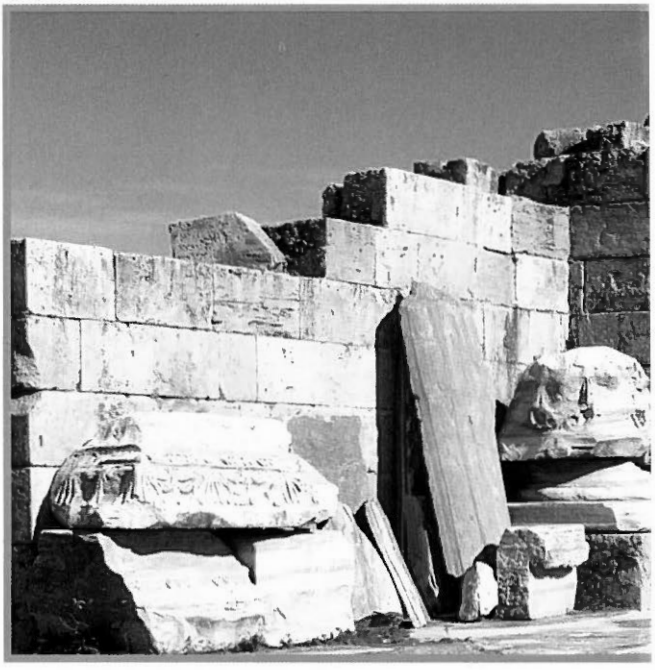

ولم تكن روما بالنسبة لي مدينة جديدة فقد سبق أن زرتها قبل هذه الزيارة في عام ١٣٩٣هـ، وكذا عام ١٣٩٥هـ، ولكن هذه المرة جئتها من البر بعكس الزيارات السابقة التي كانت من الجو، وما أعظم الفارق من حيث الفائدة والاطلاع، والتعرف على طبيعة البلاد وحياتها وعمرانها، وأوجه الحياة في قراها ومدنها وأحوالها وطبائع شعبها وعاداتهم وتقاليدهم!.

ولاشك أن السفر بواسطة السيارة فيه عناء وطول وقت، وتصحبه متاعب، لكنه متعة وفائدة حيث يتمكن المرء من التجوال والاطلاع الواسع على المعارف والآثار والعادات والتقاليد والمقومات الحضارية وشتى ألوان المعرفة المختلفة.

وفي روما يشاهد المرء الآثار والمعالم والمتاحف والمعاهد والأماكن الأثرية القديمة والقصور التاريخية، وأينما اتجه السائح سيجد ما يستحق النظر ويملأ العين بما يغري بالمشاهدة.. فالمرء أمام تاريخ ممتد طويل عبر آلاف السنين إلى جانب الحدائق العامة والميادين وأماكن الفنون.. وهم في الواقع يهتمون كثيراً بالآثار والفنون لدرجة أن المباني التي مضى عليها أكثر من مائة عام تصبح أثراً يجري ترميمه ويعوض أصحابها.

وقد حكى لنا ذلك أحد المرشدين السياحيين التابع لإدارة الآثار، وروى أموراً كثيرة في هذا المجال وقلت له: إن آثاركم تدل عليكم، فحرصكم على صيانة الآثار جعلها مدينة بل عاصمة الآثار والفنون حتى الصخور حافظتم عليها من خلال النحت وحفر الأعمدة وكتابة النقوش عليها، ولكن ينبغي أن تدركوا أن العرب سبقوكم في هذا الميدان الذي تفتخرون بأنكم رواده فقد نحت العرب الجبال وجعلوها سكناً وهو نحت ذكره المؤرخون من بلادكم بأنه لا يوجد له مثيل، فالتفت الجميع من شتى الوجوه السياحية وصفقوا لهذه المقارنة العلمية التي لم يستطع

الإيطالي أن ينكرها، والتفت إليّ أحد الإخوة التونسيين فقال: هكذا يكون الإعلام والدعاية لأمتنا وتاريخها!.

فقلت: لقد صبرت على مكابرة ومغالطة المرشدين السياحيين هنا، وفي أسبانيا بحيث ينسبون كل تقدم لهم وحدهم ويسلبون أسلافنا كل علم ومعرفة.

إن الزائر لروما سيشاهد شتى المناظر الطبيعية الجميلة والبحيرات المتعددة في ضواحيها حيث تحلو الجلسة على ضفافها، ويتناول المرء من المطاعم المجاورة لها الأسماك المشوية اللذيذة من أسماك تلك البحيرات.

وقمنا برحلة إلى «براتشانو» التي تقع في شمال العاصمة وتبعد عنها حوالي ٣١ كيلاً وبحيرة «لوكو» وغيرها.. كما قمنا بزيارة إلى حديقة الملاهي، ويحتاج خروجها ودخولها إلى نوع من اليقظة والانتباه حيث توجد بها شتى الألعاب الرياضية، وغرفة الزجاج المتعددة الأبواب، وكثيراً ما ضل الناس في كيفية الخروج من تلك الأبواب، فقد ارتطم الكثيرون بزجاجها وبها حديقة جميلة رائعة ذكرتنا بقول الشاعر:

نزلنا بها واستوقفتنا محاسن
يحن إليها كل قلب ويهواها

ومنها عدنا إلى الفندق بعد تمضية يوم حافل مفعم بالمناظر والمشاهد والذكريات.

وفي الصباح ذهبنا نتجول في شوارع روما وميادينها، وسألنا أحد الإخوة المصريين من هواة الرسم والفن حيث أمضى في هذه المدينة سبع سنوات يمارس هذه المهنة عن تمثال الشاعر أحمد شوقي فأرشدنا إليه، وهو قد كتب عليه اسمه، كما رأينا بعض المسلات المصرية الموجودة

في بعض الميادين.. ثم تجولنا في روما القديمة وقصورها ومتاحفها، ولقد ترك الأقدمون آثارهم، وتعيد إليك خوالي الأيام وأحداث الزمان.. إنها أطلال من الروائع يجليها رخامها وأعمدتها ومرمرها وتنوع المناظر والمظاهر.

إنها مناظر تذهل العقول، ولا غرو فقد كانت هذه المدينة مركزاً مهماً للثقافة والمعرفة، ولقد قرأت في بعض الكتب التاريخية أن الإيطاليين

كانوا يفدون إلى غرناطة وقرطبة إبان مجدهما وتقدم العلوم والفنون بهما وبكثير من المدن الأندلسية، وتلقوا العلوم عن أعلامها، ونقلوا كثيراً عن حضارة الأندلس التي انبعثت من جنباتها أضواء العلم تنير العالم كله، وارتفعت في نواحيها مناثر العرفان تهدي سبل الحياة للسالكين.

وذهبنا في اليوم الرابع إلى رحلة خارج روما لزيارة ومشاهدة قصر «ديستي» الذي يعود تاريخه إلى ٤٠٠ سنة، وما زالت حدائقه

ونوافيره وشلالاته في غاية الإبداع والجمال.. والمنطقة التي يقع فيها القصر من المناطق الشهيرة حيث المناظر الساحرة، وهي تبعد عن روما حوالي خمسين كيلاً، وكان يمتلك هذا القصر أحد الأثرياء الإيطاليين، وبهذا القصر المناظر والحدائق والخمائل والأجنحة والبرك المائية والشلالات التي هي آية في الجمال..

والحدائق درجات بعضها فوق بعض، والواقع أن هذا القصر يزدان بأبهائه الفخمة، وأفنيته الكثيرة، ومن روائع الفن والإبداع، كما أن الزهور والأشجار مهندسة مرتبة مختلفة الألوان، بحيث تجمع لك كل المناظر الطبيعية..

وتركنا هذا القصر التاريخي حيث تجولنا في أسواق هذه البلدة، وكانت جولة قصيرة، ثم مضينا إلى أحد المطاعم المجاورة للقصر والمطل على بعض المناظر الجميلة وتناولنا طعام العشاء مع مجموعة كبيرة من السياح من كندا وأستراليا وأمريكا وغيرهم، وقد اشتهر هذا المطعم بتقديم الوجبات الإيطالية التقليدية، فالمكرونة بأنواعها، وكذا تقديم بعض الفنون الشعبية القديمة.

ورجعنا إلى العاصمة روما من طريق آخر، وكانت الساعة الثانية عشرة ليلاً، وكما يقال كل الطرق تؤدي إلى روما! ووصلنا الفندق وكنا في حاجة إلى الراحة والنوم..

وفي الصباح غدونا مبكرين إلى زيارة المركز الثقافي الإسلامي، ثم إلى مقر الفاتيكان وزيارة المكتبة والمتحف..

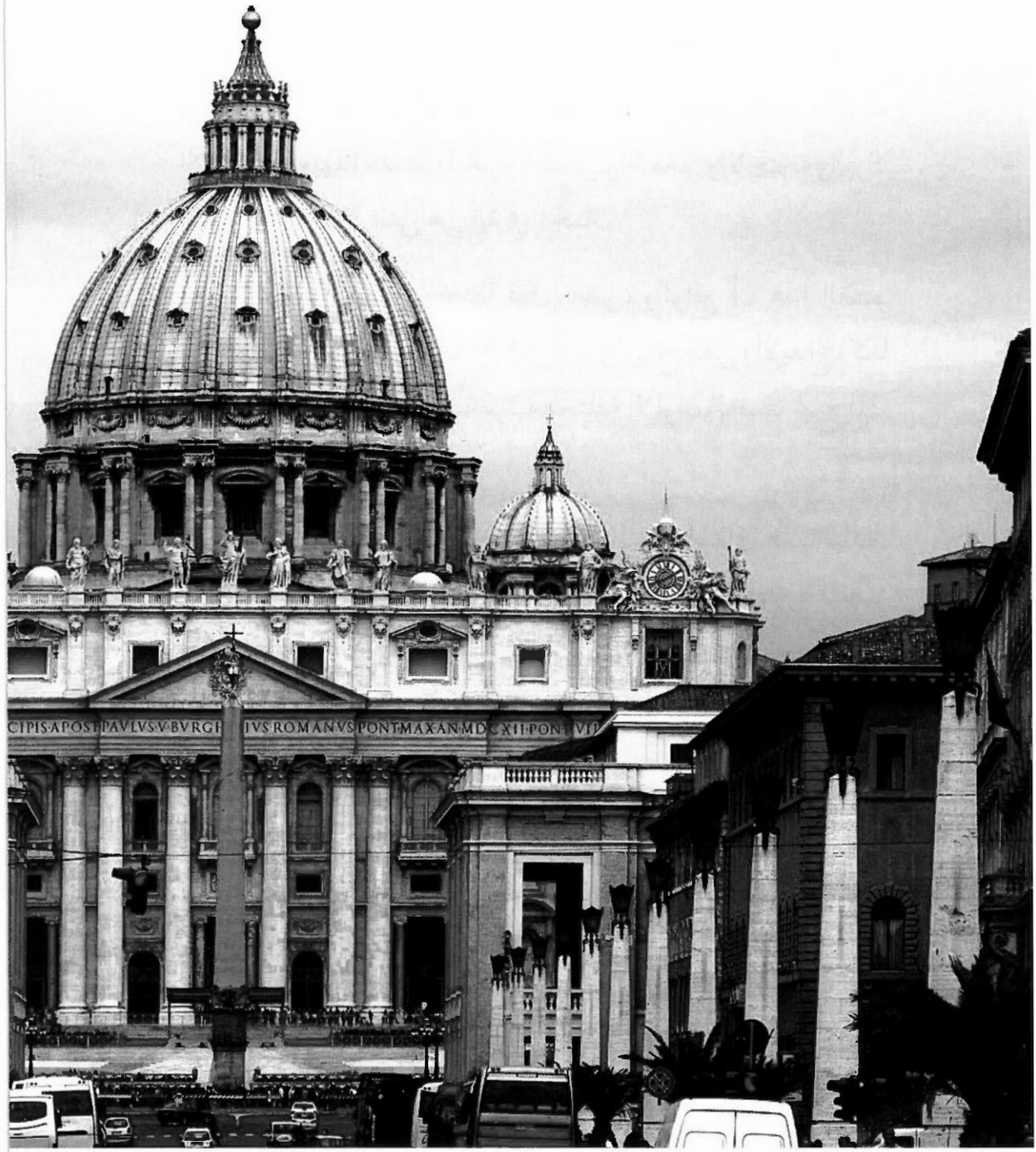

الفاتيكان بين الماضي والحاضر:

والفاتيكان هو عبارة عن دولة صغيرة كأي مدينة صغيرة مشابهة في أوروبا مثل أندورا وموناكو وليختنشتين.. تقع ضمن قلب مدينة روما العاصمة الإيطالية، ورغم ضآلة حجم هذه الدويلة فإنها تملك نفوذاً أعظم من نفوذ إيطاليا ذاتها ذلك لأنها مركز رئاسة أكبر فرع للديانة المسيحية وهي الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.. وهذه الدويلة مستقلة عن إيطاليا، ويحكمها لجنة من الأحبار الرومان يعينها البابا.

أما كيف تكونت تلك الدويلة فذلك له تاريخ طويل منذ كان البابوات يمارسون لقرون طويلة سلطتهم الزمنية على وسط إيطاليا فيما يسمى بالولايات البابوية، والتي كانت تضم مساحة ١٦٠٠٠ كيلومتر مربع، وما

يزيد على ثلاثة ملايين من السكان، ثم دخلت هذه الأراضي في مملكة إيطاليا الجديدة في القرن التاسع عشر، وصدر قانون عام ١٨٧١م بتحديد سيادة البابا بحيث تقتصر على قصور الفاتيكان واللاتيران في روما وضمن هذا القانون ميزانية سنوية للبابا.

وتقع مدينة الفاتيكان بجوار الجانب الغربي لنهر التيبر في روما، وتشكل أسوارها التي بنيت في عصر النهضة في العصور الوسطى حدود تلك الدولة عدا الحدود الجنوبية الشرقية ناحية ميدان القديس بطرس، فهذه الناحية مفتوحة للجميع ومساحتها ٥كم تقريباً، ولها ستة مداخل أهمها ميدان القديس بطرس، وقوس الأجراس، والمدخل المؤدي إلى المتاحف. وأهم المباني فيها هي كنيسة القديس بطرس وكنيسة جون لا تيران وكنيسة ماري ماجور والقصر البابوي وفيلا الباب الصيفية وقلعة جاندوفلو، وبعض تلك المباني يمتد إلى خارج الحدود.. هذا إلى جانب محطة السكة الحديد ومحطة الإذاعة المقامة داخل الأراضي الإيطالية.

يسكن مدينة الفاتيكان حوالي ١٠٠٠ نسمة معظمهم من الموظفين الدائمين في الحكومة ويمثل القساوسة والرهبان أكبر نسبة منهم، وإذا حضر الأحبار ورؤساء الكنائس إلى الفاتيكان في ظروف انتخاب البابا فإنهم يمنحون جنسية الفاتيكان وعندما يخرجون تنزع عنهم تلك الجنسية ليعودوا إلى جنسيتهم الأصلية..

وللمدينة نظام للتليفزيون والإذاعة والبريد وكذلك عملتها الخاصة ونظامها البنكي.. أما الجيش فقوامه مائة جندي من الحرس السويسري المميز بزي خاص فاخر، وتصدر فيها صحيفة يومية

اسمها (الأبوزيرفاتور رومانو)، وتوجد فيها مطبعة تصدر الكتب بكل اللغات حتى لغة التاميل الهندية.. وقمنا بزيارة إلى المكتبة بعد دفع رسم الدخول.

تضم هذه المدينة واحدة من أكبر المكتبات في العالم هي مكتبة الفاتيكان وتقع في الطابق العلوي من القصر البابوي، وتشتمل على جناحين في صالة مستطيلة.. ووضعت الكتب داخل ٥٠ دولاباً مغلقاً كل دولاب يبلغ ارتفاعه ١ر٧٥ متراً ومثبت في الحوائط وفي الأعمدة الوسطى.. وزخرفت الدواليب برسومات تشير إلى محتوياتها، ولكنها منسجمة مع التصميم الفني العام للأعمدة والحوائط والأسقف المقوسة المزخرفة بالفريسكو، واللوحات المعبرة عن روما في القرن السادس عشر، والتطور الباهر لفن الكتاب عبر العصور، وتوجد مثل تلك الزخارف في الغرف الأخرى مثل غرفة الفهارس وقاعة مطالعة المواد المطبوعة، ويزيد من جمال القاعة مجموعة الفازات والهدايا الملوكية التي قدمها الأمراء والملوك والقادة السياسيون للمكتبة.

تشتمل المكتبة على حوالي ٦٣٠٠٠ مخطوط، و ٩٢٠٠٠٠ كتاب مطبوع، وينقسم قسم المخطوطات إلى ١٦ قسماً مغلقاً تضم المجموعات التي جاءت إلى المكتبة كاملة وجرى تقسيمها حسب لغتها مثل المجموعة التي جلبت من هيدلبرج عام ١٦٢٣م ومجموعة الكاردينال أنجلوا ماي التي أضافها بيوس التاسع عام ١٨٥٦م وتقدر بأربعين ألف مخطوطة.

ويتولى إدارة المكتبة مدير، وهو في نفس الوقت مدير المتحف الوثني والمتحف المسيحي ومسؤول عن مجموعة المسكوكات.

أما الوثائق فهي تحت إشراف كردينال، ومجموعاتها الرئيسية هي المجموعة السرية، ثم وثائق الدولة..

ويقصد هذه المكتبة يومياً آلاف الباحثين في العلوم الكنسية واللاهوت وخاصة أتباع المذهب الروماني الكاثوليكي، ولهذه المكتبة شهرة في الشرق والغرب.. وهكذا فالفاتيكان مكان واسع وكثير الأقسام.

وبعد أن أمضينا برهة من الزمن في هذا المكان ومشاهدة ما يحيط به من المباني عدنا إلى الفندق الذي نسكنه وهو على درجة من الأناقة والجمال فإذا دخله المرء مجهداً مكدوداً نسي التعب حيث إنه يقع في مكان هادئ خارج روما.. وكان الجوع قد أخذ منا كل مأخذ بعد جولة طويلة في متحف ومكتبة الفاتيكان.

فدخلنا مطعم الفندق وجاء النادل لنا بقائمة الطعام الإيطالي فاخترنا منها ما رأيناه مناسباً.

وفي المساء قمنا بزيارة لمكتبة المجمع العلمي الإيطالي حيث تشتمل على مجموعة من المخطوطات العربية المصورة كما أن بها قاعات للمطالعة ثم ذهبنا لإحدى المكتبات التي تباع بها الصحف العربية في قلب روما فأخذنا مجموعة من الصحف، وتوجهنا بعد ذلك إلى الفندق للراحة والنوم استعداداً للسفر غداً إلى مدينة البندقية.. فينيسيا عبر جبال الأنباين، ومررنا بعشرات الأنفاق الجبلية والجسور المعلقة الشامخة، وتوقفنا عدة مرات في الطريق حتى وصلنا إلى مدينة البندقية الخامسة والنصف عصراً.

وقد كان الطريق حوالي ٥٠٠ كيل، ورغم طوله فقد كان جميلاً وممتعاً حيث رأينا الحدائق ومزارع العنب بل جنات ألفافاً، وأقمنا في فندق (بلازا)..

البندقية- فينسيا:

مدينة فريدة بديعة.. وميناء رئيسي في شمال إيطاليا.. وعاصمة منطقة فينيتو والمركز السابق للجمهورية البحرية التي عرفت قوتها السياسية والبحرية في كل أرجاء إقليم البحر الأبيض لأكثر من ألف عام..

ورغم أن هناك مدناً أنشئت فوق جزر، وتغشاها القنوات وغنية بالفن والعمارة وذات قوة علمية إلا أنه لا يوجد سوى فينيسيا واحدة فقط، فربما لا توجد مدينة أخرى في العالم ظلت لزمن طويل مثلها، لأن قوارب الجندول وبحارتها في قنواتها ومبانيها وآثارها تجعل منها متحفاً حياً للماضي،

ونظراً للمحيط الشامل الذي قد يميزها ليس فقط عن جميع المدن الأخرى في العالم بل عن العالم المعاصر ذاته.

والبندقية تقع في مركز بحيرة هلالية الشكل تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي بطول ٣٢ ميلاً (٥١ كيلومتراً)، وهذا الكيان المائي مختلف في العرض بين ٥ ر٩ أميال، ويفصله عن بحر الإدرياتيك حاجز ضيق من الجزر وشبه الجزر. وتم بناء مركز المدينة التاريخي فوق أرخبيل من الجزر والشواطئ الطينية بطول ميلين تقريباً وعرض ميل واحد.

أما حدود المدينة الحديثة التي تحتضن محيط البحيرة البالغ ٩٠ ميلاً فتشتمل على الجزر العشر الرئيسية بخلاف جزر المدينة الأم والضاحيتين الصناعيتين: مستر ومازغيرا في الأرض الرئيسية، وكلها اندمجت في المدينة عام ١٩٢٧م.

وسكان فينيسا حوالي ٣٥٠ر٠٠٠ نسمة.. وقد فقدت البندقية جزءاً منها عام ١٨٤٦م عندما أقيم جسر علوي بطول حوالي ميلين فوق ٢٢٢ قوساً لمد الخط الحديدي من الأرض الرئيسية.

وفي عام ١٩٣٢م أقيم جسر مواز للسيارات، وقد قاوم السكان هذين الرباطين، ونجحوا في إجبار العربات على الانتظار في طرف الجزيرة، وما زالت المعارك مستمرة بين أنصار القديم والمحدثين، ولكن أكثر المشاكل إلحاحاً اليوم إنما هي إقليمية.. فبالإضافة إلى الدمار الناتج عن حركات المد والجزر المتكررة بكثرة والفيضانات فقد اكتشف أن الجزر تغوص في البحيرة بسرعة أكبر عما كان في

القرون الماضية.. ومثل سائر المدن التي تتعرض آثارها وأعمالها الفنية للاندثار.

ويقال: إن اكتشاف الأمريكتين أثر على فينيسيا في الركود الاقتصادي خلال القرن السادس عشر الميلادي، ورغم أنها كانت فترة النهضة الأوربية فقد كانت تنشط الحياة الفنية والفكرية فيها إلى آفاق جديدة.

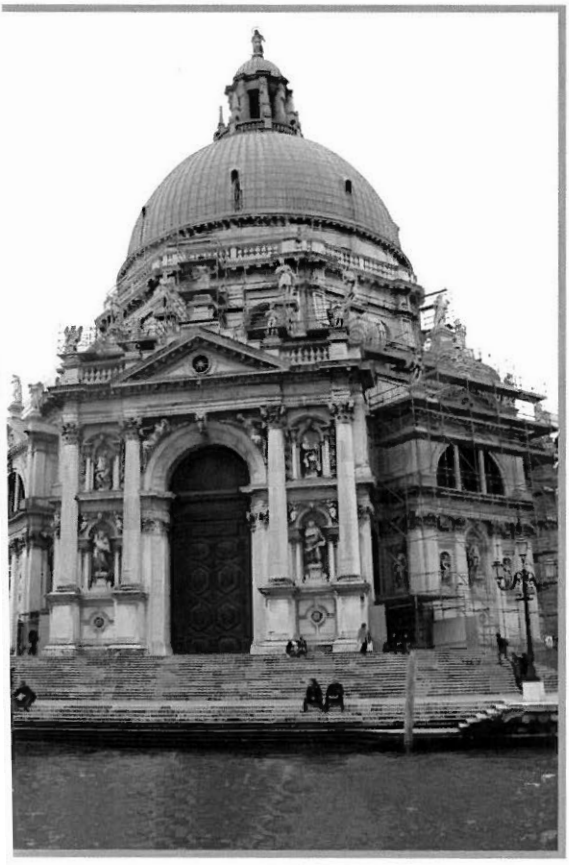

ولقد نجح نابليون في إنهاء حكم الأقلية في فينيسيا، وبعد أن صارت تتقاذفها القوى الأوروبية المتصارعة لعدة عقود زمنية اندمجت أخيراً في إيطاليا عام ١٨٦٦م بعد أن توحدت إيطاليا، واعتمد نموها على دورها في الحياة التجارية لإيطاليا وعلى استثمار إمكاناتها الطبيعية والجمالية التي جذبت الزوار لقرون عديدة من كل أرجاء العالم.

ويشق المدينة ١٨٠ قناة، منها متوسط عرضها ١٢ قدماً تشق مجراها الأصلي بين الجزر الأصلية البالغ عددها ١١٨ جزيرة أما

القناة الكبرى التي تجرى حول قوسين كبيرين خلال المدينة فهي تشكل النهر الرئيسي خلال الجزر ويسمى نهر «التو» وتحور إلى اسم ريالتو، وطولها حوالي ميلين، ومتوسط عمقها ٩ أقدام، وأقصى اتساع لها ٢٢٨ قدماً، وأقل اتساع هو ١٢٠ قدماً، يقع على ضفافها ٢٠٠ قصر بنيت بين القرنين ١٢، ١٨، وعشر كنائس، ومحطة غاز بحرية، وتلتقي مع ٤٦ قناة جانبية لتشكل أجمل شارع في العالم.

لم يوجد سوى جسر واحد حتى القرن التاسع عشر فوق هذا الشارع الضخم واسمه جسر ريالتو.. فهذا الجسر العالمي ذو القوس الواحد والمزدحم بالدكاكين الصغيرة أقيم طبقاً لخطط المهندس أنطونيا دابونتا الذي ربح المنافسة من مايكل أنجلو والفنانين العظام في ذلك العصر (عام ١٥٩٠م)، وهو الآن خامس جسر في هذا المكان، إذ يوجد جسران مسطحان من الحديد المطروق أقامهما المحتلون النمساويون عام ١٨٥٤م واستبدلا بغيرهما ليلائما الحافلات النهرية الكبيرة، وأعيد بناء جسر محطة السكة الحديد بالحجر، وبنيت جسور خشبية أخرى مؤقتة. ومن بين الجسور الدائمة التي يبلغ عددها ٤٠٠ جسر؛ ذلك الجسر الشهير باسم جسر التنهدات، وهو ممر مغطى يعلو القناة بين قصر الدوق وسجن الجمهورية.

وفي عام ١٨٨١م أدخلت شركة فرنسية الحافلات البخارية

النهرية في القناة الكبرى وتسمى فابوريتي.

وانخفض عدد قوارب الجندول من ١٠٫٠٠٠ إلى ٤٠٠ لأن الجندول اليوم أمام منافسة ٧٥ سيارة مائية تسير بالمحرك.

وتوجد أنواع مختلفة وعديدة من المراكب في فينيسيا تبدأ من الصندل الصغير، ويسيره البحار واقفاً بالتجديف بمجدافين متقاطعين، وكذلك قوارب إسعاف زرقاء تسير بالمحرك، وقوارب للمطافئ والبريد، وقوارب مجمع القمامة، وقوارب تبيع المشروبات، وقوارب الشرطة السريعة، وقوارب صيد السمك عالية السواري.. وعلى اليابسة التي فيها حمامات سباحة توجد سيارات الأجرة وعربات السكة الحديد، وتمر بين تلك القوارب سفن الشحن وتشكيلة من قوارب التسلية.

وتشتمل فينيسيا على ٣٠٠٠ شارع يابس يبلغ مجموع طولها ٩٠ ميلاً والعمارة لها شكل فينيقي، كما أنها طعمت بالأساليب الفنية المتتالية عبر القرون فنجد التأثير الإيطالي والعربي والبيزنطي والقوطي وعصر النهضة.. فنجدها منفردة أو مشتركة مثل الفينيتو-بيزنطي كما ساهمت عوامل أخرى في تنسيق التجميع المعماري مثل التصميم المتكرر للشارع أو الجسر أو القناة.. تظهر الحجر كما لو كان شفافاً، وتحيل المباني إلى أشكال غير مادية في انعكاسات صورة على صفحة الماء وكل شيء غارق في انعكاس الأنوار الملونة ومتكرر بين البحر والسماء.

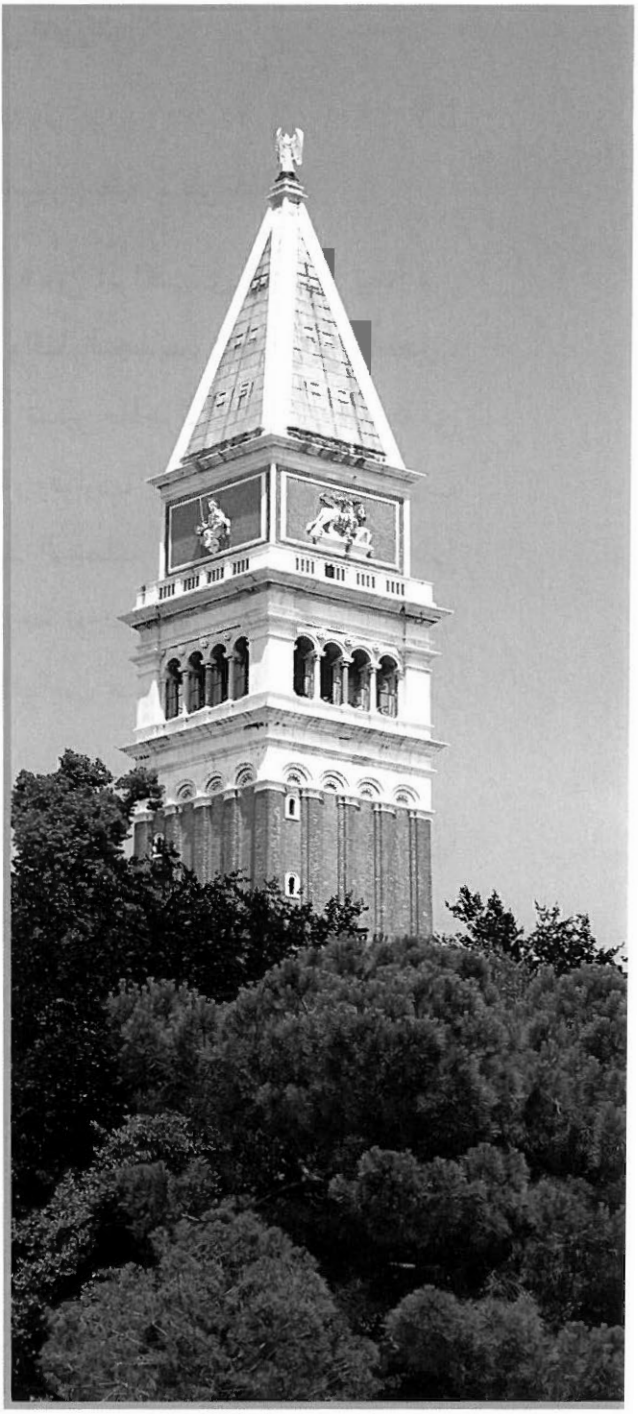

ومن أهم الميادين: ميدان سان مارك حيث الأنغام العادية للأحجار والهواء والماء.. وسان مارك أحد أشهر ميادين العالم، فهذا الصالون الرخامي الذي طوله ٥٧٤ قدماً، وعرضه ٢٦٠ قدماً كان المركز الاجتماعي والسياسي للسيرنيسيما (اسم فينيسيا القديم)، فالبواكي على ثلاثة جوانب، وتغلق نهايته الشرقية بكنيسة سان مارك ذات برج الأجراس الذي يرتفع إلى ٣٢٤ قدماً إلى جانب قصر الدوق- الكنيسة ذات لون ذهبي، والقصر بلون أحمر..

وقد بنى المدخل المائي إلى الميدان حيث تلتقي القناة الكبرى مع حوض

سان مارك، وتسمى درجات السلم الرصيف باسم «المولو»، ومن هناك إلى داخل اليابسة وبين المكتبة القديمة وقصر الدوق –الرصيف المنمط للميدان الصغير، تؤدي إلى برج الأجراس في الميدان الرئيسي ويتميز المولو عن الميدان الصغير بعمودين من الجرانيت مجلوبين منه شرق البحر الأبيض المتوسط في القرن الثاني عشر الميلادي.

أما قصر الدوق فقد بني أول عام ٨١٤م وكنيسة سان مارك بنيت بعد ١٦ عاماً من ذلك التاريخ والتهمتهما النار في عام ١٩٧٦م وأعيد بناؤها فوراً. واحترق القصر في عدة حوادث بحرائق متتالية، أما وجوده الحالي فيرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي حيث أعيد بناؤه ثم جرى توسيع القصر في القرن التالي.

وعلى الجانب الشمالي من الميدان توجد المحكمة القديمة التي بنيت في بداية القرن السادس عشر، وعلى الجانب الجنوبي المحكمة الجديدة التي بنيت في القرن السابع عشر، ويشغل الطابق الأرضي من هذه المباني محلات تجارية فاخرة ومقاهي.. والأدوار العليا تضم المتحف الميداني الذي يعرض المومياء المحلية والأواني والأعمال الفنية.

كما يوجد في نفس المباني متحف الريزجوينتو الذي يعرض تاريخ فينيسيا.. وعلى زاوية تواجه الميدان الصغير توجد المكتبة القديمة الرائعة العمارة، وفي طرفها تجاه القناة توجد دار ضرب السكة، وكلاهما تم بناؤهما في منتصف القرن السادس عشر على

يد المهندس جاكويو سانسوفينو عندما هرب من روما إلى فينيسيا عندما اجتاحت أسبانيا روما، كما صمم المباني التي أصبحت مقر الشرطة، والهاتف ومتحف الأرخبيل والمكتبة الوطنية مارسيانا، ومكتبة المدينة المركزية التي تقتني المخطوطات المزخرفة للقرن الخامس عشر ومطبوعات فينيسيا.

ولا يزال ميدان سان مارك هو مركز فينيسيا، ولا يخلو أبداً حتى ساعات ما قبل الفجر الثلجية في الشتاء من الناس وفي الصيف تخرج مناضد المقاهي لتلتقي السياح بينما المرشدون السياحيون يخطبون، والفرق الموسيقية تترنم بألحانها، والحمام يأكل بشراهة مما يلقيه السياح عليه.

والحمام الشره أحد أعداء الكنوز الفنية في فينيسيا كما يقول لنا المرشد السياحي لأن فضلات الحمام تلوث تلك الكنوز، وتتراكم على أسطح الأعمدة والقصور واللوحات المرسومة في السقوف.

وتجد في الميدان كما في كل مكان آخر من فينيسيا الأسد الرمزي وفي جميع الأشكال والأحجام.

والمدخل الرئيسي لقصر الدوق يضم ٧٥ منها، كما لا يزال يوجد صناديق الخطابات البحرية على شكل أسود تلتقي في أفواهها العرائض الموجهة إلى مجلس العشرة، وأمام الترسانة البحرية توجد تماثيل عديدة من الرخام لحيوانات ووحوش خطط عليها المرتزقة

النورمانديون الذين كانوا في خدمة البيزنطيين ذكرياتهم.

بنيت الترسانة البحرية في القرن الثاني عشر يحيطها حائط طوله ميلان، وكان يعمل بها ١٦٫٠٠٠ عامل في وقت مجدها في القرن السادس عشر، وكانت تنتج سفينة جديدة كل يوم خلال ١٠٠ يوم أثناء الحرب ضد الأتراك، وكلمة الأرسينال أي الترسانة مأخوذة من اللغة العربية وهي إحدى الكلمات العديدة.

ويمتد من أسفل القوس الخاص ببرج الساعة شارع تجاري أنيق يسمى المارزريا، ويصل حتى الريالتو. وكان الريالتو تدار فيها أعمال أوروبا التجارية خلال القرون الثلاثة حتى أصبحت فينيسيا حلقة الوصل بين الشرق والغرب، وأقدم بنك حكومي هو بنك جيرو الذي أسس في القرن الثاني عشر الميلادي ملاصقاً لمكاتب الملاحة والتجارة والشحن، وقد ذكر مكاناً لتجمع التجار والمرابين في مسرحية شكسبير «تاجر البندقية» عام ١٥٩٦م، وما تزال توجد بنوك قليلة في هذا الحي.

وتقع قيصرية التجارة التركية القديمة بعيداً عن ضفة القناة الكبرى، وقد تحولت الآن إلى متحف التاريخ الطبيعي، والتجارة التي تغرق المحلات الآن ذات طابع محلي: السمك واللحوم والجبن والدواجن والخضراوات والفواكه، والمشترون الفينسيون يتبعون التقاليد بشراء ما يكفي لوجبة واحدة بعكس غيرهم من المدن الأخرى والسياح.

وتتعرض فينيسيا للفيضان عندما تتوافق عدد من العوامل الجوية والمائية لإحداث مد نافوري فوق مياه البحيرة التي وصلت مسبقاً إلى مستوى مرتفع، وقد تكرر حدوث الفيضان ٥٨ مرة بين ١٨٦٧م- ١٩٦٧م، وقد عملت الحكومة الإيطالية بالتعاون مع الخبراء العالميين على وضع أجهزة إنذار تعطي إشارة قبل ١٢ ساعة من حدوث الفيضان، واقترحوا وضع سدود متحركة للتحكم في تيار الماء عند الفتحات التي يمر خلالها البحر إلى البحيرة وخارجها.

وأصبح واضحاً أن فينيسيا تغوص بثلاثة أمثال معدل الغوص في القرون الغابرة بمعدل ١٢ بوصة كل قرن، بينما كان المعدل السابق ٤ر٥ بوصة في القرن، بينما يرتفع مستوى سطح البحر بمعدل ٤ بوصات في القرن، وهذا الغوص ناتج عن ثقل المدينة فوق طبقة الطين البالغة ١٦٠٠ قدم القابضة فوق الطبقة الصلبة تحت قاع البحيرة، وهناك سبب آخر واضح هو استنزاف مياه الشرب بالآلات الميكانيكية من ينابيعها الجبلية تحت الأرض لأغراض الصناعة، فعندما تستنزف المياه تتحطم الجيوب التي كانت تحتويها وتهبط الأرض التي فوقها.. هذا دفع إلى التحكم والسيطرة على استهلاك المياه، وإلى إغلاق أكثر من ٢٠ر٠٠٠ بئر، وذلك بعد بناء سدود مياه تستمدها من الجبال.

وفي عام ١٩٦٩م اكتشف أن إحدى الصناعات التقليدية القديمة وهي صناعة الزجاج والمنسوجات تستخدم عدداً كبيراً من أهل فينيسيا كما أن ٢٠- ٣٠٪ من القوى العاملة ترتبط بأنشطة

الميناء، ولكن اليوم نجد ميناء مارغيرا وهو أحد أحياء فينيسيا يملك ٨ أضعاف طاقة المدينة القديمة، كما أن حوالي ٢ مليون سائح يوفرون العمل لثلث القوة العاملة، ولكن هذه الحركة كلها تتركز في خلال ثلاثة شهور في فصل الصيف.. حيث تتحول المدينة إلى متحف يعج بالسياح من شتى الأجناس.

كانت الجزر المحيطة بها خالية تماماً من السيارات، فالمواصلات فيها هي القوارب والمراكب فقط بين البيوت، وتشتمل على المطاعم والفنادق والأسواق المليئة بالكرستال والزجاجيات.. وقمنا بزيارة لأحد المصانع الخاصة بالزجاجيات الفاخرة وتناول طعام الغداء في أحد مطاعم تلك الجزر الفاتنة وذات الجو البارد الجميل، ثم قمنا بزيارة لقصر «دودجيس» الذي مضى على بنائه ستمائة عام ومازال شامخاً. حقاً إن هذه الجزر لآية في الحسن والجمال!.

ولقد وضعت بلدية البندقية لافتات بمنع السياح من النوم خلال الليل بجانب القنوات، وقال رئيس البلدية: إن المدينة لا تلقى الاحترام اللازم من السياح، ويجب ألا يسمح لهذا المركز التاريخي بأن يتحول إلى موقع مخيم.

وقد قام رجال البوليس بدوريات حيث أيقظوا مئات من السياح الشباب الذين لا يستطيعون دفع أجور الفنادق الغالية وينامون في العراء.

وبعد زيارة لأهم معالم فينيسيا غادرنا هذه المدينة الجميلة الرائعة تحت وابل من المطر وكان ينهمر في هذه الأثناء، وكان يوماً ممتعاً يشد لإقامة أطول في هذه المدينة لما تمتاز به من جمال طبيعي ونسق الحياة وروعتها وسحرها.

ثم أخذنا باخرة إلى شواطئ المدينة، وكنت أذكر كم شهد هذا البحر من وقائع! وكم حمل من سفن! وكم رافق من حوادث جسام!. وكان في انتظارنا حافلة، فصعدنا بها متوجهين نحو بلاد أخرى مردداً قول الصديق الأستاذ عبدالكريم الجهيمان:

ارحل وشاهد بها ما قد سمعت به
شتان عندي بين الخُبْر والخَبر

وسوف تلقى بها أضعاف ما سمعت
أذنان من منطق قد ليث بالحصر

وسوف تبهرك الأنوار ساطعة
بكل علم حباه الله للبشر

فاشددرحالكوأعجلفالدنافرص
وما سماعك بالآثار كالنظر

METROPOLIS

في أسبانيا

في صباح يـوم مشرق سعيد هو يوم ١٤٠٦/١١/١٩هـ شددنا الرحال متوجهين صوب الحـدود الإسبانية، وتناولنا طعام الإفطار في إحدى القرى

الإسبانية الجميلة وهي «بريتوريا» بعد أن دخلنا أسبانيا وأمضينا لحظات سعيدة في استعراض التاريخ والذكريات الجميلة إبان زيارتي لأسبانيا منذ عشرين عاماً.. حين زرتها عن طريق الجزائر والمغرب،

حينما كنت إذ ذاك أعمل معلماً في مدينة وهران الجزائرية إلا أن الطريق الذي نسلكه اليوم يختلف عن السابق.. فقد عبرنا في رحلتنا الماضية مع الطريق الذي عبر معه أسلافنا الميامين، ودخلنا عن طريق جبل طارق.. ومدينة مليلة وملقة.

أما هذه المرة فقد سرنا تقريباً مع الطريق الذي عبره القائد الفذ المسلم عبدالرحمن الغافقي حين اتجه إلى الأراضي الفرنسية في فتوحاته العظيمة، وبعد أن تجولنا في «بورجوس» هذه البلدة الجميلة.. حيث المناظر البديعة والمعالم الأثرية والمشاهد الأخاذة من قمم جبلية عالية وسفوح مليئة بالأشجار.. وواصلنا السير، وأخذ مرشد الرحلة يصف الطريق، ويذكر الأماكن التي مررنا عليها، ويسمي القرى وأغلب القرى التي مررنا بها يبرز فيها البناء الأندلسي والطابع الإسلامي.. ولا غرو فقد ظلت أسبانيا طيلة ثمانية قرون ترتع في حظيرة الإسلام.. ومما ينبغي الإشارة إليه اهتمام الأسبان بالسياحة وتركيزهم عليها.. وجهزوا استراحات سياحية على طول الطريق.. ولا غرو فأسبانية أول دولة في العالم من حيث عدد السياح.. ومن حيث أماكنها السياحية.

ولكن تذكرت التاريخ والماضي المجيد وأوائل القادة الذين فتحوا هذه الديار واستقروا فيها من أمثال طارق بن زياد وعبدالرحمن الداخل، وكلما لاحت لي نخلة تذكرته ورددت قوله:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

لقد أكثر المؤرخون في وصف هذه الديار وفضل الإسلام والمسلمين عليها.. وكلما ذكر المرء ذلك الماضي تألم وامتعض، فقد تغير ذلك الوجه المشرق المضيء رغم تشويه المؤرخين الأوربيين لحقيقة الفتح الإسلامي.. فقد نسجوا قصصاً خيالية بعيدة عن الواقع ومجانبة للحقيقة.. ولعل من تكرار القول الحديث عن الدولة الإسلامية وتاريخها في الأندلس، فكل إنسان يعرف عنها، والكتب تحمل ذلك وتبرزه بجلاء، ومن ذكر ذلك نتخذ الموعظة والعبرة.. ولقد قال شاعر رندة من قصيدة طويلة مؤثرة:

وهذه الدار لا تبقي على أحد
ولا يدوم على حال لها شان

ولنعد إلى الرحلة.. فبعد المرور بعشرات البلدان والقرى وزيارة ما بها من الآثار والأمكنة وهي بحق تمثل الجمال وتبعث الروعة والسحر.. وتشتهر تلك المدن بآثارها الإسلامية وغير الإسلامية..

ثم انطلقنا نحو العاصمة مدريد وسط جبال وطرق شتى، وشاهدنا فيها مختلف المناظر الطبيعية الخلابة والقرى الجميلة، وطال بنا السير حيث كنا نسير في الجبال بهدوء وبطء حتى توقفنا

في العاصمة، وذهبنا نحو فندق «كونفيسون»، ومضينا في الصباح إلى زيارة أهم معالمها كالمتحف الكبير، وشاهدنا عشرات الرسامين بداخله، ثم أخذنا جولة في المدينة وهي تزخر بالحركة والعمران كأي عاصمة أوروبية.

وفي المساء خرجنا نحو مدريد القديمة ومراكزها الأثرية.. كما قمنا بزيارة لبعض الأمكنة والميادين القديمة فيها ذات القيمة التاريخية، وجولة في ضواحيها وأطرافها البعيدة والقريبة والمركز الإسلامي

الثقافي، وله نشاط ثقافي، ومجلة دورية تعني بالبحوث التاريخية والمخطوطات باللغتين الأسبانية والعربية.

وفي صباحٍ اليوم الثالث توجهنا نحو الأسكوريال، وقطعنا حوالي خمسين كيلاً، فوصلنا إلى تلك المنطقة التاريخية التي يعتبرها الأسبان إحدى عجائب العالم، حيث تضم الكنيسة والقصر والمقبرة الملكية والدير والمدرسة الملحقة به وبها أمكنة مختلفة..

وبعد تجوال في المنطقة توجهنا نحو مكتبة الأسكوريال الشهيرة التي يوجد بها بقايا التراث الأندلسي الفكري.. وهي تقع في الجهة اليمنى

من القصر، وتضم بهواً واسعاً تعرض فيه مجموعة من المخطوطات التي تحتويها المكتبة ومنها مصحف كان لأحد سلاطين المغرب..

ومكتبة الأسكوريال ليست غنية من الناحية الكمية فقط فهي تحوي أكثر من سبعين ألف مجلد، ولكنها غنية بما تحويه من نوادر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية وغيرها وهي تبلغ نحو عشرة آلاف مخطوط.. ويبلغ ما تحتويه اليوم من المخطوطات العربية ألفي مجلد على حد تعبير أمين المكتبة.

هذه المكتبة التي تجذب اليوم محتوياتها جمهرة الباحثين من سائر أنحاء العالم كانت في بدايتها تتكون من المكتبة الملكية، ومما كان يشتريه سفراء الملك فيليب من المخطوطات النادرة من مختلف الأقطار، وضمت إليها منذ البداية بضعة ألوف من المخطوطات العربية التي جمعت بعد سقوط غرناطة من غرناطة نفسها.. ومن سائر المدن الأندلسية، ثم زادت هذه المجموعة العربية زيادة كبيرة في عصر فيليب الثالث حينما استولت السفن الأسبانية في مياه المغرب سنة ١٦١٢م على سفينة مغربية كانت تنقل مكتبة سلطان مراكش وقوامها ثلاثة آلاف مجلد في مختلف العلوم والفنون، وبذلك بلغت المجموعة العربية في الأسكوربال في أوائل القرن السابع عشر نحو عشرة آلاف مجلد.. ثم في عام ١٦٧١م شب

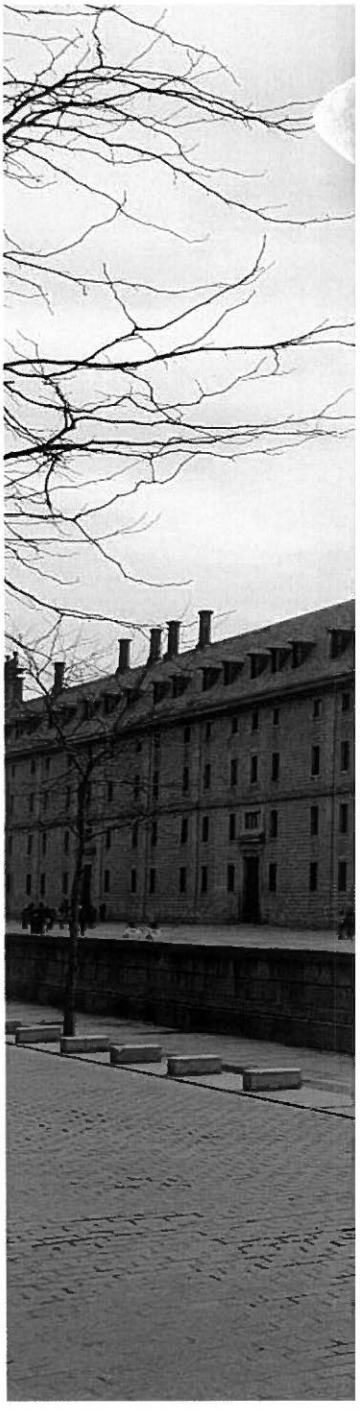

حريق في القصر قضى على جلها من الكتب فلم يبق سوى ألفي مجلد، وهي التي توجد اليوم في المكتبة.

وبعد تمضية بضع ساعات في داخل القصر، ومشاهدة المتحف واللوحات والمكتبة توجهنا إلى وادي الشهداء الذي لا يبعد إلا قليلاً من الأسكوريال، وقد بنى الجنرال (فرانسيسكو فرانكو) كنيسة داخل جبل، وأقام في قمة الجبل صليباً هائلاً تخليداً لشهداء الحرب الأهلية الأسبانية، وعمق الكنيسة داخل الجبل حوالي ٣٥٠ متراً، وعرضها ٢٥ متراً، تزين الكنيسة لوحات من الداخل، وفي نهاية الكنيسة في القبة الرئيسية لوحة تحتوي على رسوم من قطع المزاييكو الصغير، ويقال: إن عدد القطع ثمانية ملايين قطعة.. وعلى جوانب الكنيسة تقع مدافن بعض ضحايا الحرب، وقد قبر الجنرال فرانكو في نهاية الكنيسة.

ثم غادرنا المنطقة وأخذنا طريقنا نحو العاصمة مدريد بين جبال خضراء، وكنت أقيم انطباعاتي في ضوء ما شاهدته في الأسكوريال وماضيها وحاضرها، وتذكرت ما سبق أن قرأته عن حرص الأسبان على إخفاء الآثار الإسلامية عن نظر كل باحث حيث كانوا يخشون أن يتسرب الإسلام إلى تفكير وروح أبنائهم، فدفنوا الكتب في هذا القصر، ثم صار مزاراً للسائحين.

إلى برشلونة:

ومضينا في الصباح إلى برشلونة، وقد واصلنا السير أكثر من سبع ساعات متواليات توقفنا خلالها نصف ساعة لتناول طعام الغداء، وكان الجو لطيفاً، وكانت الطريق إليها خضراء

حيناً وصحراء قاحلة حيناً آخر. فهناك اختلاف كبير بين المناطق، وعبرنا وسط جبال وسهول وأودية، ومررنا بالعمران والصحراء.

واستمر بنا السير حتى وصلنا إلى برشلونة، وهي مدينة تطل على البحر

الأبيض المتوسط وهي المدينة الثانية في أسبانيا، ويسكنها ثلاثة ملايين، وحططنا رحالنا في فندق (برزدنت) في قلب المدينة.. وقضينا تلك الليلة في راحة وهدوء.

وخرجنا في الصباح نتجول في المدينة فوجدناها بديعة ونظيفة في الجمال وطراز البناء.. وفي برشلونة ميادين كثيرة وحدائق عديدة، وزرنا ميناءها والمركز التجاري، وجامعتها العريقة التي أسست عام ١٤٥٠م..

وقمنا بزيارة للمدينة القديمة، ومشاهدة المعالم التاريخية وشوارعها الضيقة.. ولم يبق للعرب والمسلمين فيها أثر يذكر رغم مكوثهم فيها فترة من الزمن، وقد قام الفرنجة بمحو وهدم جامعها، وبنوا مكانه الكنيسة الكبرى، فلم أجد من يرشدني إليه، وقد يكون من ضمن الآثار التي محاها الأسبان، وقد علمت فيما بعد أن أبواب قصر السرور موجودة في متحف مدريد، ولقد قال فيه المقتدر بن هود:

قصر السرور ومجلس الذهب

بكما بلغت نهاية الأرب

وهي قصيدة طويلة

وخرجنا في رحلة إلى الجبل الشهير (تابيد ابو) وقد أصبح غابة جميلة تكسوه أشجار الصنوبر، وبه المطاعم والفنادق والمراكب

الكهربائية، وفوق الجبل يشاهد المرء المدينة والبحر والمتنزهات والمدرجات البديعة والقرى الشعبية التي تمثل الماضي والتراث الأسباني وحياتهم القديمة..

والواقع أن برشلونة لم يبق للعرب فيها من أثر يذكر لأن بقاءهم فيها لم يكن طويلاً، حيث أخذها منهم شارلمان، ثم أخذها منه الأسبان.

ومضينا بعد ذلك إلى غرناطة وقرطبة، وهما من أهم مراكز الحضارة العربية الإسلامية، وقد أنجبت العلماء النوابغ وأئمة البيان والمعرفة.

ومن الشمال توجهنا إلى الجنوب إلى الأندلس، ما أغرب التاريخ! كيف أعادنا إلى الأطلال العربية الإسلامية الباقية والتي يتوجه إليها ملايين السياح.

نزلنا بها فاستوقفتنا محاسن
يحن إليها كلُّ قلب ويهواها

ولم يبق فيها للتذكر بقعة
يفرحُ فيها القلبُ إلا ذكرناها

رحم الله أسلافنا الميامين الذين كسروا شوكة الأسبان، وفتحوا هذه المنطقة الخضراء من أوروبا، ووسعوا حدود الدولة الإسلامية إلى القارة الثالثة من قارات العالم، فرحم الله طريفاً وطارقاً ورجالهما

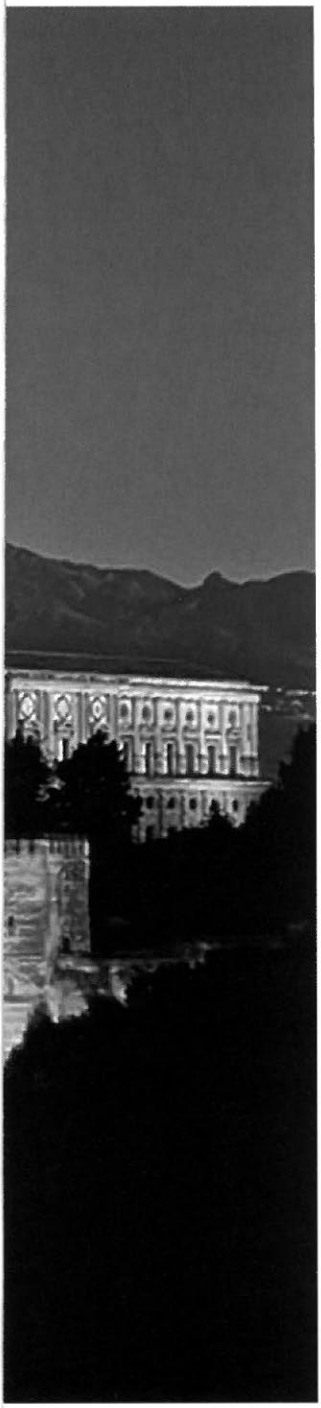

وما امتازوا به من عزيمة ومغامرة وطموح لا تمحوها الأيام والليالي! ورحم الله موسى بن نصير! فقد كنت أردد قوله المعروف الذي وصف فيه الأندلس (شامية في طيبها وهوائها، يمنية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في جباياتها، صينية في معادن جواهرها، عدنية في منافع سواحلها).

إن الحديث عن الأندلس حديث مستطاب ذو شجون يستهوي الفؤاد ويأخذ بمجامع القلب.. ولقد قال الشاعر:

وإذا ما هبت الريح صبا
صِحْتُ واشوقي إلى الأندلس!

قصر الحمراء:

منذ أن وطئ العرب المسلمون ديار الأندلس نمت فيها الحضارة نمواً شاملاً، وتقدم فيها العلم تقدماً مرموقاً، واستمر التطور في الحياة والعمران والعلم والأدب فازدهرت فيها الحياة ازدهاراً بارزاً.

وما زالت جذور تلك الحضارة العربية الإسلامية باقية تعبر عن مجدها العتيق، وتاريخها المجيد، حيث كانت مهد الحضارة والثقافة، ومنار الإشعاع والسنا. وما زال للحضارة

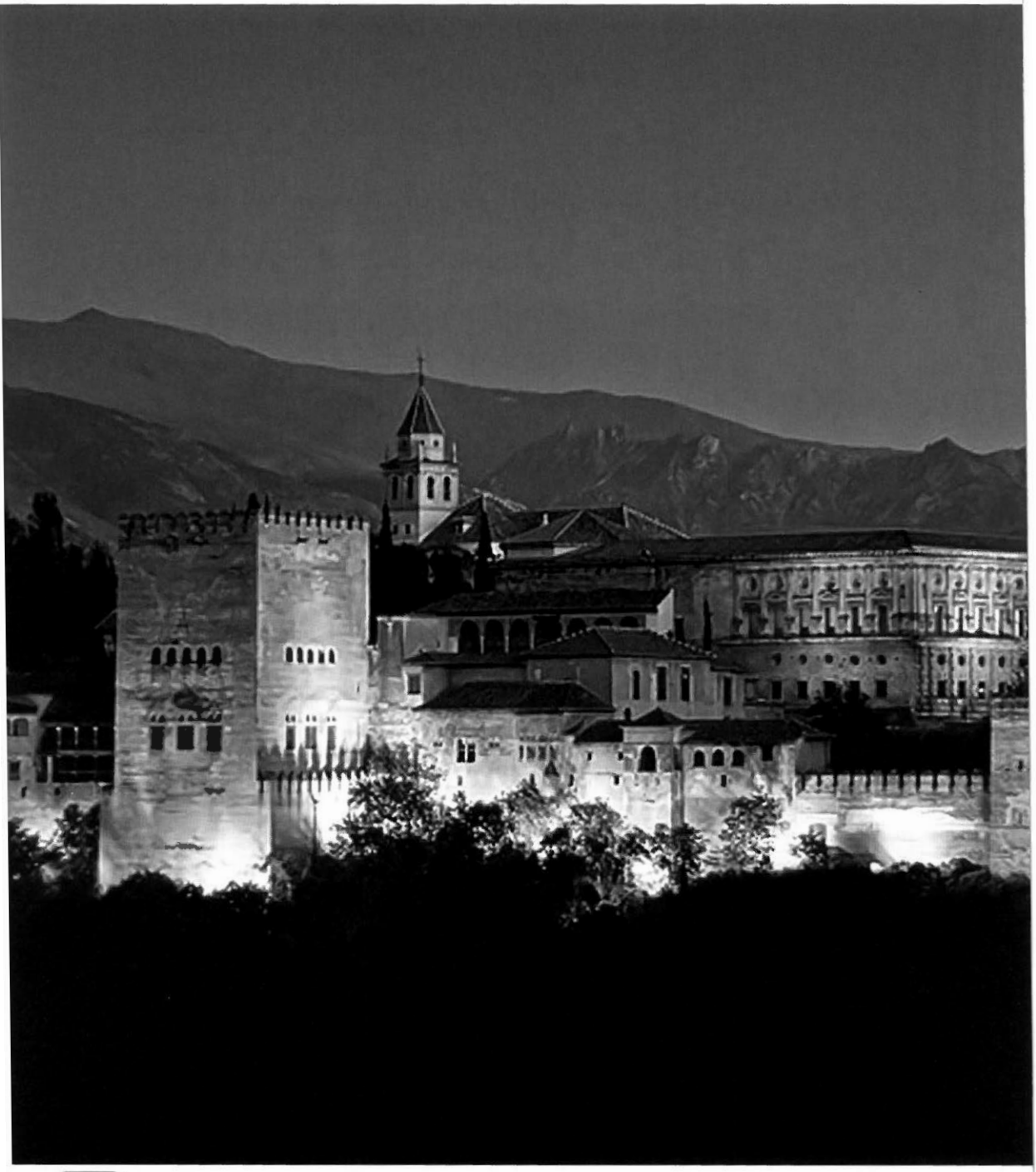

العربية ومضات خلابة تتألق بالجمال والروعة تتمثل في قصر الحمراء في غرناطة، وما زالت صروحه وأبهاؤه تتوهج بالضياء والإيحاء والذكريات والروعة والجمال والجلال والتأمل..

حقاً إنه أحد المعالم، وروائع الإبداع العربي الإسلامي، ولقد رددت قول الشاعر حينما رنوت إليه:

شاهدته فوقفت مشدوه القوى
مما يهز القلب في الإدراك
كان المحرك للورى في عصره
ومولد الطاقات شأو قواك

ولقد كان أسلافنا ينشدون إبان قوتهم ومجدهم:

بلغنا السما مWجداً وجوداً وسؤددا
وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وحينما توجهت لزيارة قصر الحمراء شاهدت ازدحاماً شديداً على أبوابه فقلت أمضي جزءاً من الوقت في التجوال حول القصر وفي وسط المدينة، فسرت في شوارع كثيرة وكنت أنشد مع ابن هانئ الأندلسي:

يا أهل أندلس لله دركم
ماء وظل وأشجار وأنهار

ما أكثر ما تغنى الشعراء بالأندلس! فزخرت أشعارهم بالجمال والإجلال، وما زال الأدب العربي حافلاً بتلك الأشعار التي تجسد بجلاء تلك الحياة التي تصف الأندلس، وتتغنى به، وتشدو بمباهجه ومفاتنه، وتصف حياتهم التي كانت مفعمة بالبهجة والسرور في هذه الربوع. وما خلفوه من تراث ضخم لا يزال بمثابة صور ناطقة حية بما كانوا يتميزون به من صفات كريمة وأخلاق فاضلة وخصال حميدة وسجايا نبيلة.

ولا أريد أن أغرقك أيها القارئ الكريم معي في لجج من الذكريات، فقد تؤلم القلب، وتؤرق النفس، ولكنه من وحي الإحساس الذاتي حينما يشاهد المرء ذلك المكان فيتمثل التاريخ أمامه، بل تلتقي الصور أمام ناظريه، وهنا تذكرت قول القائل:

ما أغرب التاريخ كيف أعادني
لحفيدة سمراء من أحفادي!

وبعد أن أمضيت ساعة في التجوال بين شوارعها وأماكنها القديمة ومشاهدة بعض البيوت والمعالم الأثرية استحضرت على الفور قول ابن خفاجة الأندلسي:

فـــإذا تـــردد في جـنـابـك نـاظـر
طـــال اعـتـبـار مـنـك واسـتـعـبـار

أرضـــ تـقـاذفـت الـنـوى بقطينها
وتمـخـضـت بـخـرابـهـا الأقـــدار

ثم عدت بعد أن خف الازدحام على الدخول حيث كان السواح أفواجاً يأتون من كل مكان، ويهبطون من الحافلات منتظمين في صف واحد.. ودخلنا القصر فأمضيت ساعات لا أشعر بالوقت خلال ذلك، حيث يشاهد المرء تاريخه وتراثه وأمجاده وحضارته.. وأدبه وآثاره:

وإذا لم تـــدر مـــا قـــوم مـضـوا
فـاسـأل الآثـــار واسـتـنـب الـديـارا

حقاً إنه لشيء عظيم أن يبقى تاريخ هؤلاء الأسلاف شامخاً خالداً باقياً على مر العصور.

وما زال المهندسون وعلماء الآثار وغيرهم يأتون من كل أرض، ويقضون وقتاً طويلاً في البحث والتنقيب والدراسة والتأمل والتصوير، ويتأبط الكثير منهم المراجع والمصادر والمعاجم بحيث يدقق ويبحث ويراجع! فقلت: إلى هذا الحد يهتم الأجانب بتاريخنا، ويحرصون

عليه! والتفت يمنة ويسرة علّي أجد أحداً من بني قومي يهتم بما يهتم به أولئك الذين يحملون كتبهم وأقلامهم فيدونون المذكرات عن هذا القصر وتاريخه.

وقصر الحمراء قصر شامخ يقع على ربوة مرتفعة بحيث يطل على مدينة غرناطة، يزدان ببوابة فخمة يدلف المرء منها إلى غرب القصر وممراته وحدائقه الفخمة وقاعات الاستقبال ومجالس الخلفاء وغير ذلك من المنشآت.

وقد سمي الحمراء نسبة إلى أصحابه من بني الأحمر، وقيل: لأنه بني على جبل يتميز بتربة حمراء.. وينسب بناؤه إلى الأمير أبي الحجاج يوسف بن الأحمر، ويتميز القصر بدقة البناء ومهارة الإبداع الفني، فهو بحق يثير الإعجاب والدهشة، وما زالت الكتابات العربية باقية حتى الآن مثل: «لا غالب إلا الله» وغير ذلك من الآيات القرآنية الكريمة، والحكم الدينية والأبيات الشعرية.. ولاشك أن الاهتمام من جانب أسبانيا في المحافظة على هذه الآثار وصيانتها وعدم إهمالها عمل مشكور.

وبعد أن جُلْتُ في القصر وحدائقه وقصبته وجنة العريف التي كانت من أعظم حدائق الدنيا في ذلك الزمان حيث تطل أبهاؤها على منظر المدينة ومروجها خرجت مغموراً بالسرور بتلك الساعات التي أمضيتها، وسعدت فيها، واستمتعت حقاً بمشاهدة المجد العربي الإسلامي، وستبقى تلك الذكريات في نفسي، فأسعد أوقات المرء ذكرياته الجميلة.

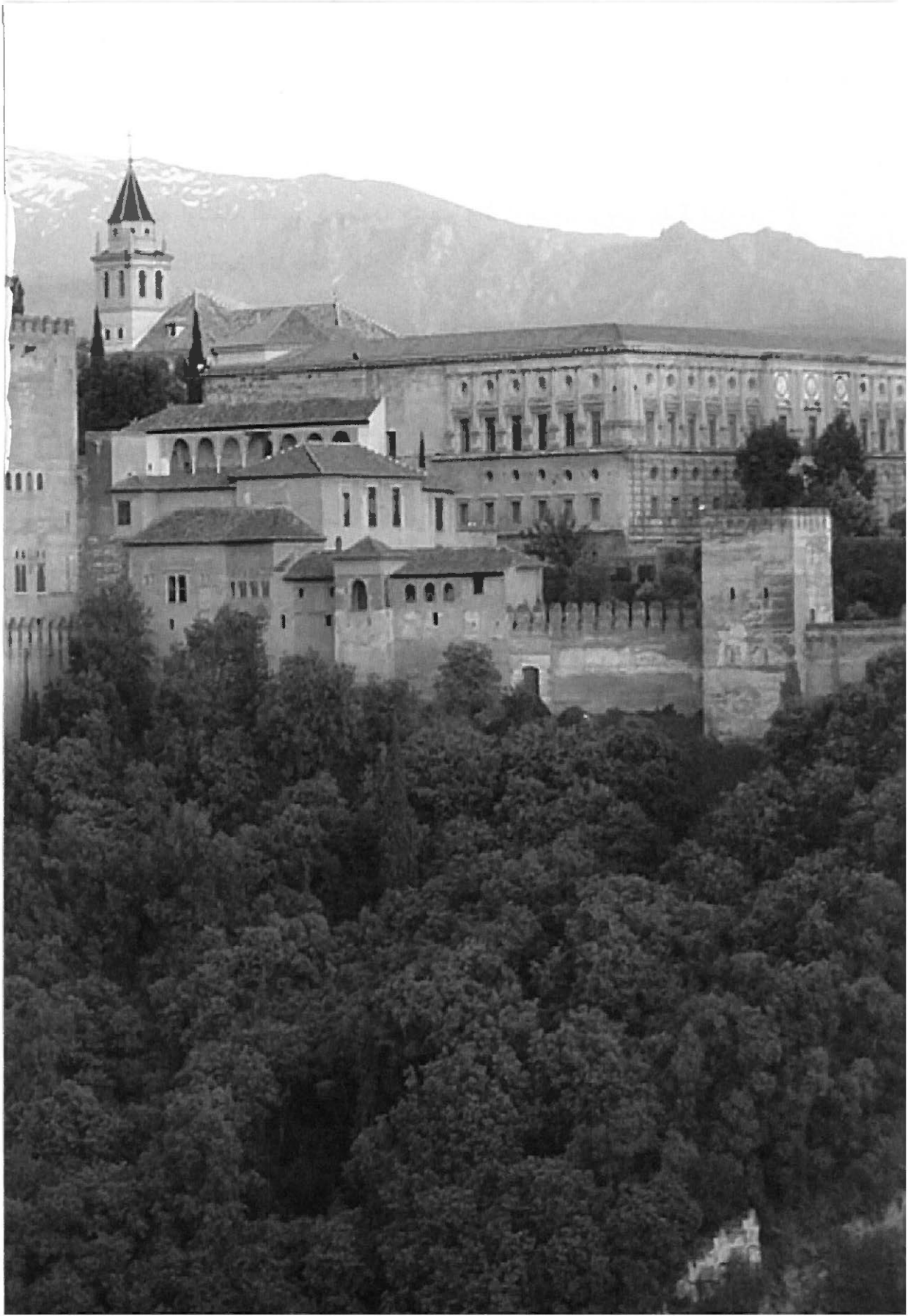

مدينة قرطبة:

ودعنا غرناطة ونحن نحمل أجمل الذكريات قاصدين مدينة قرطبة.. وقبل مغادرتنا مدينة غرناطة آخر ما كان يحتفظ به العرب إبان حكمهم، والتي سقطت عام ٨٩٧هـ عرجنا على متحفها الأثري لزيارته والاطلاع على ما يحتويه من آثار ولوحات وقطع، ومن ثم توجهنا إلى مدينة (قرطبة) قاعدة الحضارة الإسلامية الزاهرة ومركز العلم والمعرفة إذ ذاك.

وفي الطريق شاهدنا عشرات القرى التي ذكرتنا بماضيها، وذلك بما كنا نلمحه من آثار عربية وأطلال دارسة مما يوحي بمجد قديم. وقد مررنا في الطريق بعشرات المزارع والمناظر الخضراء الجميلة من كروم وزيتون، وبينما نحن نتأمل هذه المناظر بدت لنا معالم قرطبة، وبعد وصولنا ذهبنا للبحث عن الفندق..

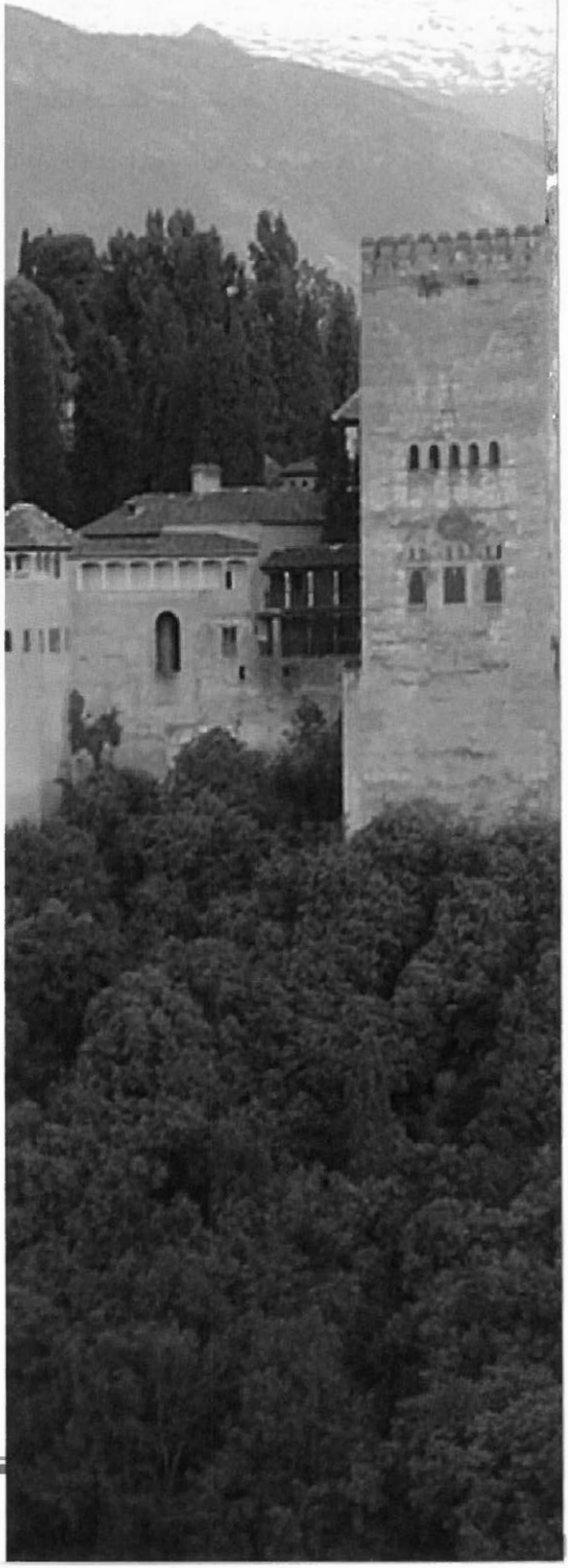

وبعد استراحة قصيرة خرجنا نطوف في شوارعها، وكم لهذه المدينة العريقة في نفوسنا من ذكريات تاريخية رائعة! فقد كانت من أعظم المدن الأندلسية وأجملها، وكانت حافلة بالمعاهد ودور العلم ومقصد العلماء والشعراء والأدباء.

ومدينة قرطبة أصبحت حالياً مدينة أوروبية ذات شوارع أنيقة، وتمتلئ بالمباني الحديثة إلى جانب الأحياء القديمة ذات الدروب الضيقة وهي المجاورة للمسجد الجامع..

ولعل من أهم آثارها (جامع قرطبة الشهير)، وذهبنا لزيارته وسط ممرات ضيقة، ووصلنا (الجامع) الذي عاصر الأيام الذهبية والسنين الزاهرة، وبعد وصولي الجامع أحسست بشيء من الأسى والكآبة، وخاصة حينما سرح بي الخيال، وتأملت تاريخ هذا الجامع العظيم يوم كان ملتقى العلماء، ووجدت آثار الإهمال وتحويله إلى كنائس حالياً..

وحينما اجتزنا إلى داخل الجامع بهرنا ما يحويه من روعة البناء وعظيم التصميم ودقة الزخرفة، وتاريخ هذا الجامع يعود إلى عام

١٧٠هـ حينما قام بإنشائه عبدالرحمن الداخل الأموي، وقد أراد عبدالرحمن الداخل أن يكون هذا الجامع من أروع جوامع الأندلس، وقد توفي قبل أن يكمله فأتمه ابنه هشام، ثم قام الخلفاء من بعدهما بتوسعته وإدخال مزيد من الإضافات عليه. ويقول الأستاذ محمد عبدالله عنان في وصفه لهذا الجامع: (يشغل مسجد قرطبة مسطحاً كبيراً يبلغ طوله مائة وثمانين متراً، وعرضه مائة وخمسة وثلاثين متراً، وهو أندلسي الطراز والمظهر بمعالمه وأوضاعه ونوافيره وأشجاره).

وللمسجد من قبل تسعة عشر باباً فخمة، وقد زين بزخارف عربية جميلة، وتبدو روعة هذا الأثر الإسلامي العظيم للداخل من أول نظرة، ويحار البصر في تأمل عقوده وأعمدته العديدة المتقاطعة التي لا تدرك العين نهايتها، وتبلغ عقوده في الطول تسعة وعشرين متراً، ويبلغ ارتفاع سقفه نحو اثني عشر متراً.

ولأول وهلة يشعر المتأمل أنه في قلب مسجد إسلامي، ولكنه متى دقق البصر قليلاً أدرك في الحال أن المسجد قد استحال إلى كنيسة، بل إلى كنائس! فقد عدلت أسقفه على الطراز الكنسي، وأزيلت القباب القديمة ما عدا القبة الرئيسية الوسطى، وحلت على قبابه نقوش نصرانية.. وأنشئت على طول جوانب الجامع الأربعة من الداخل هياكل لا نهاية لها ونصبت فوقها الصلبان وتماثيل القديسين وصورهم، ولم يترك من جوانبه سوى المحرابين، وأحدهما قديم مخرب، وأزيلت جميع الزخارف الإسلامية القديمة، ورسمت صور القديسين من الزخارف..

وترجع قصة تشويه مسجد قرطبة الجامع على هذا النحو المؤلم

إلى أوائل القرن السادس عشر ذلك أنه لما سقطت قرطبة في يد النصارى ودخلها فاتحها ملك قشتالة أقيم في الجامع قداس شكر، واستمر الملوك الأسبان في إدخال تغييرات جزئية في أوضاع الجامع.

وقد كان إقامة الهيكل الكبير في وسط الجامع مثار نقد شديد من العلماء الأثريين الغربيين من أسبان وغيرهم، وقد وصفه بعضهم بأنه أشنع عمل همجي ارتكب لتشويهه، وفي عام ١٩٥٣م أزيلت منارة الجامع القديمة وأقيم فوق أنقاضها برج الأجراس الحالي، ولقد حمل العلماء الأثريون وفي مقدمتهم العلماء الأسبان على هذا التشويه لأثر من أجل الآثار الإسلامية، ووصفه بعضهم بأنه تدنيس للفن.

ويصف الوزير المغربي محمد بن عبدالوهاب الغساني خلال زيارته لقرطبة عام ١١٠٢هـ هذا الجامع قائلاً:

«هو مسجد كبير جداً في غاية الإتقان وحسن البناء، وبداخله ألف وثلاثمائة وستون سارية كلها من الرخام الأبيض، بين كل سارية قوس فوق قوس آخر.. وله من الأبواب الآن أربعة عشر باباً، وقد سد كثير من الأبواب وغيرها.

ومحاربة الإسلام باق على حاله لم يتغير إلا أنهم جعلوا عليه شباكاً من نحاس، وطرحوا أمامه صليباً فلا يدخل عليه أحد إلا قبّل ذلك الصليب، ولم يزد بداخله ولا بحائطه شيء..

ولهذا المسجد صحن كبير جداً مشتمل على خصة ماء في وسطه، ويدور بها سائر الصحن من أشجار النارنج مائة وسبع عشرة شجرة.. ويقابل موضع المحراب إلا أنه ليس بغاية الارتفاع كمنارة

طليطلة وأشبيلية.. إلى أن يقول: إن هذا المسجد من أكبر مساجد الدنيا وأعظمها صيتاً».

وبعد أن أمضينا وقتاً طويلاً في جامع قرطبة، وشاهدنا ما فيه من روعة وعظمة خرجنا لزيارة القصر المجاور له، وهو قصر ضخم بني على الطراز العربي الأندلسي، كان مقراً للخلافة. واتجهنا للدخول من مدخله الرئيسي، ولا يزال بابه الضخم الكبير محتفظاً بقدمه وطابعه الشرقي، وعند مدخل الباب يوجد حارس ومرشدون.

وبعد قطع تذكرة الدخول دلفنا إلى ساحة القصر، وتجولنا في غرفه وقاعاته التي تبعث رؤيتها على شيء من الحزن والكآبة.. فكم شهدت من أيام زاهرة وسيادة وعظمة ومجد!. وشاهدنا في داخل القاعات ومجالس السفراء والأروقة بعض النقوش العربية إلى جانب التحف التي كان يحتفظ بها الخلفاء.. وفي جانب من القصر توجد حديقة ضخمة كبرى تزينها البرك الواسعة والأشجار المتعددة والخمائل الجميلة.

ولا تزال المياه جارية بين جنباتها، وصدفة التقينا بسائحٍ عربي قام يحدثنا عن القصر وعن مياهه فروى على حد تعبيره قائلاً: بأن هذه المياه التي تجري هنا لا تزال على مجراها الطبيعي يوم بني هذا القصر، وأنه حتى الآن لم تعرف مصادر المياه، وأن المهندسين الأسبان يعترفون بالمهارة للمهندسين العرب القدامى الذين قاموا بجلب هذه المياه واستمرارها إلى اليوم، وهو أمر يدعو إلى الفخر والاعتزاز.. وبداخل الحديقة توجد أشجار البرتقال بوفرة، ووجدنا عشرات

السائحين يلتقطون الصور، ويستمتعون بجو حديقة القصر الساحرة ونسماتها العليلة.

ومن ثم ذهبنا لمشاهدة القنطرة المجاورة للمسجد الجامع، وهي كما يقال بناها الرومان، وقام بتحسينها وتجديد بنائها حكام الأندلس المسلمون..

وقمنا بعد ذلك بجولة سريعة في داخل قرطبة لمشاهدة الأحياء القديمة التي لا تزال محتفظة بالطابع الأندلسي ورؤية بعض المساجد التي حولت إلى كنائس، ولكم تذكرت بهذه المناسبة قول أبي البقاء الرندي حين بكى هذه المواطن، ورثى هذه الربوع بمرثيته الشهيرة التي كنا نحفظها قديماً:

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية
وأين شاطبة أم أين جيان

وأين قرطبة دار العلوم فكم
من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمص وما تحويه من نزه
فنهرها العذب فياض وملآن

قواعد كن أركان العلوم فما
عسى البقاء إذا لم تبق أركان

يا رب طفل وأم حيل بينهما
كما تفرق أرواح وأبدان

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة
والعين باكية والقلب حيران

... إلخ.. أما مدينة الزهراء ذات المجد والصيت الواسع التي قام بإنشائها الخليفة عبدالرحمن الناصر فقد محيت ولم يبق لها إلا بعض أطلال دراسة. وقد كنا نقرأ عنها في التاريخ أنها من أروع المدن وأزهاها، وأنه أنفقت الأموال في تشييدها، واستمر بناؤها ما يقارب من أربعين عاماً ونيفاً، وأنه جلب لها من الأثاث وأدوات الزينة ما يبهر العقل.

وسمعت وأنا في قرطبة أن هناك حفريات للبحث عن آثار هذه المدينة ومعالمها التي ابتلعها الدهر وغمرها النسيان. ومما قاله: ابن زيدون يشيد بالزهراء:

خليلي لا فطر يسر ولا أضحى
فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحى

لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل
أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا

معاهد لذات وأوطان صبوة
أجلت المعاني في الأماني بها قدحا

ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح
تقضت معانيها مدامعه نزحا

مقاصير ملك أشرقت جنباتها
فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا

يمثل قرطيها لها الوهم جهرة
فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحا

محل ارتياح يذكر الخلد طيبه
إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحي

هناك الحمام الزرق تندى حفافها
ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا

تعوضت من شدو القيان خلالها
صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا

ولقد رثى الشيخ محيي الدين بن عربي الزهراء بأبيات قيل: إنه قرأها على بعض جدران الزهراء بعد خرابها وهي:

ديار بأكناف الملاعب تلمع
وما أن بها من ساكن وهي بلقع

ينوح عليها الطير من كل جانب
فيصمت أحياناً وحيناً يرجع

فخاطبت منها طائراً متغرداً
له شجن في القلب وهو مروع

فقلت على ماذا تنوح وتشتكي
فقالت على دهر مضى ليس يرجع

وفي المساء ذهبنا لزيارة بعض الحدائق والمنتزهات الحديثة، ورؤية ما تبقى من السور العظيم لقرطبة، والتجوال في أهم شوارعها الرئيسية الكبرى ومتاجرها الفخمة وميادينها الأنيقة، وسمعت من بعض الإخوان العرب الذين التقيت بهم في قرطبة أنه توجد شوارع صغيرة الحجم تحمل أسماء إسلامية.

وبعد انتهاء زيارتنا لقرطبة قلب الأندلس، والتي قيل قديماً في وصفها: «قرارة أولي الفضل والتقى.. ووطن أولي العلم والنهى..

وقلب الإقليم، وينبوع متفجر العلوم..وبستان وقبة الإسلام..وحضرة الأيام.. ودار صـواب العقول.. وبستان ثمر الخواطر..وبحر درر القرائح.. ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام البصر.. وفرسان النظم.. والـنـثر.. وبـهـا أنشئت التألقات الرائعة وصنفت التصنيفات الفائقة..» إلخ.

وودعناها بعد أن أمضينا في ربوعها وقتاً حافلاً بالمتعة الفكرية والعلمية ومليئاً بالفائدة التاريخية.

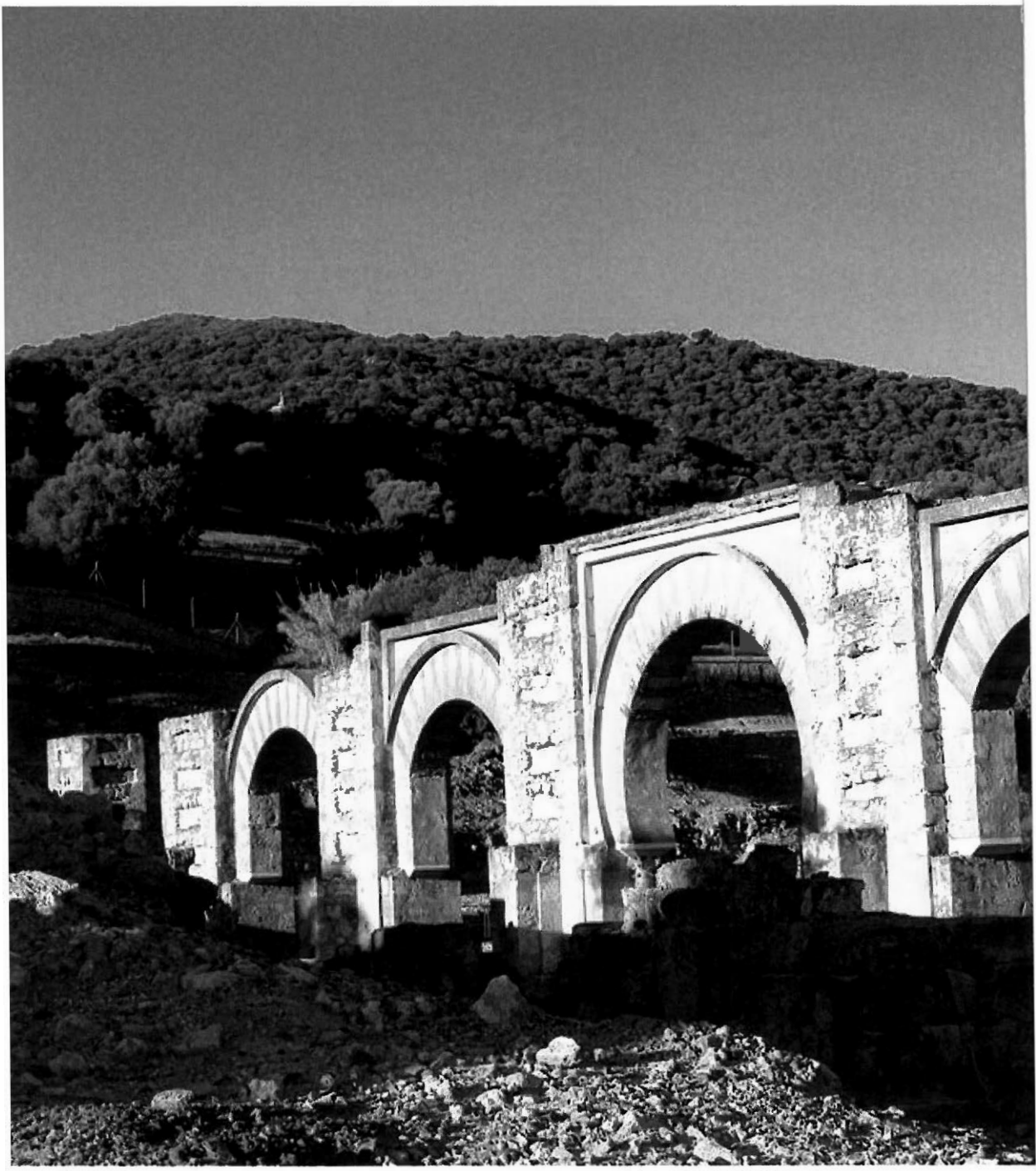

في النمسا

في صباح يوم ندي من يوم ١٤٠٦/١٢/٣هـ مضينا إلى سيارتنا حيث انطلقت بنا نحو الحدود الإيطالية- النمساوية، ولم نقف سوى بضع دقائق، ثم دخلنا النمسا.

ومضى الخيال يمتد في هذا البساط الأخضر والشجر والغابات والعمران، ومررنا بعدة قرى وأرياف توحي بالشعر والجمال والخيال وتاريخ الإمبراطورية النمساوية التي كان بها ذكر وشأن وتاريخ..

والنمسا اليوم ذات مساحة صغيرة، إذ تقدر مساحتها بـ ٣٢٣٧٥ ميلاً مربعاً، وسكانها ثمانية ملايين نسمة، وعاصمتها فيينا، وبها أكبر تجمع سكاني، ولغتها الألمانية.

ولقد أصبحت في العصر الحاضر مقصداً للسياحة حيث جذبت إليها

أعداداً كبيرة من السائحين الذين يتوافدون عليها تشدهم إليها مناظرها الجميلة ومعالمها السياحية وجبالها الشاهقة؛ نظراً لوقوع الجزء الأكبر من النمسا في منطقة جبال الألب الشرقية، ولذا تعتبر واحدة من أكبر بلاد أوروبا ذات الطبيعة الجبلية، إذ تمتد جبال الألب النمساوية عبر البلاد من الغرب إلى الشرق في أكثر من سلسلة.

ولقد كنا نرنو إلى تلك الجبال الرائعة البديعة المكسوة بالخضرة والفتنة والجمال، وكنا محظوظين كثيراً كما قالوا لنا حيث كانت الشمس مشرقة وساطعة..

وبعد سير استمر أكثر من ثلاث ساعات حيث كنا نشاهد الجبال والبحيرات والغابات توقفنا في إحدى القرى بعد أن قطعنا

مسافة كبيرة في داخل البلاد، وبعد استراحة نصف ساعة شددنا الرحال نعبر الدروب ونمر بالقرى والبلدان، ولا يكاد المرء يفرق بين قرية وأخرى، وكنا نشاهد أصنافاً شتى من معالم الحياة ومظاهرها، وبعد أن قطعنا خمس ساعات لاحت لنا العاصمة فيينا..

وهي مدينة جميلة تجمع بين القديم والحديث، وتحتفظ بالكثير من الخصائص العالمية، ولها تاريخ حافل طويل في التراث والأدب والمسرح والموسيقى وغير ذلك من الفنون..

ولقد أسست أول جامعة بها عام ١٣٦٥م، ويقول المرشد السياحي: إنها أقدم جامعة في البلاد التي تتكلم الألمانية، وإن هناك مدارس ذات تاريخ عريق وقد أسست في عام ١١٥٥م وما زالت قائمة في فينا حتى اليوم.

إن وضع النمسا الجغرافي المتميز جعل منها أرض التقاء بين أوروبا الغربية والشرقية كما أن حدودها البرية ممتدة مع سبعة أقطار مما يدل على أهمية مركزها ووضعها الجغرافي في قلب أوروبا.. لقد استمتعنا خلال سيرنا الطويل بمشاهدة نهر الدانوب الذي يجري على مسافات طويلة وله روافد شتى..

وعند وصولنا العاصمة نزلنا في فندق «بارك أوتيل» وسط المدينة، وهو فندق ضخم واسع كان في السابق قصراً لضيافة الإمبراطورية.

ولقد كنت في حاجة إلى الراحة والنوم ولكني لم أستطع الخلود إلى الراحة والنوم، لأنني لم أستطع أن أقاوم الرغبة في استجلاء

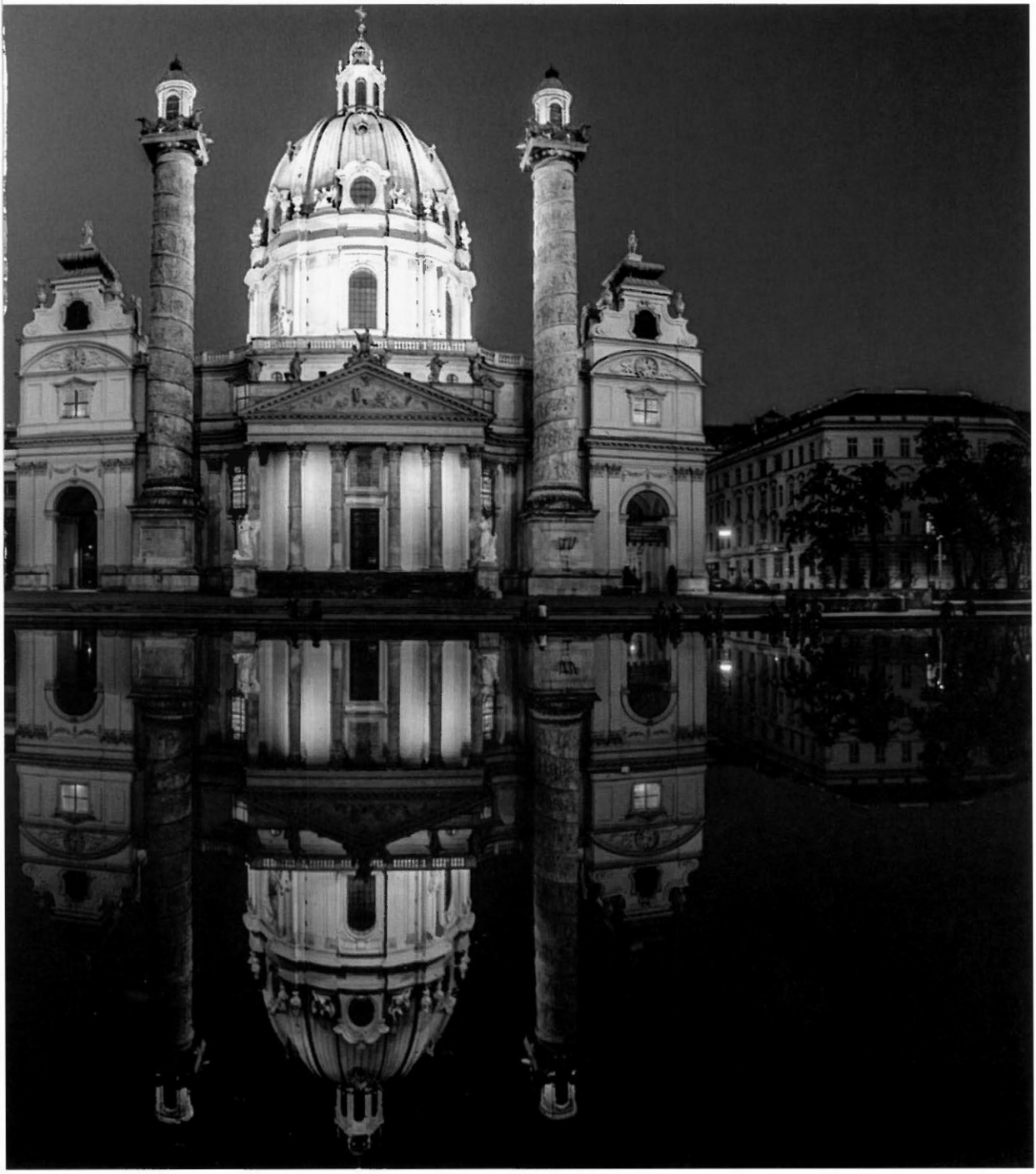

معالم المدينة وشوارعها وميادينها التي يبدو عليها الثراء والتنظيم، كما أن المحلات التجارية مليئة بالسلع والكماليات ولكنها غالية.. ثم عدت إلى الفندق حيث أخلدت للراحة والنوم..

وفي الصباح ذهبنا في جولة سياحية مع عدد من السواح نتجول في العاصمة ومشاهدة معالم التطور بها وزيارة متحف الفنون الجميلة ومتحف التاريخ الطبيعي.. وقصر البرلمان ومسرح برج جامعة فيينا.. وقصر شونبرون الداخلي وهو قصر رائع جميل وقد كان المقر الصيفي لإمبراطور النمسا، كما قمنا بزيارة لقصر بلفيدر، وهو يعتبر تحفة فنية رائعة يمتاز بالزخرفة الدقيقة، ثم عدنا إلى الفندق لتناول طعام الغداء والاستراحة..

وفي المساء قمنا بجولة على حدائق فيينا الجميلة، ثم تناولنا طعام العشاء في أحد المطاعم النمساوية التقليدية للتعرف على الأطعمة النمساوية والأكلات الشعبية.. والفنون التقليدية.

وفي صباح الغد توجهنا لبعض الضواحي وغابات فيينا والاستمتاع بمشاهدة بحيرة

«سيجرون» ذات المياه النقية الصافية الواقعة تحت سطح الأرض، والقيام بجولة بالقارب في تلك البحيرة، ومشاهدة المناظر الجميلة التي امتدت ملء البصر في لوحة جميلة..

كان منظراً أخاذاً جميلاً، ثم عدت أدراجي إلى المدينة متأملاً مناظر الطبيعة والجمال والأشجار التي نسقت على اليمين والشمال حتى وصلنا العاصمة، وعدنا إلى الفندق بعد نزهة يوم جميل، وذلك للاستعداد لرحلة إلى مدينة «سالزبرج».

وأمضينا سحابة النهار في سير متواصل وتوقفنا أكثر من مرة عند الاستراحات التي تزخر بالناس، وتمتلئ بالرواد من شتى الأجناس وبها المطاعم والفنادق ومخازن لبيع ما يحتاج إليه.

ومررنا بعشرات القرى وقد كان سيرنا بمحاذاة نهر الدانوب الأزرق الجميل، وكنا نشاهد الجبال الشامخة المكسوة بالخضرة، وكذا القلاع الأثرية حتى وصلنا إلى المدينة الساعة الرابعة عصراً، وتوجهنا صوب فندق «أورسبيرج» وهو قصر حُوِّل إلى فندق حيث يحتفظ بالفن والأصالة والتقاليد النمساوية العريقة، وذهبنا بعد ذلك لزيارة المدينة والاطلاع على أهم معالمها التي أمكن رؤيتها، وتمتاز بيوتها بدقة الزخرفة والفن.

وقمنا بزيارة لقلعة المدينة التي يعود تاريخها إلى القرن الحادي عشر الميلادي، وشاهدنا المنزل الذي ولد فيه الموسيقي الشهير «موزارت»، كما قمنا بجولة إلى المدينة القديمة ومشاهدة قديمها وحديثها وقصورها وميادينها ونوافيرها التي تتدفق بالمياه في منظر رائع

خلاب.. وبعد جولة استمتعنا خلالها بالمشي على الأقدام في طرقات المدينة الضيقة والتي توحي للزائر أنه يعيش في القرون القديمة قلت لصحبي: فلنخرج سريعاً من جوف هذه الأحياء المخيفة.

ولنتركها لهؤلاء السياح المولعين بحب كل قديم حتى لو كان في قمة جبال الألب، وعدنا للفندق ولم يكن بد من النوم، وفعلاً أمضينا ليلة هادئة مطمئنة حتى صحوت من الفجر وكنت أرقبه من النافذة لمشاهدة مولد يوم جديد رائع وقد تنفس الصبح فيه وأشرقت الشمس..

وودعنا هذه المدينة وقد ارتفعت شمس الضحى، وسلكنا طريقاً جميلاً تشدك إليه مناظر البحيرات والخضرة الممتدة والغابات السامقة ومشاهدة المناطق الزراعية بين جبال الألب وسهول النمسا الواسعة والأراضي المحروثة للزراعة والبساتين والكروم وبيوت الفلاحين ذات الخشب، فهم يستخدمون الخشب كمادة تقليدية في المباني لكثرة الغابات، ثم وصلنا إلى الحدود النمساوية الألمانية، وكانت المعاملة في منتهى السرعة واللطف وواصلنا السير حتى وصلنا إلى مدينة «قوقن» الألمانية.. مردداً قول الشاعر:

نزلنا هاهنا ثم ارتحلنا
فدنيانا نزول وارتحال

فالحياة هكذا شأنها لقاء ففراق، وفراق فلقاء، وسبحان من له الدوام!.

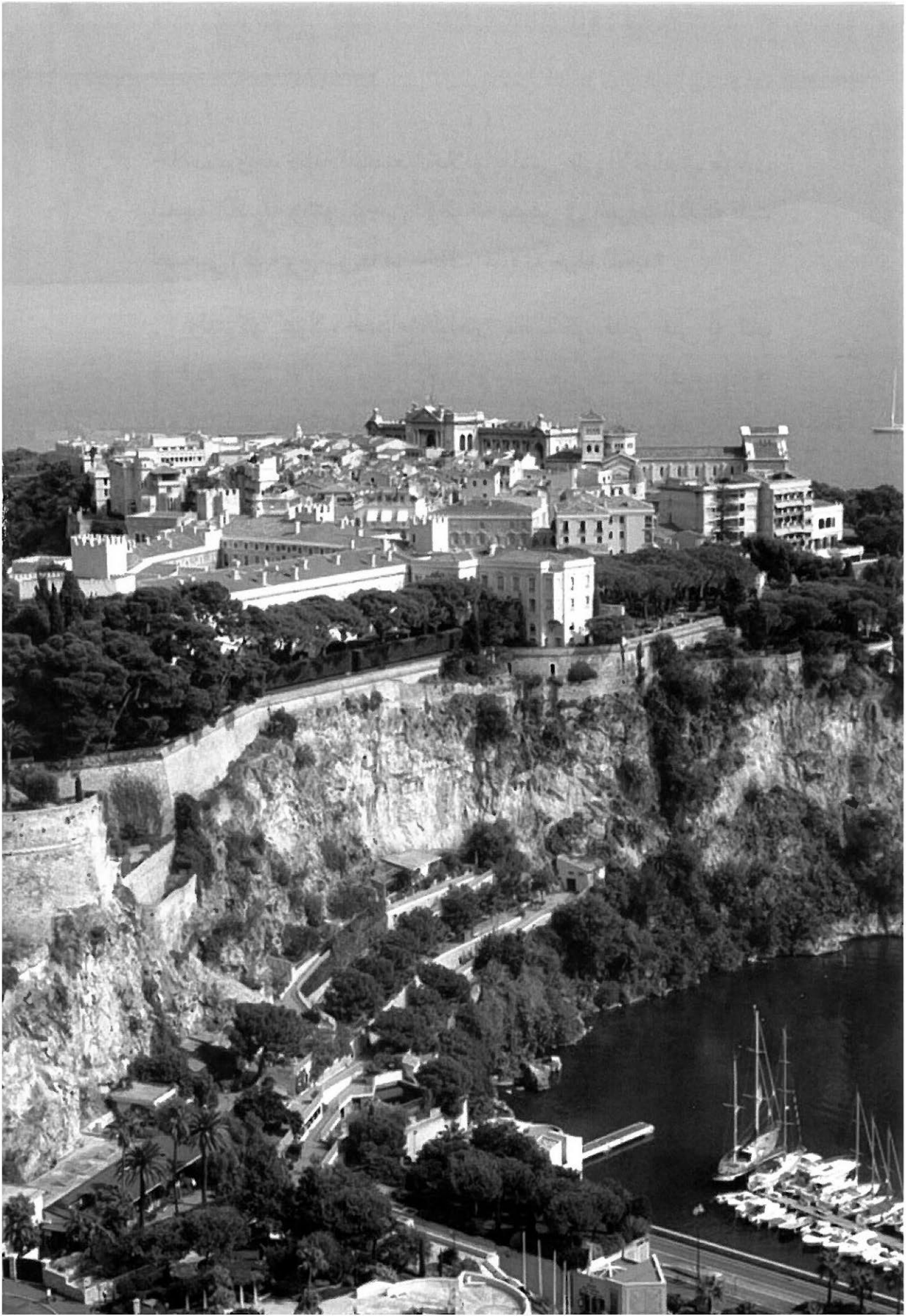

في موناكو

في الساعة السادسة من صباح يوم ١٤٠٦/١٢/٧هـ، غادرنا برشلونة متوجهين لزيارة الجنوب الفرنسي بواسطة السيارة، وفي الساعة الثالثة ظهراً كان الوصول إلى كان ثم إلى نيس..

نيس بها حسن المناظر والرؤى

وبها الشواطئ مرتع السواح

وفي اليوم التالي غادرنا نيس متوجهين إلى موناكو.. وخلال الطريق السريع بين الجبال الشاهقة قمنا بزيارة «اير» التي تقع على منطقة صخرية مرتفعة وبها قلعة أثرية

وسوق شعبي صغير، ثم واصلنا السير إلى موناكو وهي إمارة صغيرة تقع بين نيس ومانتون على ساحل جبال الألب وكان الخط الموصل بين نيس وموناكو أخاذاً جميلاً رغم ما فيه من انحناءات وصعود وهبوط وهي في حجمها وفي عدد سكانها صغيرة.

ووصلنا «مونت كارلو».. وهي مدينة تموج حركة ونشاطاً وسكانها قرابة ثلاثين ألفاً حسبما أحاطنا به علماً الدليل السياحي وتستند

شهرتها على ما لها من قوة جذب سياحية، حيث تنظم بها السباقات الدولية والمباريات الرياضية والمتحف الموجود بها وحديقتها الجميلة والنادي الشهير والأنشطة الاقتصادية المتنوعة، وهي مقر لمجموعة من الشركات الكبرى.

ولقد ركزت على الاهتمام بالسياحة واجتذاب أعداد كبيرة من السواح، وأصبحت عنواناً للحياة الاجتماعية الراقية.. ولرجال المال

الذين تمتلئ بهم.. واللغة الرسمية هي الفرنسية.

ونظراً لضيق رقعتها.. فقد عملوا على إصلاح الأراضي المأخوذة من البحر بعد ردمها وإصلاحها مما زاد مساحتها.

وبعد جولة استطلاعية في أهم معالم المدينة التي أمكن رؤيتها ومشاهدة التلال والسهول والجبال والغابات التي تلوح شامخة غادرناها عائدين إلى نيس عن طريق الكورنيش الساحلي الجميل ومشاهدة مدينة نيس ومصايفها الجميلة وتلالها المكسوة بالنباتات المختلفة والألوان التي تمتلئ بالمصطافين من جميع أنحاء العالم.. ومن مختلف أرجاء البلدان.

وقمنا بزيارة مدينة «كان» التي تمتاز بنشاطها البديع ومبانيها الجميلة في سفوح التلال وفي أعاليها وهوائها البارد وزهورها الجميلة مما يذكر بقول القائل:

فهنا الزهور موائل وعواطف
ومناظر ومفاتن للرائي

كما قمنا بزيارة لقرية «سان بول» ومررنا خلال طرقات جبلية ضيقة بمجموعة من القرى والمصايف، كما زرنا مصنع «كاندي» وتجولنا في أنحاء المصنع..

ثم قمنا بجولة في مصنع العطور في جوردن وجراس، ومشاهدة كيفية تحضير العطور وتعبئتها، والأدوار التي تمر بها، واشترينا مجموعة

من الهدايا من إنتاج هذا المصنع، واندفع الكثير من الإخوة في شراء عطور هذا المصنع بحجة أنها جيدة ورخيصة، ثم تبين لنا بعد ذلك أنها غالية الثمن.

ووقعنا في مثل ذلك في مصنع الساعات في سويسرا وتبين أنها في بلادنا أرخص بكثير مما اشتريناه، وكثيراً ما يندفع المرء وينسى تجاربه

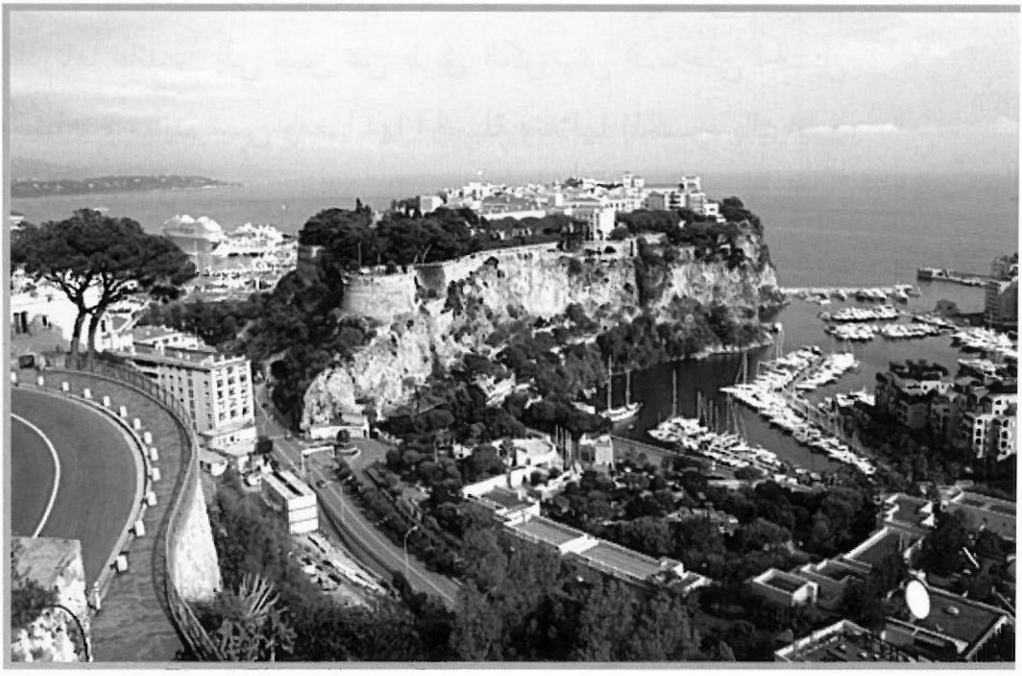

السابقة.. كما قال الشاعر:

وقد يخطئ الرأي امرؤ وهو حازم
كما اختل في نظم القريض عبيد

وفي نيس قمنا بزيارة إلى (كاجن سبرميل) المعروفة والشهيرة بسباق الخيل، وأمضينا وقتاً في التجوال والتعرف على معالمها رغم

غزارة المطر، وإن كان الناس في هذه الديار قد اعتادوا هطول المطر في كثير من أيام السنة، ولذا نراهم غادين رائحين ويمارسون هواياتهم.. غير متأثرين بهطول الأمطار أو جريان السيول في الحدائق والشوارع والأسواق ثم عدنا بعد ذلك صوب «نيس».

وكان مقامنا في فندق «بلازا» في قلب المدينة وقريباً من شواطئ الريفيرا الفرنسية، وبعد أن أمضينا وقتاً في تلك الربوع وزيارة أهم المعالم التي أمكن رؤيتها وكذا المركز الإسلامي وهو المعلم والمنار في تلك الربوع إذ عليه مسؤولية مهمة الإشعاع الإسلامي ونشر رسالة الإسلام في هذه البلاد التي هي على درجة من الحضارة ولكنها مليئة بالسيئات والانحطاط الأخلاقي.. ثم غادرناها مردداً قول القائل:

ما آب من سفر إلا وأرقه
شوق إلى سفر بالبين يجمعه
كأنه وهو في حل ومرتحل
موكل بقضاء الله يذرعه

في هولندا

وفي وقت مبكر من صباح يوم الثلاثاء ١٧/١١/١٤٠٦هـ ما بين طلوع الفجر وشروق الشمس ركبنا السيارة متوجهين بطريق البر إلى هولندا.. وقد كانت السماء ملبدة بالغيوم والمطر ورغم أننا في شهر يوليو.. وفي جو جميل ندي كان السير في الطريق ممتعاً وجذاباً.. فرغم مئات الأميال التي قطعناها في ألمانيا لم نشعر بالتعب ووصلنا الحدود الألمانية الهولندية.

وقد كنت أستعرض في ذاكرتي هذه الأرض وتاريخها وما تعرضت له من دمار في الحرب العالمية، وما نشأ من حروب ين هولندا وألمانيا.. واحتلال ألمانيا لبلادهم.. ودخلنا هولندا ولم يستغرق وقوفنا في الحدود سوى بضع دقائق حيث كانت المعاملة في منتهى السهولة.. ثم توقفنا في إحدى القرى الهولندية للراحة واستبدال النقود..

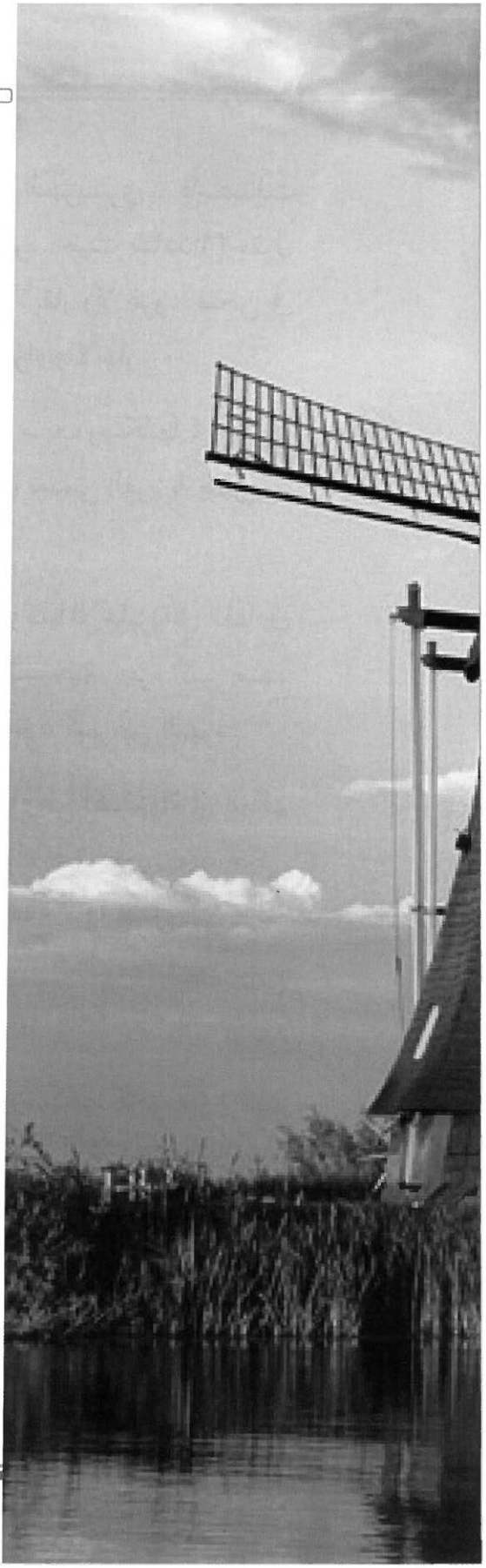

حيث كان معنا المارك الألماني والفرنك السويسري.. فاستبدلت بهما «القولدر الهولندي» ثم واصلنا السير.. حيث شاهدنا الحقول الغناء والمزارع الخضراء الفسيحة المليئة بالأبقار ولا غرو.. فنحن في بلد الأبقار والأجبان والزهور وطواحين الهواء والأنهار.

وتبلغ مساحة هولندا (١٥٧٠٠) ميل مربع، وسكانها ١٤ مليون نسمة، ولغتها الهولندية.. وهناك لغة أخرى تسمى الفريزية ينطق بها أهل الشمال..

كما أن اللغة الألمانية يجيدها عدد كبير وكذا الإنجليزية في الفنادق والمطاعم والمتاجر، وبالطبع فالديانة هي المسيحية، جزء كبير منهم بروستانت، وآخرون كاثوليك، ويوجد بها عدد كبير من اليهود.

وهولندا تقع في الشمال الغربي لأوروبا وهي أكبر دولة في العالم لتصدير الزهور.. ولذا كنا نشاهدها في الحقول والبساتين.. وقد حكى لنا المرشد السياحي أن عدد الزهور التي تباع فيها تصل إلى أكثر من خمسة عشر مليوناً، وتصدر لمختلف أنحاء العالم، وتنتجها مزارع متخصصة لهذا النوع.

وشاهدنا طواحين الحبوب وعصرها، ويهتمون بها كجزء من تراثهم وهي تعتمد في حركتها على قوة التيارات الهوائية.. حقاً إن الريف الهولندي هو بمثابة حديقة غناء.. حيث الزهور المتنوعة والألوان، وتتفتح هذه الزهور وتزدان في بيوت محمية وفي مركز الزهور الذي تباع فيه بشتى ألوانها المختلفة.. ويبدأ موسم الزهور لديهم في فبراير، وينتهي في سبتمبر من كل عام.

كما أن عدد الأبقار بها تصل إلى ٦ ملايين بقرة ويصل الإنتاج إلى ثلاثة عشر مليون طن من الحليب والزبد والجبن.. فتربية الماشية هي النشاط الزراعي الرئيسي.. ولذا حرصوا على زيادة رقعة بلادهم من المياه المحيطة بهم واكتساب الأرض من البحر واستصلاح أول سهل من قاع البحر عام ١١٥٠م بواسطة حواجز أقيمت للإحاطة بمساحة من الماء ومن ثم تجفيفها، ومنذ ذلك الحين وهولندا في توسع مستمر.

وبعد فترة من السير الطويل وسط الريف الخلاب لم يخالطنا فيها السأم والملل لاحت لنا العاصمة «أمستردام» حافلة بالمناظر الجميلة ومواكب الدراجات والسيارات والقطارات تملأ الشوارع والميادين، وكان دخولنا المدينة ظهراً حيث صادف انصراف العاملين من مكاتبهم ومصانعهم ومتاجرهم، ويشاهد المرء ما لا يحصى أفواجاً من البشر، وشاهدنا البحيرات والجداول المائية وسط المدينة.. ولذا

كانوا يسمونها مدينة الماس وبندقية الشمال، ووصلنا الفندق وهو يقع في قلب المدينة التي تجمع بين القديم والحديث..

وفي فندق «نوفوت» كان مقامنا، فأخذنا قسطاً من الراحة، وخرجنا بعد ذلك إلى المدينة نتعرف على معالمها ونتمشى في طرقاتها، ونشاهد المنتزهات والحدائق والجداول المائية، ومن الصدف أن نلتقي بشاب عربي عرفت أنه جزائري من لهجته، وحددت له البلدة التي ينتمي إليها من لهجته، فقال: وما يدريك؟ فقلت له: عشت في بلادكم عامين مدرساً، وأتقنت لهجة أهل وهران حتى كانت الإخوة في العاصمة عندما أذهب إليهم يسألونني عنها وكأني واحد من أبنائها، ثم عرفنا بنفسه وقال: لقد سبق أن درست في المملكة في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وجئت إلى هنا للدراسات العليا. ومضينا معه يعرفنا بالمدينة ويشرح لنا أسماء الشوارع والميادين ويعرفنا بالعادات والتقاليد، وكنت متابعاً لحديثه فكنت أسأله عن بعض ما يصادفنا من مبان شاهقة ويشرح لنا أن هذا المبنى مكتبة وذاك كلية وهذا مستشفى الخ..

وسألته عن هولندا وتاريخها والهجرات التاريخية لها وسكانها وكان المطر يتساقط رذاذاً ولا غرو فالمطر كما أفاد الأخ يسقط طوال العام، وقال: إن الجو الجميل لا يتجاوز شهرين، وما عدا ذلك فالشتاء بارد جداً وتتساقط الثلوج وتتجمد هذه القنوات المائية التي نشاهدها الآن كما تهب العواصف الشديدة.. فقلت: الحمد لله على مناخ بلادنا، وما تمتاز به من دفء وجو جميل. ثم قمنا بجولة في المدينة القديمة.

وفي المساء قمنا برحلة نهرية في قناة أمستردام وهي فرع من فروع نهر الراين للنزهة والاستجمام ومشاهدة العاصمة ومعالمها، ثم امتد بنا السير بعد ذلك في قنواتها، وكان قائد الباخرة يشرح لنا ذكريات التاريخ في هولندا إذ التقاليد في هولندا تحتل مكاناً رفيعاً وهي أساس الفنون الشعبية وطريقة الحياة بصفة خاصة غنية بالتقاليد وما زالت

تزاول بنشاط كالحرف القديمة والأسواق الشعبية، والتي يأتي السواح لمشاهدتها والمباني التاريخية وبها أكبر مزاد للزهور في العالم.

وفي اليوم التالي ذهبنا إلى روتردام من أكبر المرافئ البحرية في أوروبا، وكنا نشاهد المزارع والسدود التي تجسد نشاط الهولنديين ضد البحر الذي يحيط بهم ومشاهدة الحقول والضواحي والسهول والغابات الشاسعة من أشجار الصنوبر.

وفي الميناء شاهدنا السفن والمراكب وصيادي الأسماك فهو يكتظ بالسواح من شتى الأمم، ورأينا المحلات التجارية التي تمتلئ بالتحف والصناعات التقليدية ومصانع منتجات الألبان والأسماك المجمدة ولقد حكى لنا المرشد أن هذا الميناء الضخم قد دمر في زمن الحرب العالمية الثانية وأعيد بناؤه.

وفي هذه البلدة شاهدنا المنسوجات والسلع الجلدية، وقمنا بزيارة لمصنع من مصانع الأجبان، وكذا قاطعي الأحذية من الأخشاب، وجلسنا بعد رحلة طويلة نلتمس الراحة في أحد المقاهي وإن كانت كل الأماكن مزدحمة بالناس وهم من شتى بلدان العالم.

وبعد استراحة وقضاء وقت ممتع ودعنا هذا المكان المزدحم بالحركة والسياحة والنشاط والحياة والبحر بمنظره الرائع، ثم قمنا بجولة على بعض الأرياف الخضراء ذات النظام والنسق الرائع البديع، وشاهدنا أنهاراً من الماء، ولم نزل نعيش في تلك الأجواء المفعمة بالسحر والجمال حتى وصلنا في المساء إلى العاصمة أمستردام حيث عدنا إلى الفندق وأخلدنا للراحة والنوم.

وفي الفندق التقيت بشاب بدا لي من ملامحه أنه عربي، وكان يلبس الملابس الهولندية التقليدية حيث يقف على باب

الفندق، فكانت التحية بيننا حيث عرفني بنفسه إذ هو عربي من مصر، وأنه مقيم في هذه البلاد منذ خمس سنوات، ويجيد اللغة الهولندية فسألته هل يوجد جالية عربية إسلامية، وهل هناك مركز إسلامي ومسجد لأداء الصلوات، فقال: نعم، توجد جالية إسلامية ولهم مركز

إسلامي ويؤدون الصلاة فيه وأغلبهم من أبناء المغرب العربي وتركيا، ولكن إمكانياتهم ضئيلة فكلهم من العاملين هنا في الفنادق والمطاعم فقلت: نسأل الله لهم القوة والمزيد من التوفيق والإخلاص للعمل الإسلامي لتكون لهم نتيجة مثمرة في التعريف بالإسلام والدعوة إليه في هذه البلاد.

مدينة هولندا الأرستقراطية:

وقمنا بعد ذلك بزيارة لمجموعة من المدن والقرى الهولندية كفولندام العاصمة وأم القرى الهولندية كما يقولون وزيارة قاطعي الماس، وبعض المتاحف والمكتبات، ومدينة إيندهوفن عاصمة الصناعات الإلكترونية ومقر شركة فيلبس الشهيرة.

وفي هولندا معاهد وجامعات، ولعل أقدم جامعة بها هي جامعة ليدن الشهيرة التي تأسست عام ١٥٧٥م وتعتبر مدينة ليدن من أهم مراكز الاستشراق في أوروبا وبها أقدم مطبعة عربية «بريل» طبعت الكثير من مؤلفات المستشرقين وكذا لاهاي مقر محكمة العدل الدولية.. ويطلقون عليها اليوم مدينة هولندا الأرستقراطية وهي مقر الحكومة وقد اختارتها الملكة مقراً لإقامتها.

وهكذا فإن لهولندا دوراً تجارياً كبير الأهمية في العصور الماضية كما أنها ذات تقاليد عريقة في صناعة السفن والأساطيل البحرية، كما أن أمستردام اليوم واحدة من المدن المالية ذات الأهمية التجارية.

وبعد زيارة لهذه البلاد التي تتألق بالزهور والأماكن السياحية غادرناها بعد أن أمضينا في ربوعها أياماً حافلة لا تنسى.

وتوجهنا بعد ذلك إلى جهات أخرى في أوربا حيث غادرنا أمستردام في الصباح الباكر تحت وابل من المطر، وكنا نطوي الأرض في حافلة سياحية، ونتأمل بدائع الخالق العظيم في صباح يوم جديد

حيث المطر والسحاب والسهول الخضراء والحقول والجمال والزهور مد النظر، وتناثرت بين تلك المناظر القرى والمدن منشداً:

الأرض قد كسيت رداء أخضرا
والطل ينثر في رباها جوهرا

وقول الشاعر:

أما الرياض فقد بدت ألوانها
صاغت فنون حليها أفنانها

رقت معانيها ورق نسيمها
وبدت محاسنها وطاب زمانها

نظمت قلائد زهرها كجواهر
نظمت زمردها إلى عقيانها

تبكي عليها عين كل سحابة
ما إن تمل من البكا أجفانها

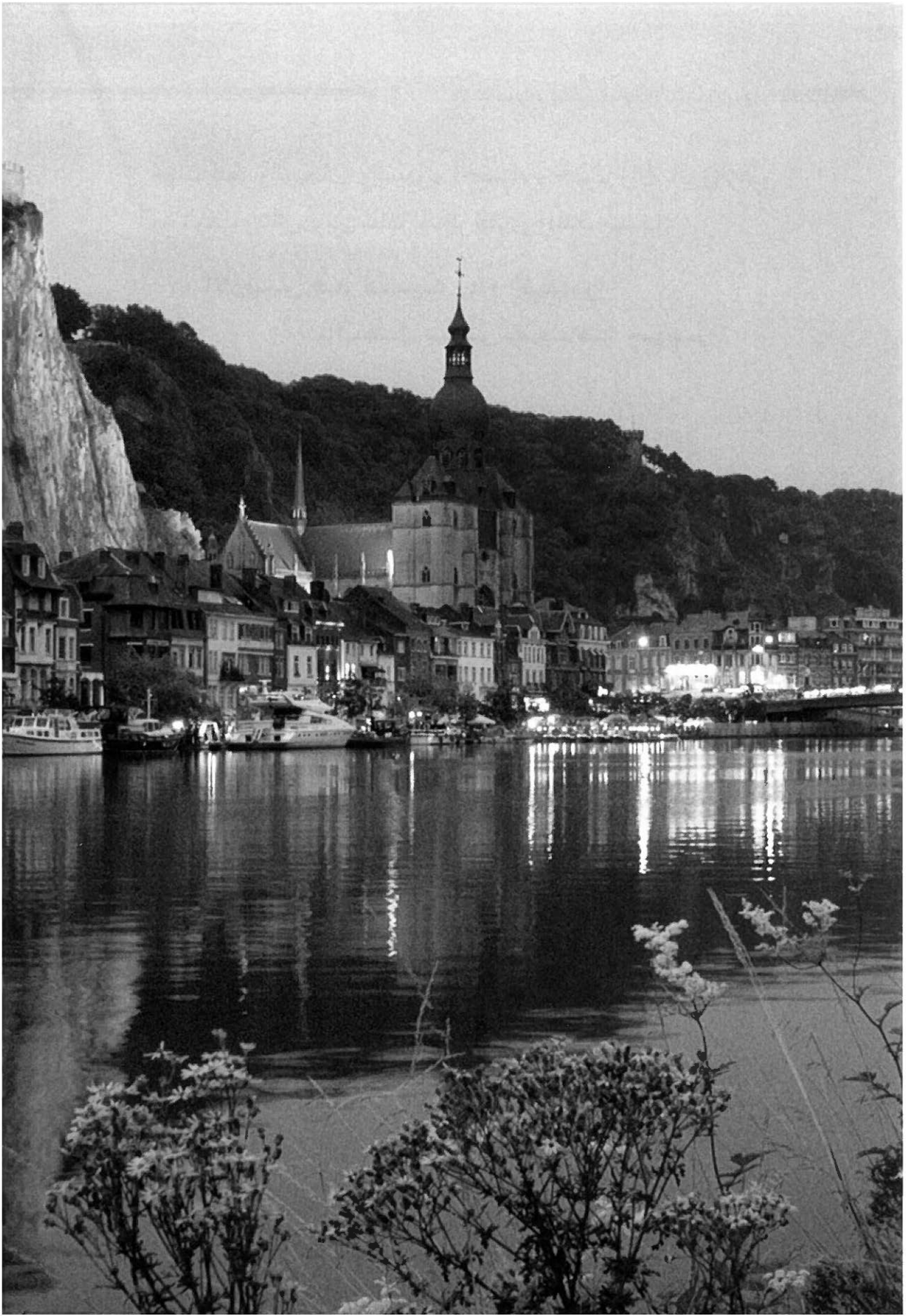

في بلجيكا

في صبيحة يوم الأربعاء الموافق ١٤٠٦/١١/٢١هـ غادرنا هولندا، وتوجهنا صوب بلجيكا في شمال غرب أوروبا بطريق السيارات.. وقد استغرقت الرحلة أكثر من ثلاث ساعات حتى وصلنا إلى الحدود البلجيكية الهولندية ولم تكن الرحلة شاقة أو متعبة.. حيث كان الجو بديعاً وممطراً وكانت الإجراءات سهلة..

فقد عبرنا من بوابة كان عليها أحد الموظفين وبعد أن اطلع على جوازاتنا لوح بيده للدخول، ودخلنا إلى بلجيكا، وكان الجو جميلاً والنسيم العليل مما ذكرني بقول القائل:

أتاني نسيم السد طيباً من الحمى
فذكرني نجداً وقطعني وجـــدا

وعلى طول الطريق يغطي أرضها بساط نضير.. كنا نشاهد حقول الكروم والبساتين وألوان الفواكه والخضار ومعظم أرضها منبسطة في بعض الأماكن.. تتحول الأرض إلى جبلية وغابات في الجنوب الشرقي فيما يسمى بمنطقة الأردين،

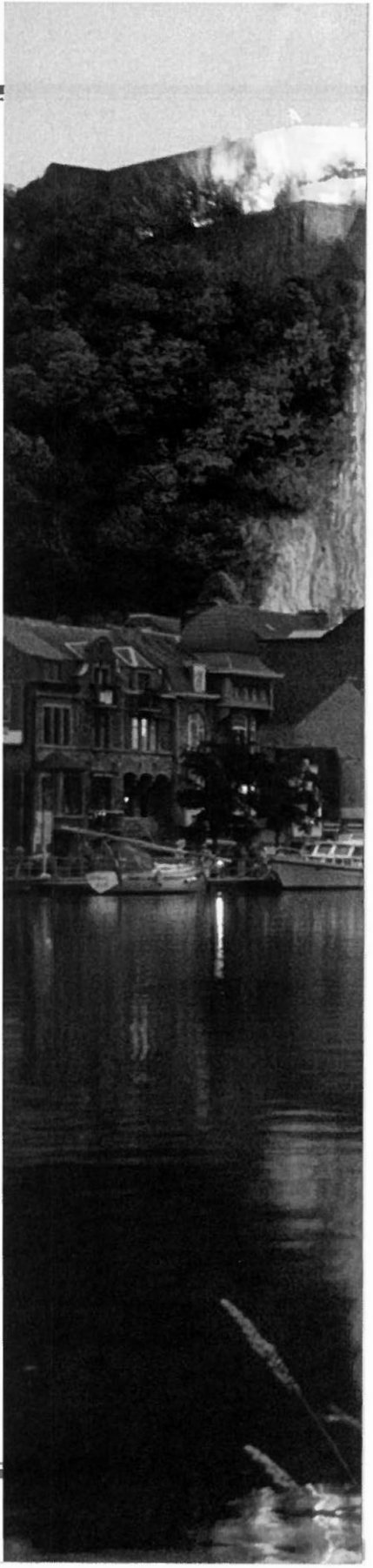

وتحدها فرنسا من الجنوب الغربي، ولوكسمبرج من الجنوب الشرقي، وألمانيا الغربية من الشرق وهولندا من الشمال.

أما اللغة فإن ٥٧٪ من السكان يتكلمون اللغة الهولندية، و٣٣٪ اللغة الفرنسية و٠١٪ اللغة الألمانية، و١٠٪ من السكان يتكلمون اللغتين الهولندية والفرنسية.

أما الديانة فإن ٧٥٪ هم من الروم الكاثوليك، و٢٥٪ من البروستانت.

اسم بلجيكا مشتق من اسم أول قبيلة سجلها التاريخ تقيم في هذا الموقع وهي قبيلة البلجاي وقد فتحها يوليوس قيصر.. وعاشت ١٨٠٠ عاماً في ظل حكم الغزاة من الرومان والإفرنج والأسبان والنمساويين والفرنسيين.

وبعد عام ١٨١٥م أصبحت بلجيكا جزءاً من هولندا، ولكنها تحولت إلى مملكة دستورية مستقلة عام ١٨٣٠م.

ويتكلم سكان شمال بلجيكا اللغة الهولندية، بينما الفرنسية هي لغة الجنوب، ويتحدث معظم السكان الإنجليزية حيث لم نجد صعوبة في التفاهم.. وتعيش بلجيكا على التجارة إذ إن حوالي ٥٠٪ من مجمل إنتاجها للخارج.

ومن أهم صناعاتها الصلب والزجاج والماس والمنسوجات والكيماويات والفحم والأخشاب.

ومضت بنا السيارة بين السهول والقرى والمزارع والتلال، وكنت أستمتع برؤية تلك المناظر وروعتها وأستجلي ذكريات التاريخ.. وتذكرت كتباً تاريخية كنت قد قرأتها عن هذه البلاد وتاريخها.. وكانت أشجار الفاكهة فواحة بأريج أزهارها، تياهة بطيب ثمارها.. وبينما نحن نعبر الأودية تذكرت قول الشاعر:

وادٍ أغَنُّ سرى النسيمُ بأرضه
مترقرقاً بندى النمير الصافي

تشدو العنادل فيه ألحان المنى
فتثير من شجن المشوق الغافي

وتفيض من نغماتها خطراته
فتشع بالبسمات والألطاف

ولاشك أن رؤى الربيع ومناظر الطبيعة التي مررنا بها والمروج الخضراء كانت جذابة وخلابة.. وكان الطريق مليئاً بحركة السيارات ولوحات الإرشاد بين الطرق، وتوقفنا قليلاً للراحة والاستجمام ولتزويد السيارة بالوقود، ثم واصلنا المسيرة، وكنا نشاهد الريف البلجيكي الجميل وبيوته التي ترمز إلى متانة البناء ودقة التصميم.. حيث يقع البعض منها على قمم عالية وذلك تجنباً لمخاطر السيول.

وبلغنا العاصمة بروكسل قبيل الثانية ظهراً وكانت تعج بالحركة والنشاط.. فالناس في جلبة دائبة، وذهبنا تواً إلى أحد الفنادق ويسمى أميجو، وبعد استراحة وتناول طعام الغداء مضينا في جولة إلى شوارع العاصمة وميادينها ومحلاتها وأسواقها.

ومدينة بروكسل تمثل القلب النابض للحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية لبلجيكا.. كما أنها تفخر باحتوائها على أجمل ميدان في العالم، وعدد كبير من المتاحف والأبنية الشاهقة، وبها مجمعات إدارية وتجارية ضخمة..

ويتخلل ذلك الحدائق الفسيحة التي يمكنك الاستراحة فيها من ضجيج وسط المدينة.. ويستمتع المرء فيها بالبهجة والجمال.

وعدد السكان حوالي مليون نسمة.. ومن أهم المعالم السياحية التي تسنى لنا زيارتها: الميدان الكبير وهو من أجمل الميادين في أوربا.. حافل بما يقر النواظر ويسر الخواطر، قصر الملك وبه متحف البلدية، وقصر العدالة وهو قصر ضخم تتجلى فيه الفنون المعمارية.

المركز الإسلامي في بروكسل:

لقد تكون المجلس الإسلامي في بلجيكا ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، وكان هدفه تأسيس مسجد جامع في بروكسل ومركز ثقافي إسلامي ومقبرة للمسلمين.

اعترفت الحكومة البلجيكية بالمجلس في ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، وتشكلت له لجنة تنفيذية ضمن بعض الأعضاء من السفراء المسلمين وأعضاء من الجالية المسلمة في بلجيكا.. أقيم المركز الإسلامي في الحديقة الخمسينية في قلب بروكسل وعلى قربة من مباني المقر العام للسوق الأوربية المشتركة.

استلم أرض المركز المغفور له الملك فيصل بن عبدالعزيز «رحمه الله» خلال زيارته لبلجيكا، وافتتحه المغفور له الملك خالد بن عبدالعزيز في ١٣٩٨هـ، وحضر الافتتاح الملك (بودان) ملك بلجيكا.

يتكون المركز من أربعة طوابق.. يشمل مدرسة وقاعة للاجتماعات والمناسبات الاجتماعية.. وقاعة للسيدات ومسجداً صغيراً.. وإدارة للدراسات الإسلامية.. ومختبراً لتعليم اللغات.. ومكتبة.

والمسجد يعد من أبدع المساجد الإسلامية في أوربا معماراً.. وبجوار مبنى المركز مبنى آخر أهداه ملك بلجيكا إلى جلالة الملك خالد ليكون متحفاً إسلامياً.. وتضم مدينة بروكسل (المجلس القاري للمساجد) وعدد المسلمين في بلجيكا (٢٠٠,٨٠٠) نسمة تقريباً..

كما قمنا بزيارة المتاحف الموجودة بها: مثل متحف الفن الكلاسيكي، ومتحف الفن الحديث، والمتحف الملكي للفنون والتاريخ، والمتحف الحربي وهناك متحف آخر لم نقم بزيارته وهو متحف الآلات الموسيقية.

وقد حدثني بعض الإخوة الذين التقيت بهم هناك عن هذا المتحف التاريخي والآلات القديمة الموجودة فيه منذ مئات السنين.

وقمنا بزيارة إلى واترلو وهي موقع على مسافة ١٨ كيلاً جنوب

بروكسل، وقد حدثنا الدليل السياحي عن هذا المكان حيث حدثت به موقعة واترلو الشهيرة التي كانت فيها نهاية نابليون بونابرت، وكانت في يونيو ١٨١٥م.

ثم توجهنا لزيارة مدينة أنتوريب: Antwerp ، وهي مدينة غنية ومليئة بالحياة ليس فقط بسبب مينائها أو صناعتها، ولكن أيضاً لاحتوائها على الكثير من الآنية والمتاحف التاريخية.

وسكان المدينة أنفسهم يحرصون على المحافظة على هذه الصورة لها.. والمدينة تعج بالحركة ليل نهار إذ بها صناعة الماس الفائقة الشهيرة، والبتروكيماويات ويجد السائح أيضاً الهدوء الكامل إذا أراد تأمل مبانيها الرائعة وأزقتها القديمة المتعرجة وفي مساحاتها الخضراء الهائلة.. وإن مدينة أنتفيرب ذات ماض عريق، وسكانها حوالي نصف مليون، وهي أكبر مدن بلجيكا، وترتبط بمجموعة من المدن الكبيرة بواسطة ٤ قطارات كل ساعة تصلها ببروكسل، وأكثر من ٢٠ قطاراً يومياً تربطها بمدن روتردام وأمستردام، وعشرة قطارات يومياً تربطها بباريس.

ومن المشاهد السياحية: الحدائق والمنتزهات والمتاحف..وكنيسة السيدة مريم (١٣٥٢م- ١٥٢١م) وقد بنيت على طراز الفن القوطي بأبهائها السبعة وأعمدتها الـ ١٢٥.

ومن أهم المتاحف المتحف الملكي للفنون الجميلة الذي يحتوي على أكثر من ١٠٠٠ لوحة زيتية لفنانين قدماء، وكذلك ١٥٠٠ لوحة أخرى لفنانين محدثين.. والمتحـف به أعظم مجموعة عالمية

من روائع الفنان روبين.

وهو أساساً قصر بني في القرن الثامن عشر تحيطه حدائق غناء.. ويمتلئ بالسواح من عشاق الآثار القديمة حيث يستمتعون برؤية البروسلين نادر.

وكان في السابق المقر الخاص والمرسم لفنان مدينة أنتفيرب، ويتميز بأثاثه الأثري والتحف الفنية التي تنتمي لعصر ذلك الفنان على حد قول المرشد السياحي.

ومن المتاحف الجميلة أيضاً متحف التماثيل المفتوح.. ومتحف الفن الشعبي..

ومن أهم المعالم الميناء، فهو إلى جانب أهميته الكبرى في التجارة الدولية مشهد سياحي جميل، ويمكن للسائح في رحلة بحرية قصيرة أو بالسيارة أن يلم سريعاً بنشاط المدينة الصناعي، وكذلك معامل تكرير البترول والمجمعات الكيميائية والبتروكيميائية ومصانع تجميع السيارات.. إلخ.. إلى جانب المناظر الطبيعية والمباهج الخلابة.

صناعة الماس:

منذ عدة قرون حتى الآن ومدينة أنتفيرب هي قلب تجارة الماس وصناعة تقطيعه.. ويمكن للسائح أن يرى بنفسه قطع الماس وهم يمارسون صناعتهم، وقد تسنى لنا دخول أحد المحلات المتخصصة، وشاهدناهم وهم يعملون في صناعتهم، وعرضوا علينا نماذج عديدة ولكن أسعارها كانت غالية ومرتفعة.

كما قمنا بزيارة إلى حديقة الحيوان بالمدينة، ولها شهرة عالمية، إنها واحة خضراء في قلب المدينة حيث بنيت فيها متاحف الحيوانات المائية وبيوت الزواحف وبيوت للحيوانات الليلية وغيرها.

ومما تجدر رؤيته بالنسبة للسائح الأسواق مثل سوق الطيور كل يوم أحد، وسوق الفن عصر السبت من كل أسبوع، وسوق الأثاث القديم صباح كل أربعاء وجمعة.

ومن معالم المدينة أيضاً مطاعمها الفاخرة والمعارض الدولية.. والمنتزهات الجميلة.. وهناك مدن أخرى مثل مدينة بويلون Bouillon.

وبعد جولة في تلك البلاد أخذنا طريقنا متوجهين إلى الأراضي الفرنسية، وهكذا تكون بين شد الرحال وحطها، وعلى حد تعبير قول القائل:

نـزلـنـا هـاهـنـا ثـم ارتحـلـنـا
فـدنـيـانـا نـــزول وارتحـــال

في اليونان

في فجر يـوم الجمعة الموافق ١٤١٣/٤/١٤هـ أقلعت بنا طائرة البوينج السعودية، وقد أعلن قائد الطائرة عن الأماكن التي سنطير فوقها

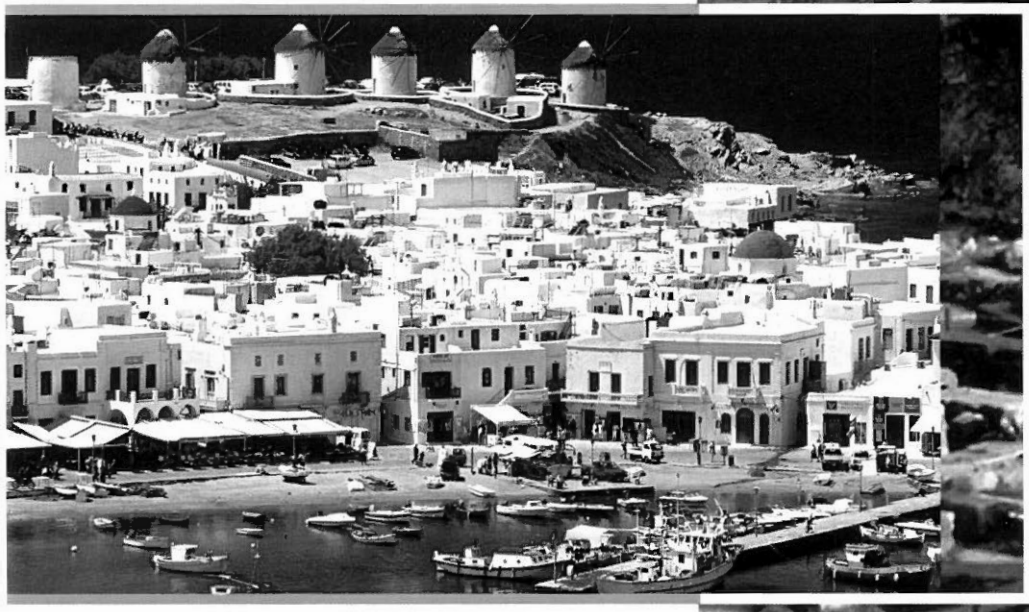

في طريقنا إلى اليونان، وأنه يمكننا أن نرى بعض تلك الأماكن وسنطير على ارتفاع ٣١ ألف قدم.

وخلال الطيران لمحنا الكثير من الوديان والرياض والمـزارع الخضراء والحقول الواسعة.

وبعد أن اجتزنا تلك المرابع وجاست الطائرة بين السحاب، ألقيت برأسي فوق مساندها الوثيرة وأرخيت أهدابي، ورحت أسترجع شريط الذاكرة وما وعته من تاريخ تلك الديار العريقة التي عرفناها عبر ترجمات العرب الأوائل.

ففي عصر ما قبل التاريخ انتشرت حضارة بلاد الإغريق، وخاصة حضارة كريت، وفي القرن الرابع عشر قبل الميلاد قضت ميكيني على كريت واحتلت مكانها، ومن ثم عرفت الحضارة في شبه جزيرة البلقان باسم الحضارة الميكينية.

وقد قرأنا أن الظروف الجغرافية في بلاد الإغريق قد فرضت ظهور تكتلات اقتصادية صغيرة، ودويلات إغريقية تطاحنت فيما بينها، وكان أهمها أثينا وأسبرطة، وإن كان هذا الانقسام، وهذه المنافسة، قد ساعدا على قيام الحضارة الإغريقية، وتقدمها، ونضوج التفكير بين الإغريق.

وتذكرت أن اليونان لم يعرف وحدته الكاملة إلا بعد أن فقد الإغريق حريتهم وخضعوا للرومان (١٤٦ ق. م).

اهتزت الطائرة هزة خفيفة أوقفت لدي شريط الذكريات، فنظرت من النافذة، فإذا البحر الأحمر وقد انبسط تحت جناحيها، فتأملته وغاصت عيناي في زرقته الداكنة، ومع تلاطم السحب مع تلك الزرقة الداكنة تناثرت في خيالي ذكريات الماضي المجيد حيث كانت الفتوحات الإسلامية والحملات البحرية قد وصلت إلى البحر الأبيض بقيادة الخليفة معاوية بن أبي سفيان.

ثم طاف بي الخيال نحو تطلع الإغريق إلى البحر لاستكمال ما كان يعز عليهم الحصول عليه في بلادهم، ولذلك ترك البحر في نفوسهم أثراً.

وشهدت القرون الثامن والسابع والسادس قبل الميلاد انتشار الإغريق في البحار وأنشؤوا على شواطئ البحر الأسود والبسفور وبحر مرمرة والدردنيل وتراقيا وصقلية وجنوب فرنسا وشمال أفريقيا، عدداً كبيراً من المستعمرات، كانت مدناً حرة لا تربطها عادة بأمهاتها إلا روابط الدين والحضارة.

وعبرت ثقافة الإغريق معه قوافلهم، فمدرسة بلاد الإغريق قد ازدهر فيها عدد كبير من أبرز الشعراء والكتاب، ومن منا لا يذكر أيسخولوس وسوفوكليس وبور بيدس دعائم الدراما الإغريقية التي نقلها إلى العربية طه حسين وصقر خفاجة وغيرهم، وعندما أخذت قوة أثينا تضمحل احتفظ بمجدها الأدبي كل من أرسطو وأديستوفان.

ففي العصر الهلنيستي، حيث كانت بلاد الإغريق نهباً للحروب والاضطرابات والفاقة، انتشرت الحضارة الإغريقية في ربوع الشرق والمغرب، بل كانت عواصم الممالك التي قامت على أنقاض الإمبراطورية المقدونية أهم مراكز لحضارة الإغريقية، وكانت الإسكندرية بمكتباتها الشهيرة في طليعة هذه المراكز، ومع أن الرومان قضوا على حرية الإغريق إلا أنهم أقبلوا على اقتباس حضارتهم والاغتراف من مناهلها.

وخلال استعراضي لتلك الذكريات أيقظني صوت المضيفة وهي تعلن اقترابنا من مطار أثينا، فعاودت النظر من النافذة علني أتثبت مما قرأت عن جغرافية اليونان، فهي تحتل الجزء الجنوبي من البلقان، والجزر الواقعة في بحر إيجة والبحر الأيوبي.

وبرزخ كورنتوس يشطر اليونان إلى قسمين:

القسم الجنوبي: هو البلويونيز (الموره) وأكبر مراكزه مدينة باتراس، **والقسم الشمالي**: أكثر ثراءً وازدحاماً بالسكان وبه أكثر المدن وخاصة أثينا، والموانئ بيرايوس وسالونيك وقوله. وبلاد اليونان جبلية في طابعها العام، وقد اشتهرت بزراعة الزيتون والكروم.

وهبطنا في مطارها بعد أن دارت بنا الطائرة عدة مرات فوق المدينة ولبثنا فيه ثلاثين دقيقة، ومطار أثينا يعتبر مطاراً متواضعاً ويبدو على العاملين فيه الحرص على سمعة بلادهم؛ فقد كانت معاملتهم لبقة وحسنة وتعلو شفاههم البسمة، وفي ردهة الاستقبال وضعت لوحة كبيرة معلقة لتعرف القادمين بأهم المعلومات عن الأنظمة الخاصة بالنقد وما ينبغي ويسمح به في الدخول والخروج.

وكان بجواري مجموعة من الإخوة السعوديين، فقلت تعقيباً على ما قرأنا: وعلينا أن نكون فوق ذلك إن شاء الله.

يزين الغريب إذا ما اغترب
ثلاث فمنهن حسن الأدب

وثانية حسن أخلاقه
وثالثة اجتناب الريب

وبدأت السيارة تجوب شوارع العاصمة نحو الفندق، وكان جو العاصمة سماء مشرقة صافية الأديم، وكان السائق قد أراد بطريق غير مباشر أن يرينا عظمة أجداده، فمر بنا في العديد من الشوارع والميادين التي تريك الطابع القديم والحديث؛ فقد بنيت على أحد النظم المعمارية مع المحافظة على الطابع الإغريقي القديم، رغم إعادة تخطيطها منذ ١٥٠ سنة بعد أن حصلت اليونان على استقلالها، وكانت اليونان قد وقعت كلها في يد الأتراك سنة ١٤٥٦م.

وفي مطلع القرن التاسع عشر ساورت اليونان أحلام الاستقلال، وبدأت ثورتها سنة ١٨٢١، وساندها أدعياء الحرة في أوربا، فحالفها التوفيق، وحصلت على استقلالها وضمت إليها كريت سنة ١٩١٣م.. وتوقفت أحداث التاريخ في خاطري عندما توقف السائل أمام مدخل الفندق المسمى «برزدنت».

وخلال وجودي هناك تمكنت من زيارة العديد من المعالم والمتاحف والآثار، ولعل أهمها وأشهرها هو الأكروبول. وهو عبارة عن مرتفع جبلي تقوم عليه بعض المعابد القديمة، ويقع في الجنوب من مدينة أثينا، يعلو على مستوى السهل حوالي خمسين أو ستين متراً، طوله يتجاوز الثلاثمائة متر، وعرضه

حوالي مائة وخمسين متراً تقريباً، وينحسر جانباه الشمالي والشرقي عن هوة سحيقة، وينحدر جانبه الجنوبي بميل شديد، ولكن يمكن ارتقاؤه من الجانب الغربي، خصص منذ عهد بعيد لإقامة الهياكل لآلهة المدينة ويكسب أكروبول أثينا مظهراً رائعاً، بوابته الفخمة وحرسه التقليدي الذي يرتدي الزي الإغريقي القديم.

ووسط اليونان وعلى صخرة أكرو كورنثوس التي يبلغ ارتفاعها حوالي ٥٧٥ متراً تقع أطلال معبد أفروديت إلهة الحب والجمال والإخصاب في الأساطير اليونانية القديمة، ويقال: إنها هي المعبودة الشرقية (عشتروت)، ولقد لقبها الرومان بـ «فينوس».

ولعل أهم ما تتميز به هذه البلاد هو موقعها في مفترق الطرق بين قارات ثلاث «أوربا وآسيا وأفريقيا»، أجمل ما في الموقع هو بحارها الممتدة وجزائرها المتعددة ومناظرها الطبيعية..

تزدان مدينة أثينا الحديثة رغم تاريخها القديم بالعديد من المتاحف التي يعود بعضها إلى القرن السادس قبل الميلاد، وكان المرشدون يركزون في أحاديثهم معنا على الأساطير اليونانية القديمة التي تحتاج إلى بحث وتدقيق، وكذا رووا لنا قصصاً عن فلاسفة اليونان كسقراط وأفلاطون، وعن الأماكن التي كانوا يجلسون فيها للدراسة والتعليم..

كما قمت بزيارة لبعض المتاحف إذ إن المتاحف في هذا العصر

تقدم معارف متنوعة، بل هي مصدر للباحث والمؤرخ. وزيارة المتاحف تختصر على المرء الكثير من الجهد والوقت، ففي مكان واحد يستطيع الزائر أن يتعرف على فترة تاريخية كاملة. ولعل المتحف الوطني أقرب المتاحف لنا، وهو مفتوح من التاسعة صباحاً، يحتوي على أهم الآثار اليونانية وقد عرض معظمها في عرض علمي بديع موزع على قاعاته التي بلغت ستاً وخمسين قاعة.

وقمت بزيارة للمتحف البيزنطي، وكذا متحف أثينا الذي يحكي قصة أثينا ويقدم لها صوراً خلال تاريخها الطويل.

أما المتحف البحري فتوجد به مخلفات وآثار المعارك البحرية التي خاضها اليونان بحراً. ولما كانت اليونان تتمتع بميزة لا يضاهيها فيها بلد آخر، ألا وهي كثرة الجزر، فلذلك حرص المشرفون على السياحة بها على أن تتضمن برامجهم رحلات بحرية ممتعة، وقد شاركت مجموعة من

الإخوان السعوديين في رحلات متجهة إلى كل من جزر هيدرا، وبوروس، وإيجينيا..

ولعل أجمل ما في هذه الجزء هو الهدوء إلى جانب الطبيعة الغناء.

ووجود المركبات التي تجرها الخيول «فايطون» والتي تستخدم للنزهة والاستجمام إلى جانب توافر كافة الخدمات السياحية، هذا ما جعل هذه الجزء تستقطب السياح الذين كنا نصادف أفواجهم الوافدة من كل بقاع العالم.

ولم يفت الجهات المسؤولة أن تقيم في هذه الجزء المتاحف التي رغم بساطتها تنمي الشعور الوطني لدى المواطنين إلى جانبها الثقافي للسائح، فكانت كل هذه الأشياء إلى جانب ما تزدان به هذه الجزر من أشجار مختلفة، وزهور متناسقة، وطيور متناغمة مما يبعث في النفس أريجاً روحانياً بروعة الجمال.

ولم تستأثر الجزر وحدها بكل الرحلات، بل جرى تنظيم رحلات برية إلى بعض الأماكن الشهيرة بواسطة حافلة، حيث ذهبنا إلى دلفي عبر سهول بوتبيا الخضراء، وعندما اقتربنا من بلدة بوتبيا استرحنا قليلاً ليشرح لنا المرشد علاقة هذه البلدة بالمسرحية المعروفة «عقدة أوديب».

كما مررنا بمدينتي ليفاديا وآرخوما الشهيرتين بصناعة السجاد

والبساط الملون حتى وصلنا إلى مدينة دلفي مركز العالم القديم كما يطلقون عليها، ولم يفتنا فيها زيارة متحفها الظريف الأنيق إلى جانب أطلالها العريقة ومشاهدة جبل بارناسوس المطل على مناظر جميلة خلابة.

والمواطن اليوناني في مجموعه بشوش الوجه، رغم ما يبدو على مظهره من البساطة، فهو سعيد بيومه مستمتع بوقته، ولذلك تجد المطاعم والمقاهي والمكتبات والمعارض والمتاحف مكتظة بمن فيها تبدو عليهم -كما في مدنهم- الأناقة والنظافة، وعدم كراهية الغريب، وبعد تمضية أيام غادرناها والنفس مفعمة بشيء من الذكريات.

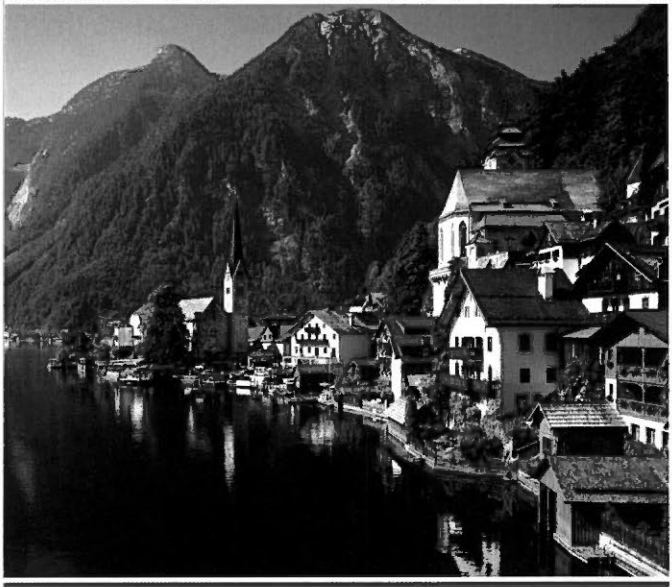

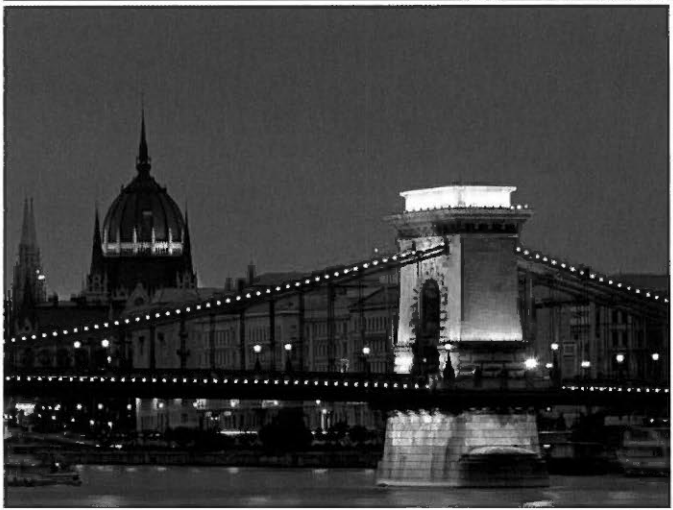

ما بين النمسا وسلوفاكيا والمجر

في صبيحة يوم الأحد ١٤٣٤/٦/٢٥هـ الموافق ٢٠١٣/٥/٥م غادرت مطار الرياض الساعة الرابعة صباحاً في رحلة إلى النمسا وسلوفاكيا والمجر عبر الخطوط المصرية وهبطنا في القاهرة مدة أربع ساعات ثم واصلنا السفر إلى فينَّا لمدة أربع ساعات فوق مياه البحر تترقرق في موجها وتعكس لمعان الأصيل في روعة حيث وصلنا إلى فينَّا الساعة الثانية والنصف ظهراً وكان الجو جميلاً والسماء ملبدة بالغيوم وكانت هذه هي الزيارة الثانية للنمسا - كان المطار هادئاً مع سرعة تأشيرة الدخول ومررنا عبر ردهاته ولم يطلب منا فتح الحقائب..

ومن مطارها الجميل إلى العاصمة فينَّا التي كان اسمها زاخراً في كتب التاريخ والأدب فهي مزيج من المعمار القديم الرائع بتصميماته وتماثيله ونحوته والمباني الحديثة المحافظة على النمط المعماري القديم من حيث البناء وشاهدنا نهر الدانوب الأزرق يخترق المدينة - وبعد تجوال في معالم فينَّا التي تزخر بالحركة السياحية حيث شاهدت أفواج السائحين من مختلف أرجاء العالم تزهو بهم شوارعها وميادينها ومتاحفها وقصورها وساحاتها - وذهبت للقصر التاريخي وقصر البرلمان ودار الأوبرا والمركز الثقافي والمتحف حيث يشاهد المرء قوة البناء والإبداع. ويشاهد وهو يتجول في رحاب فينَّا الخضرة والزهور والجنائن تغطي كل شيء.

كما قمت برحلة إلى غاباتها التي تتحرك بجمالها وامتدادها وكثافاتها - وهكذا تبدو معالمها بارزة لا يمحوها النسيان فهي تجمع بين الأصالة والحداثة لا ناطحات سحاب وأبراج وإنما تناسق وتوافق بينهما - إن فينًا تشكل في مجموعها متحفاً تاريخيًّا فنياً فريداً من نوعه فملامح التاريخ ظاهرة للعيان يقرأها السائح بوضوح على وجه قصورها ومجسماتها الجمالية التي تتحدث عن الحضارة الضاربة في أعماق التاريخ إن وضع النمسا الجغرافي المتميز جعل منها أرض التقاء بين أوروبا الغربية والشرقية كما أن حدودها البرية ممتدة مع سبعة أقطار مما يدل على أهمية موقعها ووضعها الجغرافي في قلب أوروبا واللغة في النمسا هي اللغة الألمانية ويوجد بها عدد كبير من الأتراك ولهم سوق شهير ومطاعم ومساجد وتحفل النمسا بشواهد أثرية قديمة.

كما شاهدت ذلك في متاحفها وقصور (ماریاتریزي) وبما فيها من زخرفة ونقوش وذهب ووجدت أحد الإخوة السودانيين من العاملين في هذه المتاحف والقصور وقد فرح بنا وفرحنا به حيث قام يشرح لنا تاريخاً طويلاً عن النمسا وألمانيا ثم ودعنا قائلاً تحياتي وسلامي لبلاد الحرمين الشريفين وأسأل الله أن أقضي بقية عمري لديكم في السعودية وفي مكة المكرمة بجوار بيته العتيق وودعناه متمنين له التوفيق على حفاوته ومشاعره وروحه العربية الإسلامية.

ولقد تحدث الجغرافيون والمؤرخون والرحالة عن هذه البلاد وجابوا أنحاءها وكتبوا تاريخها وحضارتها ولقد قيل:

إن البناء إذا تعاظم شأنه
أضحى يدل على عظيم الشأن

وقول الآخر:

وسادوا بها عظم الملوك وشيدوا
بها من مباني العز أفخر بنيان

وكان لهم فيها بهاء وبهجة
وحسن نظام لا يعاب بنقصان

وكان لهم فيها عساكر جمة
تصول بأسياف وتسطو بمران

فما لبثت تلك المحاسن أن عفت
وأقفر ربع الأنس من بعد سكان

ومن النمسا كان في انتظارنا الصديق زياد الشاعر أبو طارق وهو رجل سوري الأصل سلوفاكي الجنسية حيث انطلقنا معه من فينَّا إلى سلوفاكيا عبر رحلة برية قطعنا خلالها أكثر من مائة وخمسين كيلاً حيث الطبيعة الخلابة التي تأسر القلب والمشاهد الخضراء الجميلة.

ودخلنا حدود سلوفاكيا دون أن يسألنا أحد وكانت الاستراحات ومحطات الخدمة تلازمنا على امتداد الطريق حتى وصلنا إلى مدينة بستني (Piestany) حيث السكن في فندق تيرما بلاس (Thermia Palace) وهو من أكبر الفنادق ويقدم خدمات نوعية فندقية وهناك أربعة فنادق مماثلة.

واستقبلتنا بابتسامتها الوادعة ونهرها الجميل الذي يخترقها وحقولها الخضراء وسخاء بالمطر سكانها زهاء ثلاثون ألف نسمة وبها عدة منتجعات حيث يقصدها الجميع من مختلف أرجاء العالم وخاصة من كبار السن لإعادة التأهيل والتداوي والتقينا في المنتجع بمجموعة من الإخوان والأصدقاء من المملكة وعمان والكويت والإمارات والبحرين والجزائر ومصر ولبنان والعراق وقضينا أوقاتاً ممتعة نتحدث عن هذه البلاد وعن تاريخها وآثارها ومدنها مما شوقنا إلى القيام برحلات داخل سلوفاكيا وكما قيل:

وذو الشوق القديم وإن تسلى
مشوق حين يلقى العاشقينا

فكنا نقضي سويعات جميلة بعد انتهاء التمارين الرياضية والتأهيلية مع مجموعة من إخواننا السعوديين وهم مع حفظ الألقاب عبد الملك بن دهيش وابنه محمد وفيصل وعبدالله العلي النعيم وعبدالرحمن العوهلي ومحمد الرشيد ومحمد الضويان وفهد بن عبدالعزيز الحقيل ومعيض بن سعدون العتيبي وخالد بن عبد المنعم وغيرهم ومنتجعات بيشتاني مضى عليها ٢٠٠ عام في الرعاية الطبية وتعتبر من أشهر المنتجعات الصحية في أوروبا حيث يتوافر فيها المياه المعدنية الحرارية والطب الكبريتي ولقد جاء الكثير من العرب والأوربيين للعلاج الطبيعي والاستمتاع بالطبيعة الخلابة ومراكز التسوق والمقاهي العديدة

حيث نلتقي بالأصدقاء ثم نذهب لنهر فاخ حيث الطيور والعصافير والخضرة والجمال وتضم هذه المنتجعات مجموعة من الفنادق.

وخلال إقامتنا حرصت على زيارة أهم المدن والمعالم في سلوفاكيا والأماكن الأثرية حيث قمت بزيارة العاصمة «براتيسلافا» وجبال التاتري حيث الشلالات والمناظر الخلابة والبحيرات وقلعة بويشسه ومحمية الغزلان وغير ذلك وحضور ومشاهدة بعض المناسبات الوطنية والاحتفال بموسم الربيع والصيف والمعارض الفنية وغير ذلك من المشاهد التي تدل على بعد حضاري وثقافي.

وخلال وجودنا في المنتجع في الأسواق كان البعض من السكان يتحفنا ببعض الكلمات العربية التي يحفظونها حتى المتسولين من الغجر والذين يسمونهم مرض أوربا يحفظون بعض الكلمات ويلاحقوننا بها حين التجول في أسواق المدينة واللغة في بيشتنافي هي اللغة السلوفاكية وقليل منهم يحسن اللغة الإنجليزية حيث أنها أصبحت شرطاً للعمل في الفنادق والمنتجعات الصحية.. وفي الصباح الندي الجميل الذي لم تطلع شمسه يحلو المشي ومشاهدة الزهور في الشوارع والميادين والحدائق التي نمر بها وبخاصة بعد دخول فصل الصيف وكثيرة هي مناسباتهم وأعيادهم والنظام هو السائد في مثل هذه المناسبات وخلال اللقاء في أحد الاحتفالات سألت أحدهم عما إذا كانوا يتوقعون مطراً هذا اليوم فقال لا ليس هناك مطر وحمد الله

فقلت له إنكم تشكرون الله على عدم نزول المطر فقال نعم لأنه كثير عندنا فقلت سبحان الله العظيم مما ذكرني بقول الشاعر العربي:

عجباً للناس في أرزاقهم
ذاك عطشان وهذا قد غرق

ففي بلادنا نفرح ونبتهج إذا سمعنا بنزول المطر ولو كان على مسافة بعيدة داخل بلادنا وأنتم تحمدون الله على عدم نزول المطر وخلال مشاهدتي ما يسر الناظر ويروق المتأمل قلت:

منظر رائق وماء نمير
وثرى عاطر وقصر أشم

وفي يوم الأحد الموافق ١٨ رجب ١٤٣٤هـ بدأت المسيرة نحو رحلة إلى بودابست وأخذتنا الحافلة مع مجموعة من السائحين وكانت الشمس ترسل أشعتها الدافئة ثم انقلب الجو إلى ممطر وبارد وكان الطريق ٢٠٠ كيلاً وكانت الغيوم المتراكمة يتساقط منها زخات من المطر وكان الضباب يغطي الأشجار وفي هذا الجو الرومانسي الجميل تحرك بنا قائد الحافلة من مدينة بيتشي حيث المقر ونقطة الانطلاق إلى المجر حيث الذهاب إلى العاصمة «بودابست» وقطع المسافة بينهما والبالغة مائتين وعشرة كيلومتراً وبدأ خط سيرنا بمرور عاصمة سلوفاكيا والواقعة على النهر المائي ثم مررنا بعدة بلدان ريفية تمثل بما حولها الريف السلوفاكي ثم بعض المدن الصناعية ويمتد بنا الطريق بين المزارع الخضراء والأودية المغطاة بالأشجار عبر

المسالك الضيقة تارة وتتسع أخرى إلى أن أفضى بنا الدرب إلى المجر ودخول الحدود المجرية وتوجهنا صوب العاصمة بودابست وعلى امتداد الطريق تتعانق حقول المزارع وتتلاحق البلدان والقرى نابضة بالحياة حتى أشرفنا على العاصمة بمبانيها ومعالمها وهي مدينة جميلة بتخطيطها وتنسيق خطوطها التي أعادت إلى ذهني مدينة باريس وفينَّا وتكثر فيها الجسور والأنفاق والمباني الحديثة والقديمة والمنتزهات الكثيرة والشوارع الفسيحة يخترقها نهر الراين وذهبنا مع المرشد السياحي لزيارة معالمها وأشهر ساحاتها وميادينها التي تحتل مساحة واسعة من الأرض ومناطق ذات انحدار وصعود مبانيها مزيج من الفن القديم والنمط الحديث مما أضاف إلى شكلها جمالاً وذهبنا مع مرشدنا إلى مبنى البرلمان والكاتدرائية القديمة والمركز الإسلامي- والمعبد اليهودي ولكن القائمين عليه رفضوا الدخول إلا بمبلغ خمسة عشر يورو وهكذا يتجلى حب المال في نفوس اليهود. وقلت للمرشد ومعي بعض السائحين ونحن نرفض الدخول ولا نريد أن نراه.. ولقد صدق الشاعر حين قال:

إن اليهود تبيع الدين بالذهب
وذاك ديدنهم في سائر الحقَب

وذهبنا للمتحف الوطني ودار الأوبرا.. وبعض القصور الفخمة التي أقامها حكامها قديماً مردداً قول القائل:

في الذاهبين الأولين
من القرون لنا بصائر

وبعد زيارة لأهم المعالم غادرناها تحت وابل من المطر كان ينهمر في هذه الأثناء وكان يوماً ممتعاً وودعنا هذه العاصمة الجميلة لما تمتاز به من جمال الطبيعة وبنسق الحياة وروعتها وعدنا إلى منتجعنا مستمتعين بالمناظر الطبيعية والجمال ونهر الراين وتوقفنا أكثر من مرة عند الاستراحات التي تزخر بالناس وتمتلئ بالرواد وبها المطاعم والفنادق ومخازن لبيع ما يحتاج إليه المسافر والسائح في هذه الديار وكنا نشاهد الهضاب المكسوة بالخضرة والمزارع وجمال الطبيعة واحترام الناس للنظام وآداب قيادة السيارة حيث لم نشاهد حوادث مرورية ولا تجاوزات للسرعة-فهذه الطبيعة الخلابة لوحة ممتدة متجددة ذات ألوان مخملية متناسقة وكما قيل:

هي بهجة الدنيا التي
منها بديع الحسن فائق

وهكذا امتدت بنا الرحلة متنقلاً بين النمسا وسلوفاكيا والمجر بمشاهدها مروراً بمدن وقرى وبلدان مزروعة وسط المروج والحقول الخضراء بين الروابي وأحضان السهول ومروراً بنهر الراين والدانوب مما يضفي جمالاً ويكشف عن مفاتن الطبيعة بألوانها الزاهية المتنوعة تتمازج فيها خضرة الأرض مع جمال الغيوم ورشات المطر والمزارع والمدن المتناثرة عبر امتداد الأفق وقد حبا الله هذه البلدان كل مقومات الجمال:

الأرض قد كسيت رداء أخضرا
والطل ينثر في رباها جوهرا

وبعد تمضية أربعة أسابيع في هذه البلدان ومشاهدة معالمها من خلال انطباعات سائح استقى مشاهدة لهذه البلدان التي تعج بالحركة وتضج بالنشاط وتمتلئ بالحياة من خلال الرؤية لهذه المدن والمعالم والمواقع بحضاراتها وثقافاتها وتاريخها وإرثها الإنساني وودعنا تلك الربوع التي عناها الشاعر العربي:

أرض يحن إليها من يفارقها
ويحمد العيش فيها من يدانيها

ولكن علينا أن نرحل إلى بلادنا الغالية بتاريخها وخصائصها وثقافتها وأناسها الطيبين ولم يبق لنا من تلك الرحلات سوى الذكريات قائلاً:

بلادي بها ما يملأ العين بهجة
وتسلى عن الأوطان كل غريب

فهي مهبط الوحي ومنطلق النور وموئل الإشعاع ومنبت لغة الضاد وركيزة المفاخر وينبوع المآثر.

الخاتمة

المهم في أدب الرحلات حقيقته الفكرية ومعناه الاجتماعي وليس ما يعنى به البعض من متسلقي أعالي الجبال من هملايا إلى أيفرست.. إلى شامنيو. إلى أنابورنا وغيرها فقد قال لي أحدهم ذات يوم: إن المتعة في الرحلات هي في روح المغامرة، وأن يعيش وسط الثلوج والبرد والأعاصير وقمم الجبال تتقاذفك الرياح من كل صوب. فقلت: هذه مغامرات رهيبة قاتلة، فتسلق الجبال لها روادها وهواتها، وكم مات الكثير منهم فيها! ومفهومي للرحلات على حد قول القائل:

سفر الفتى لممالك وديار
وتجول في سائر الأمصار

علم ومعرفة وفهم واسع
وتجارب ورواية الأخبار

ولقد اهتم أسلافنا رحمهم الله بالرحلات، ومن أشهرهم المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي) توفي سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م.. ومن كتبه «مروج الذهب ومعادن الجوهر».

والإدريسي (أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس) توفي سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٦م وله كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

وابن جبير الذي توفي سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م وله كتاب رحلة الكناني نسبة إلى قبيلته.

ويعد ابن بطوطة أبو عبدالله محمد بن عبدالله الطنجي الذي عاش من سنة ٧٠٣هـ/٧٧٩هـ الموافق ١٣٠٤م من أشهر الرحالة المسلمين على الإطلاق، وقد قطع في ترحاله وأسفاره أكثر من ١٣٠ ألف كيل وله كتاب «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وغير ذلك من الكتب والأسفار التي تركها أسلافنا في مجال الرحلات مثل كتاب «جزيرة العرب» للأصمعي، وكتاب «المسالك والممالك» لابن فضل الله العمري، وكتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» للمقدسي.

وإلى جانب ذلك نجد كتب المؤلفات الجغرافية بأنواعها الإقليمية والمناخية واللغوية التي كانوا يواجهونها في رحلاتهم وخلال أسفارهم.. ومن يقرأ كتاب «الرحالة المسلمون في العصور الوسطى» لمؤلفه الأستاذ زكي محمد حسن، وكتاب الأمير مصطفى الشهابي «الجغرافيون العرب» وغيرهما ممن تناولوا هذا الجانب الحيوي يدرك دور أسلافنا وإسهامهم في عالم الرحلات والفكر والجغرافي.

وهذا يدحض المقولات التي قرأتها، بل سمعت من الغربيين أن العرب ليس لهم دور حيوي في هذا المجال، وهو إنكار ينطلق

من التعصب. وقد قلت للكثيرين اسألوا المستشرقين في بلادكم عما أسداه أسلافنا من خدمات جليلة في ميدان الرحلات والجغرافيا وما دونوه من كتب بل وما ترجموه كذلك.

حقاً إن ميدان الرحلات وتاريخها ما زال في حاجة إلى الدراسة والاهتمام.. وكم نزجي الشكر وافراً لمجلة «المنهل» التي تعنى بهذا اللون وتهتم بهذا الجانب، وتوليه عناية واهتماماً منذ سنوات طويلة، فقد أسهمت في إثراء هذا الجانب، وحرصت على ازدهاره، وأفسحت المجال لنشره لما فيه من فوائد وحث على الاعتبار والتأمل والتفكر في خلق السماوات والأرض والنظر في مخلوقات الله مما يدعم الإيمان بالله والتعرف على مسار الأمم والحضارات وانتشار الإسلام في العالم.

فالقرآن الكريم ما فتئ يوجه النظر إلى ما في السماوات والأرض، ويفتح الأعين على بديع صنع الله في هذا الكون، ويبصر المؤمنين بآيات الله في الآفاق.

ولقد سجل الكثيرون من الشعراء رحلاتهم في قصائد تضمنت الوصف الدقيق، ومن ذلك قول القائل حين زيارته إلى لندن:

جل في شوارع لندن وبأرضها
وتنقلن بطولها وبعرضها
لترى البناء منسقاً ومزوقاً
ومتاجراً يغريك شائق عرضها

الـــزهـــر في جـنـبـاتـهـا مـتـبـسـم
مـــن فـــاقـــع مـتـفـتـح في روضـــهـــا

إلى أن يقول:

والمـتـحـف الـوطـنـي فـيـه عجائب
وغـــرائـــب تـغـري الـدنـــى وتـخـلـب

تحكي العصور السالفات كل شعـ
ـب لـلـقـديم ولـلـحـديـث تـقـرب

ولـكـل عـلـم مـتـحـف مـتـكـامـل
في لـنـدن بـبـنـائـه يـتـبـخـتـر

يعلو إلى هـام السـمـا بطوابق
مـن كـل نـوع في الحـيـاة تـصـور

كما يصف السقوط الأخلاقي في تلك الديار:

في أكـسـفـورد وبـيـكـدل مـصـارع
يـبـكـي لـهـا الأشـــراف والأعـيـان

إن الحـصـانـة والـعـفـاف خلائق
نـــادى بـهـا الإســـلام والإيمـــان

كما يصف بلاد السويد:

بـلـد الـسـويـد بـه الحـضـارة جمة
تـبـدو لـدى الأســـواق والأعـمـار

ومتاحف ومعارض وقطارها
وسط المدينة ذائع الآثار

فيها ملامح لندن ببنائها
ودخانها وقطارها السيار

إن كانت «الدنمرك» أنظف شارع
من دونما وسخ يرى وغبار

وإلى فرنسا في ربا «باريز» قد
ذهل الجميع بباهر الأنوار

وبساحها مجد عظيم شاده
فيها الملوك بسابق الأدهار

وهي قصيدة طويلة يذكر فيها أوروبا وأخلاق أهلها وعاداتها وينهيها قائلاً:

فإليك يا حمد الحقيل رسالة
تأتيك عبر مفاوز وبحار

من قلب أوروبا ومن باريزها
بلد الفساد وموئل الفجار

وإليك من لبنان آخر رحلتي
هي آخر الأنباء في أسفاري

وهكذا نرى البعض من الرحالة يصوغ مشاهداته في قصائد شعرية جميلة، ووصف بديع لطيف هو صورة صادقة لمشاعرهم وأحاسيسهم ومشاهداتهم.

ولا أريد أن أستطرد في هذا المجال فهناك عشرات الكتب والبحوث والمقالات التي تناولت أعمال الرحالين العرب وأعلام الجغرافيا المسلمين كما تناوله آخرون كنوع من الأدب أو الفن القصصي.

مع كتاب رحلات وذكريات

بمناسبة صدور كتابي «رحلات وذكريات» عام ١٤٠٠هـ والذي طبع عدة مرات فقد نشرت مجموعة من الصحف والمجلات تعليقات شتى عن ذلك الكتاب وما تضمنه من رحلات قمت بها إلى البلاد العربية والإسلامية والآسيوية وهو دليل الاهتمام بأدب الرحلات.

- الكتاب: رحلات وذكريات (المؤلف: عبدالله حمد الحقيل).

- الناشر: تهامة- جدة ط٤- ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م (ص١٣٨).

شغف الكثير من الأعلام والأدباء السعوديين بأدب الرحلات، إذ سجلوا انطباعاتهم ومشاهداتهم سواء كانت تلك الرحلات داخل بلادهم أم خارجها. وفي كل رحلاتهم كانوا ينطلقون منطلقاً عربياً وتراثياً ودينياً. أي كان الرحالة السعودي، وهو يكتب أدب الرحلات يقتفي آثار الرحالة العرب في مختلف عصورهم. ينظرون إلى مرئياتهم، ويعبرون عنها، ويسجلون انطباعاتهم إزاءها.. من منظور عربي أصيل، ومنظور إسلامي ثابت.

وهاهو ذا أحد أولئك الأدباء السعوديين الذين ارتحلوا خارج وطنهم، وجابوا أكثر بلدان العالم العربي والإسلامي والأوروبي والأمريكي.. إنه (عبدالله حمد الحقيل) الذي زار الكثير من عواصم ومدن

عربية ومشرقية وغربية.. تبدأ بغالبية مدن الخليج العربي، كالكويت، والمنامة، والمحرق، والرفاع، والدوحة، ومسقط، ودبي، ورأس الخيمة، والشارقة وعجمان، وأبو ظبي.. ثم البصرة.

فبلاد الشام: دمشق وبيروت، وأكثر مصايف لبنان.

وتركيا: مروراً بطرابلس، اللاذقية، أنطاكية، الإسكندرية، أضنة، أنقرة استانبول.

ومصر (القاهرة) والسودان (الخرطوم، وأم درمان)، وتونس والجزائر (العاصمة، وهران، تلمسان، عنابة وغيرها).

والمغرب الأقصى (الدار البيضاء الرباط، فاس، وغيرها)، والأندلس، وجبل طارق. والولايات المتحدة (نيويورك) وولاية (أوكلاهوما).

وفي الشرق الأقصى: سيول عاصمة كوريا الجنوبية، وبانكوك عاصمة تايلاند، ومانيلا عاصمة الفلبين، وجزيرة سنغافورة، وكراتشي عاصمة الباكستان، وأخيراً أثينا عاصمة اليونان.

وإن رحلات الحقيل لتضيف كتاباً إلى كتب الرحلات السعودية عبر العالم، والتي طبع منها عشرات الكتب، وفي مقدمتها الكتب التي خلفها لنا كل من أحمد عبدالغفور عطار (عشرون يوماً في الصين الوطنية)، ومحمد محمود الصواف (رحلاتي إلى الديار الإسلامية)، وعلي فدعق (أيام في الشرق الأقصى)، وعبدالعزيز الرفاعي (خمسة

أيام في ماليزيا)، ومحمد ناصر العبودي (رحلة إلى جزر مالديف، وجولة في جزر البحر الزنجي، ورحلة إلى سيلان)، وعبدالله سعد الرويشد (أيام في تونس)، ومحمد عمر توفيق (من ذكريات مسافر)، وشكيب الأموي (قصة رحلة إلى الشرق الأقصى، ورعب على ضفاف بحيرة جنيف)، وعبدالله الشهيل (صور عربية إلى إشبيلية)، وعبدالكريم الجهيمان (ذكريات باريس، ودورة مع الشمس)، وفهد العريفي (من وراء الحدود). وغيرهم.

وإذا كانت تلك الرحلات السعودية تتراوح دوافعها وحوافزها ما بين الالتزامات الرسمية المفيدة والرغبات الخاصة الحرة.. فإن رحلات الحقيل تجنح في أكثرها إلى الدوافع الذاتية الخاصة المتحررة من كل برامج مسبقة تحددها الفئات المسؤولة عن الرحلة، ولا يحيد عنها الرحال قيد أنملة. لذلك فقد كان الحقيل في رحلاته - ماعدا رحلات مدن الخليج العربي، ورحلة على النيل وفي الشرق الأقصى، حراً في زيارته ومشاهدته، وحراً في تنقله ووقوفه وتسجيل انطباعاته.

وظلت تلك الانطباعات تجمع الملاحظات العامة، والمواقف الجزئية الذاتية الخاصة الدقيقة.

وفي كل تلك الملاحظات والمواقف كان الحقيل لا يخرج عن فن ومضمون ومنحنى وأدب الرحلات عند أولئك الأدباء السعوديين السابقين الذين لا يخرجون بدورهم -كما ذكرنا- عن الخطى والمسار والمضمون والرؤى والأصول التي وجدوها عند الرحالة الجدود

من التراث الرحلي العربي: القديم والمعاصر.. الذين تتشابه أو تتقارب في المنابت والمناهل أهدافهم الثقافية والفكرية والدينية والعربية.

وقد تفصح بعض ملاحظاته العادية العفوية عن مدلول ذي معنى يختلف عما اعتاد عليه في وطنه من قيم تمثل الأصالة والأمان والخير.

كما أن انطباعاته عن المشاهد العامة لابد لها أن تصطبغ بروح العربي المسلم الذي يستنكر كل مكروه أو تشويه، وتأنف نفسه من كل المعاني التي تنهى عنها الشريعة الإسلامية، وتأباها الأخلاق العربية الأصيلة؛ فتراه يقول معبراً عن انطباعاته إثر مشهده ووصفه لمصارعة الثيران في أسبانيا:

والواقع أنه مشهد مؤلم يثير الامتعاض والأسى، إذ كيف يهضم هؤلاء تعذيب الحيوان بهذه الصورة البشعة التي تتنافى مع الدين والخلق والذوق.. ومهمل قيل في تبرير ذلك من أنها مورد سياحي مهم ومصدر دخل كبير، فإن أسلوب المصارعة بهذه الآلات الحادة غير لائق أبداً، وتعذيب الحيوان المسكين الذي نادت التعاليم الدينية بالرأفة به.. وخرجت من ميدان المصارعة وأنا أحمل أسوأ الذكريات وأقسى الانطباعات.

مجلة الفيصل العدد ١٣٨

ونشرت مجلة المنهل الغراء ما يلي.

رحلات وذكريات

تأليف الأستاذ/ عبدالله حمد الحقيل

«رحلات وذكريات» أحد كتب الرحالة الحديثة الممتعة نرى العالم من خلاله صفحات مفتوحة مقروءة، نقلبها بأيدينا وعقولنا وقلوبنا..

.. تتلاحق فيه المدن والأرياف والعواصم والأقاليم.. وتتناثر العادات والتقاليد والأعراف، هنا وهناك، تقفز العين بين أسطره.. والنفس بين مناظره ومرئياته ومحساته التي تجسدها الكلمات..

ذكريات الكاتب القديمة ومحفوظاته تقف من خلف الذاكرة، وتستقر بين الكلمات المسطورة، ليأتي السفر نحتاً مجسماً من الألوان والظلال.. والكتاب في مجمله، رسم بالكلمات تتداعى فيه الرؤية والرؤى.

مع هذا الكتاب نطوف العالم على متون الطائرات والسفن، والقطارات، والسيارات، وعلى الأرجل، الخليج العربي، الشام، المغرب العربي، أفريقيا، أوربا الشرقية والغربية، آسيا والشرق الأقصى والأدنى، وفي كل ذلك نجد التاريخ والحضارة، والفكر والعلوم والمخترعات، والآداب والثقافة، العادات والتقاليد، غرائب الحياة، وعجائب الطبيعة، واختلاف البشر وألوان حياتهم بكل طعومها ومذاقها..

كاتب هذا الكتاب هو الأستاذ الأديب عبدالله حمد الحقيل، أديب ذواقة.. ورحالة معاصر يهوى الأسفار، وأحب الترحال، سعودي الأصل، نشأ وترعرع في بيت علم وفضل، أحب الأدب والتاريخ، وله مؤلفات مطبوعة في الثقافة والأدب والتربية والتراث والاجتماع ومشاركته الوافرة التي تفيض مداد علمه في المجلات والصحف ووسائل الإعلام. عمل مدرساً للغة وآدابها، وطرق باب الشعر، وشارك في النقد، وحقق وأخذ من كثير من العلوم بطرف.

أسلوب المؤلف في هذا الكتاب.. هادئ رزين، لا نشاز في تعبيره، ولا تكلف في لفظه. تغلب عليه النزعة الأدبية فيطعم عرضه بشارد من الشعر، وأخذ من الأمثال والحكم.

جاء الكتاب خلاصة تحمل في طياتها صوراً تذكر أمام القارئ، وتحلق به في أجواء مختلفة وخواطر متفرقة لا تقف عند الانسجام والمتعة فحسب، وإنما تهدف أيضاً إلى الأسوة والقدوة، إلى العظة والعبرة، إلى ما يترك أثراً خالداً ويعود على هذه البلاد باستنهاض الهمم وحفز واستجلاب الخبرة.

بدأ المؤلف «كتابه» بمقدمة خفيفة، تحدث فيها عن الرحالة والرحلات قديماً، ومن ارتادوا هذا الميدان من المسلمين والأوروبيين وغيرهم. «فقد كانت الرحلات فيما مضى عملاً شاقاً مضنياً، حيث كان الرحلة يعترضون لحالات كثيرة كتقلب المناخ وتبدل الأجواء،

إلى جانب ما يصادفونه من الخوف والضياع وطول الطريق ومصارعة الأمواج ووحشة المحيطات».

وروى أحد الحكماء قوله:

المسافر يجب أن يكون له عينا صقر ليرى كل شيء، وأن يكون له ظهر جمل ليتحمل أي شيء وأن يكون له ساقاً عنزة لا تتعبان من المشي، وأن تكون له حقيبتان إحداهما مال والأخرى صبر.».

ينتقل بين الوهاد والنجاد بقصد الفائدة والاعتبار، والنظر في آثار من قضى من الأمم والسير في تلك الديار للتعرف على مصيرهم، كما قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾، وكم من أناس تعرضوا للضياع وألقوا أنفسهم إلى التهلكة في سبيل المعرفة واكتشاف الجديد، من أمثال ابن بطوطة، وابن ماجد، وماركوبولو، وكذلك الذين داروا حول العالم في سفن شراعية مثل ماجلان وفاسكو دجاما وكولمبس.. وساروا في محيطات مجهولة وصحاري مهلكة، بلا طعام ولا خرائط ولا مرشدين فاكتشفوا القارات والطرق وحددوا المسارات للسفن.

ويرسل حديثه من هواة الرحلات بأن يستفيد كل في مجال تخصصه، سواءً كان أديباً أو مؤرخاً أو جغرافياً، أو صحفياً أو عالماً أو رجل أعمال وإدارة..

ولم ينس الكاتب في معرض حديثه أن يسوق النصائح مما ساقها القدماء.. فسجل وصية لحكيم عربي يوصي صديقاً له:

إنك تدخل بلداً، لا تعرفه، ولا يعرفك أهله فتمسك بوصيتي تكتب لك السلامة.. عليك بحسن الشمائل.. فإنها تدل على الحرية ونقاء الأطراف فإنه يشهد بكرم المنبت.. ونظافة البزة فإنها تنبئ عن النشوء في النعمة، وطيب الرائحة فإنها تظهر المروءة.. والأدب الجميل فإنه يكسب المحبة، وليكن عقلك دون فعلك، ولباسك دون قدرك، والزم الحياء والألفة فإنك إذا استحييت من الفظاظة اجتنبت الخساسة، وإن أنفت من الغلبة لم يتقدمك نظير في مرتبة.

والأستاذ عبدالله الحقيل في هذا الكتاب (رحلات وذكريات) يكثر من مصاحبة الشعر والاستشهاد به، ويغلف الكتاب بنكهة تحببه إلى النفس وتجذب إليه القارئ جذباً، وتشده شداً ففي «دمشق» مثلاً يعجب بعين الفيجة وبقين وبلودان، ويعجب بالأنهار والجداول والشلالات تنساب مياهها بين المروج والأشجار- فيمر بخاطره قول شوقي:

سلام من صبا بردى أرق
ودمع لا يكفكف يا دمشق

فتحت جنانك الأنهار تجري
وملء رباك أوراق وورق

وعندما ارتحل الكاتب في تجواله إلى مدينة «أنطاكية» في تركيا تواردت الذكريات في خاطره وتذكر في من تذكر الشاعر العبقري الطيب المتنبي عندما هجر حلب وقت اشتداد الصراع بين الأخشيديين والحمدانيين وجاء إلى «أنطاكية» ليقيم في ربوعها- ومن قوله في مدح الأمير المغيث بن علي العجلي:

دمع جرى فقضى في الربع ما وجبا
لأهله وشفى أني ولا كربا

لما أقمت بأنطاكية... اختلفت
إليَّ بالخبر الركبان في حلبا

فسرت نحوك لا ألوي على أحد
أحث راحلتي الفقر والأدبا

وعلى هذا النحو الممتع نرتحل بين الطروس والصفحات، من غير ملل، فننتقل من بلد إلى آخر، ومن قطر إلى قطر، نستمتع بالتاريخ والآثار والطبيعة، ونعيش مع الناس حياتهم، ونشاركهم ما نستطيع فيه المشاركة.

مجلة المنهل- عدد المحرم ١٤٠٤هـ

مع الحقيل..في رحلاته

بقلم الأستاذ الدكتور الصفصفاني أحمد المرسي
الأستاذ: بجامعة عين شمس

استمتعنا برحلة الأستاذ عبدالله حمد الحقيل إلى فرنسا وبعض البلدان الأوروبية التي نشرت بجريدة الجزيرة يوم الاثنين ٢١ صفر ١٤٠٣هـ العدد ٣٧٣٠.

وقبل أن نتجول مع الرحلة أود أن نعود القهقرى لنرى دور الرحالة مدى التاريخ، ودور أجدادنا الأوائل في تعريفنا بالشعوب الأخرى حتى نضع الرحلة في مكانها الطبيعي بين رحلات الرحالة العرب.

إن تاريخ الإنسان إنما هو تاريخ لمحاولاته التعرف ثم السيطرة على العالم الخارجي من حوله. وقد ناضل أولاً القوى الحيوانية التي تحول بينه وبين هذه السيطرة، ثم أخذ يناضل القوى الإنسانية. فتكونت القبيلة ثم الأمة، واندفعت من إقليميتها إلى الأقاليم المجاورة تكتشف آفاقاً جديدة، ثم بدأ ينطلق إلى الفضاء الخارجي عبر الكواكب، ويغوص في أعماق البحار والمحيطات بحثاً عن المعرفة ورغبة في الامتلاك.

كل هذه الرحلات بدأت ضيقة، ثم اتسعت مع مر الزمن. فالإنسان ولد راحلاً، وإن أعجزته الرحلة تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال كماهو الحال في رحلات ألف ليلة وليلة، وحي بن يقظان لابن طفيل،

والتوابع والزوابع لابن شهيد، ورحلة دانتي الإيطالي في الكوميديا الإلهية، والشاعر التركي العبقري الشيخ غالب في رحلته إلى مدينة القلوب (حسن وعشق) كما نجد ذلك مبثوثاً في الأساطير الأولى. كما نجده ماثلاً في الحروب والفتوح القديمة. وما سطره الملوك في مصر وغير مصر.

ومن المعروف أن ملوك مصر سجلوا رحلاتهم في آسيا... ويوجد على جدران معبد الدير البحري بمصر العليا تصاوير بديعة لسفن الملكة حتشبسوت من ملوك الأسرة الثامنة عشرة وهي عائدة من رحلتها إلى بلاد. بونت. في الجنوب.

وكان للفينيقيين رحلات بحرية كبيرة خاضوا فيها عباب المحيط الأطلسي، وحطوا رحالهم في الجزائر البريطانية. وخلفهم الإغريق يقيمون مستعمرات لهم في البحر الأسود وفي البحر المتوسط. وقد عنوا عناية واسعة بوصف البلدان والأقاليم التي زاروها.. وقدموا لنا الكثير من المعارف الجغرافية.

ثم جاء دور العرب وفتحوا الأرض من الهند والصين إلى المحيط الأطلسي وجبال البرانس، ومن التركستان وجبال القوقاز إلى السودان، وأصبح كل ذلك عالماً واحداً مشتركاً في اللغة والدين والثقافة، ووصف مؤرخوهم مدن هذا العالم وبلدانه، كما وصفوا سكانه، وكان ذلك إرهاصاً لما قام به علماؤهم وأدباؤهم من رحلات المستقبل، اشترك فيها التجار وغير التجار.

وكان من أهم الأسباب في تدوين هذه الرحلات حاجة الدولة إلى معرفة الطرق الكبرى التي تصل أقاليمها. ومن ثم ألفت كتب كثيرة في وصف المسالك والممالك.. وهذه الحاجة السياسية اقترنت بها حاجة دينية. إذ كان الحج إلى مكة المكرمة فريضة على كل مسلم، يتجشم في سبيلها كل المشقة في سبيل أداء هذه الفريضة وزيارة مسجد الرسول r في المدينة المنورة.

كانت الرحلة عنصراً قوياً في حياة المجتمع الإسلامي في عصوره الزاهرة، فقد رحل الناس لزيارة مهبط الوحي. ولقوا في ذلك الكثير من صعوبات السفر التي تحملوها راضين مسرورين، ورحل الناس في طلب العلم من قطر إلى آخر. فقد كان العلم منتشرة مراكزه في أنحاء العالم الإسلامي وطلابه كانوا يتحملون من المشاق في سبيل الحصول عليه ما يحملنا على احترامهم وإجلالهم.

ورحل القوم في سبيل الاتجار. فقد كانت الأسواق الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها مرتبطة ببعضها البعض كل الارتباط. وكان التجار يحملون متاجرهم وسلعهم إلى حيث يرجون الربح الوفير.

أضف إلى كل ذلك رحلة السفراء المترددين بين الملوك والأمراء، والمغامرين الواجدين في الرحيل لذة خاصة، والساعين في سبيل الرزق إذا ضاقت بهم أرضهم وجوابي الآفاق. كل هذه جوانب من الرحلة عرفها العرب والمسلمون.

وقد شجعهم على الاستزادة منها خضوع العالم الإسلامي برقعته الواسعة لدولة واحدة في بادئ الأمر. فلما ذهبت الوحدة السياسية بقيت وحدة الدين ووحدة اللغة. وهاتان ربطتا الحجاج وطلاب العلم ورسل السلاطين وحملة البضائع وزعماء الصنائع فاحتفظوا بالصلة بل لعل الرحلة كانت أقوى في عهد التفرق السياسي منها قبلاً لاعتياد العالم الإسلامي درجة من المعيشة، ونوعاً من الحياة ولوناً من التفكير تحتم على أفراده الاتصال والاتجار والتبادل الفكري والأدبي.

وقد دون كثير من رحالي العرب أخبار أسفارهم وتنقلهم. فذكروا المدن التي هبطوها، والمسافات التي اجتازوها، والصعوبات التي تغلبوا عليها، ووصفوا البلاد وزرعها، وقيدوا مشاهداتهم عن صناعاتها وتجارتها، وأتوا على وصف السكان، فعرضوا الطيب من عاداتهم بالمديح، وعابوا ما فيهم من ضعف كالذي انتقده ابن جبير من عادة أهل دمشق في تحيتهم وصفة سلامهم فقال: وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء... فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال..

وهذه اللفتات التي نعثر عليها في مذكرات السائح هي التي تميزه عن الكاتب الجغرافي. فهذا يسأل ويستقصي ويحقق ويحاول أن يشمل كل جزء من المنطقة التي يعرض لدرسها، أما الرحالة فينقل ما يشاهد، وتكون صورته جزئية، ولكنها ذات قيمة من هذه الناحية،

فبينما يذكر المقدسي أبو الفدا كل شيء عن إقليم الشام، نجد أن ابن جبير –وهو سائح– لا يتناول مدن الغور أبداً لأنه لم يصل إليها، وابن بطوطة يذكر فلسطين وخاناتها وأماكن المكس والتفتيش فيها لأنه جاء البلاد براً من مصر.

وبجانب ذلك كان التجار يضربون في أراضٍ جديدة عن طريق القوافل، وعن طريق البحر وسفنه، وقد وصلوا في مغامراتهم إلى الصين والهند وشواطئ أفريقيا الشرقية والغربية جنوبي خط الاستواء. واستطاعوا أن ينشروا الإسلام في أندونيسيا وما قصة السندباد البحري الخيالية إلا صورة لمغامراتهم في البحار الجنوبية.

لقد كثرت الرحلات عند العرب، وتنوعت بتنوع أسبابها وحوافزها السياسية والدينية والاقتصادية –كما سبقت الإشارة– ونشأت عند كثيرين منهم محبة المجازفة فيما وراء المعروف، وليس من المصادفة أن يكون رائد فاسكودي جاما في اقتحامه بحر الهند من رأس الرجاء الصالح، هو رائد عربي يسمى أحمد بن ماجد وبعد انتصار البرتغاليين على المحيط الأطلسي المسمى بحر الظلمات ودخول العالم عصر الاستكشافات الكبيرة، يصبح للطيارة فصول في الرواية، رواية الكشف عن العالم ومجاهله، ويغدو كأنه كتاب مقروء.. فلا يبقى فيه طلسم ولا لغز، بل تحل كل طلاسمه وألغازه.

وحسبنا الآن ألا نبالغ إذا قلنا: إن الرحلات من أهم فنون الأدب العربي. لسبب بسيط وهو أنها خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها هذا الأدب.

ونقصد تهمة قصوره في فن القصة، ومن غير شك من يتهمون هذه التهمة لم يقرؤوا ما تقدمه كتب الرحلات العربية من قصص زنوج إفريقية، وعرائس وبحار الصين، وحجاج الهند، وآكلة لحوم البشر، وسكان نهر الفولجا وتزحلقهم على الجليد، وعبدة النار، والإنسان البدائي والراقي مما يصور الحقيقة حيناً، ويرتفع بنا إلى عالم خيالي حيناً آخر.

والرحلة التي نحن بصددها رحلة الحقيل إلى أوربا فيها خصائص القرن العشرين من سرعته في اختراق الآفاق، ووسائل الاتصال الحديثة التي قضت على حواجز المكان والزمان، وازدحام النزل والمنتديات. فيها معارض الفنون ودور الأوبرا والمسارح والمكتبات والمتاحف التي تعرض حياة الشعب كل الشعب على مر تاريخه في صالات العرض المهيأة لذلك.

وكاتبنا بعد أن حدثنا عن معاناة السائح المعاصر في الحصول على غرفة في أحد فنادق باريس المزدحمة بخلايا البشر انتقل بنا إلى معالمها السياحية الجميلة. وعرفنا بتاريخ كل معلم من تلك المعالم. فمن برج. مونبرناس. بطوابقه التسعة والخمسين إلى ناظوره الذي يطل على باريس من الأعالي.

ولم ينس قط منابع ثقافته ومرتع طفولته، فعاد بنا إلى أبي العلاء المعري الذي يرى في البادية الأصالة وإنما فقد العز في الحضر حين يستشهد ببيته الرائع.

الموقدون بنجد نار بادية
لا يحضرون وفقد العز في الحضر

ثم يعرج بنا الأديب الحقيل إلى السربون بعراقتها ونشأتها وطرازها المعماري ومكتباتها وما يحيط بها من أريج الحي اللاتيني بمقاهيه المكتظة بخليط الثقافات والفنون واللغات والجنسيات، وكان عقله الباطن يدعو شباب قومه أن ينهل من ينابيع العلم الحديثة حتى تعود حضارة العرب إلى سابق عهدها.. ومن قمة برج إيفل في صحبة الأصدقاء إلى سفوح فرساي وقصرها المنيف في ضيافة تاريخه وملوكه وعبر صالوناته ولوحاته الفنية الرائعة.

لقد جعل الأستاذ عبدالله الحقيل رحلته رحلة معاشة، عشناها معه في مكتبات باريس أيضاً وفي دار أوبراها ومهرجاناتها ومعارضها المقامة على مدار فصولها ولكن يبدو أن وسائل الاتصال في العصر الحديث التي تخطت المسافات وجعلت العالم كله وحدة واحدة. والانفجار المعرفي والتقني الذي جعلنا معشر سكان الأرض نعيش معاً أحداث العصر ومتغيراته ربما تلك العوامل هي التي جعلت محدثنا يصرف النظر عن الحديث عن عادات الشعب الفرنسي وتقاليده. ولم يبين لنا كيف كانت ملاحظاته على الشارع الباريسي.

ولم يحدثنا عن نهم القراءة عند أهل باريس والاطلاع حتى في الحافلات ومترو الأنفاق. وعن الهدوء والسكينة التي يتمتع بها الشارع الفرنسي. فلا ضوضاء ولا صخب.

ولقد حدثنا عن الحرية الفكرية والثقافية التي حولت باريس إلى مقر هيئة أمم غير رسمية. وكيف أن الإنسان الفرنسي يعيش فيها بلا خوف أو عقد وأنه يعيش يومه دون خوف من سلطة تدهمه أو حاكم يغرمه.. وعن الشعور العام بالانتماء إلى فرنسا وتشرفهم بهذا الانتماء وإن كان قد أشار إلى ذلك إشارة عابرة على لسان الشيخ الذي حدثهم عن حضارة فرنسا، وكيف أن تربيتهم القومية جعلتهم يفتخرون ويتمسكون بعراقتهم وتقاليدهم بالرغم من أنهم هم الذين يفاجئون العالم كل يوم بالجديد.

والمستحدث في عالم، الموضة، من ملابس وعطور ومدارس فنية ونقدية وفلسفية حديثة، لم يحدثنا مرشدنا عن الإنسان –أياً كان نوع هذا الإنسان– وعن المعاملة الآدمية التي يلقاها بصرف النظر عن كنهه أو منزلته أو ممتلكاته، إنما ما يعنيهم هو الإنسان لمجرد كونه إنساناً وهذا ما جعلهم ينطلقون، بل أقول: جعلهم يطبقون روح الأديان. وأخيراً فتحية للكاتب على رحلته وما تخللها من معلومات، وبالله التوفيق.

عبدالله الحقيل.. أديب غاص في بحور اللغة والتاريخ ورحالة جاب كل الاتجاهات

بقلم: بدر الخريف

حمل شوارد اللغة وهو في سن العشرين، وأخذ ينثر الكلمات في كل اتجاه، ليصبح فيما بعد قلماً رائداً في مشهدنا الثقافي.

أبحر في كل اتجاه، وتنقل طالباً ومعلماً في أمكنة مختلفة داخلياً وخارجياً. وسجلت بوصلته ٢٠ مؤلفاً مطبوعاً في بحور اللغة والنقد الأدبي والاجتماع والتاريخ وأدب الرحلات والتربية والشعر.

صنفه النقاد أديباً بارعاً، ورحالة معاصراً، وشاعراً معبراً، ومؤلفاً متعدد الاهتمامات وتميزت كتاباته وأحاديثه ومحاضراته بالوضوح والقوة والجمال.

حمل دفاتره وأقلامه في سن مبكرة من المجمعة إلى مكة المكرمة، وبيروت، والجزائر، وأمريكا، حيث غادر صحراء نجد إلى جبال لبنان والجزائر معلماً للغة العربية وآدابها لعشاقها هناك، ووقف على آثار ابن خلدون في تلمسان حيث كان مَعْلماً في الجزائر، حيث ألف مؤسس علم الاجتماع مقدمته في هذه المدينة قبل ٦٥٠ عاماً من اليوم، كما استنشق فيها ما تركه المقري في «نفخ الطيب» ونثر ما ترنم به الشعراء الأقدمون عن مواضع في بلاده ما زالت باقية، وتمنى الجزائريون أن يستنشقوا عبيرها.

في المجمعة وقبل ٧١ عاماً ولد عبدالله بن حمد الحقيل وعاش في أسرة متوسطة الحال تحب العلم وتحترم العلماء، وتحتفظ بذخائر من التراث العربي، وتميز مجلس الأسرة بحضور الأدب، وبإحياء المسامرات الليلية العامرة، حيث ينشد الشعر وتشعل قناديل الأدب.

في المدرسة السعودية في المجمعة أنهى الحقيل دراسته الابتدائية وذلك عام ١٣٧٠هـ بعد أن درس كتاب العقيدة الواسطية، وزاد المستقنع والنحو الواضح لعلي الجارم، وسبل السلام، وفتح الباري، ونيل الأوطار، وفي المنزل كانت المائدة عامرة بالمعلقات، ومقصورة ابن دريد، ولامية العرب والعجم، ونونية ابن القيم، وحوليات زهير، وحماسيات عنترة، واعتذاريات النابغة، ونقائض جرير، ومراثي أبي تمام، ومدائح البحتري وغيرها من ذخائر التراث العربي.

عندما حاز الشهادة الابتدائية لم يكن للصغير خيار لإكمال دراسته سوى التوجه إلى ثلاث مدارس هي: مدرسة تحضير البعثات في مكة المكرمة، ومدرسة دار التوحيد في الطائف، والمعهد العلمي السعودي في مكة المكرمة.

وعبر مرحلة برية شاقة عبر الفيافي والمهامه والمفاوز والرمال حمل الحقيل لفافته وكتبه وذكرياته وتوجه إلى مكة، وخلال عشرة أيام وعبر مركبة تسير بسرعة ٢٥ كيلو متراً في الساعة وتتوقف باستمرار وصل إلى العاصمة المقدسة واتجه على الفور إلى مديرية المعارف ليقابل مديرها آنذاك الشيخ الراحل محمد المانع ويبدي له رغبته في الالتحاق بمدرسة تحضير البعثات.

وأجرى المانع للحقيل أسئلة في النحو والفقه والتوحيد ليسأله سؤالاً كان هو مسك الختام في اختبار القبول، وهو: متى يجوز الابتداء بالنكرة؟ ليأتي الجواب على عجل بأبيات من ألفية ابن مالك التي كان يحفظ بعض أبياتها:

والأصل في الأخبار أن تؤخرا
وجوزوا التقديم إذ لا ضررا
ولا يجوز الابتداء بالنكرة
ما لم تفد كعند زيد نمره

وعلى الفور تم قبول الحقيل وتوجيهه للدراسة في دار التوحيد التي طبقت شهرتها الآفاق في تلك الفترة، وكانت مصدر إشعاع جمعت ثلة من المتخصصين في اللغة العربية والعقيدة والحديث والتفسير والفقه والفرائض، وأمضى فيها عامين دراسيين ليلتحق بعدها بالمعهد العلمي في الرياض الذي أصبح منافساً في استقطاب الكفاءات العلمية والطلاب، ليواصل بعد ذلك التعليم ويتخرج في كلية اللغة العربية ويحصل على دراسة الليسانس في اللغة العربية وآدابها عام (١٣٧٨هـ- ١٩٥٨م)، وعاش في الكلية أجواء ثقافية وأدبية كان يحتفل بها في النادي الأسبوعي الذي احتضنته الكلية.

بدأ الحقيل حياته العملية في ميدان التعليم مدرساً وموجهاً تربوياً ومديراً لمدرسة اليمامة الثانوية في الرياض عام ١٣٨١هـ، ليواصل دراسته ويحصل على دبلوم في التربية المقارنة

والتخطيط التربوي من معهد الأمم المتحدة في بيروت عام ١٣٨٢هـ، ثم ابتعث إلى جامعة أوكلاهوما في الولايات المتحدة وحاز دبلوم الدراسات العليا في الإدارة التربوية، كما عمل أميناً عاماً للمجلس الأعلى لرعاية الآداب والعلوم والفنون في وزارة المعارف سابقاً وزارة التربية والتعليم حالياً.

وأمضى في التعليم قرابة عقدين في مناصب قيادية، وشارك في عدد من المؤتمرات والندوات بالبحوث والمحاضرات، وقبل ٢٢ عاماً عمل أميناً لدارة الملك عبدالعزيز ورئيساً لتحرير مجلة «الدارة» حتى تقاعد من الدارة عام ١٤١٣هـ.

وخلال هذه الفترة أنشأ دار أضواء المعرفة للنشر والتوزيع لتضطلع بنشر الكتب العلمية والفكرية والتاريخية. وهو عضو في عدة هيئات علمية وثقافية وتاريخية، وسجل اسمه عضواً في اللجنة العليا لموسوعة تاريخ التعليم في المملكة ورجاله.

عاش الحقيل أجواء المعارك المحتدمة بين الرافعي والعقاد، وبين طه حسين والعقاد وغيرهم من أصحاب المدارس النثرية المعاصرة، وأحب أسلوب طه حسين، وفكر العقاد، ولغة الرافعي.

وتعامل مع الكلمة في زمن الدراسة فقرأ الصحف والمجلات التي صدرت في فترة مبكرة كالمنهل، واليمامة، والهلال، والرسالة، والثقافة، وكتب أساطين الأدب كالجاحظ وكتاب الأغاني والكامل للمبرد، ومقالات الزيات، ومحمود شاكر والمنفلوطي، والعقاد.

كما أخذته الرغبة في النشر في سن مبكرة، وكانت بداية عهده بالكتابة عام ١٣٧٢هـ وعمره ١٥ عاماً، حيث نشرت له صحيفة «البلاد» أول مقالة له بعنوان: يوم في قرقري، ثم أخذ ينشر في عكاظ، والندوة، وقريش، والقصيم، والجزيرة، واليمامة، والمجلة العربية، والفيصل، وقافلة الزيت، واليوم، والرياض، والخفجي، والمنهل التي نشر بها كثيراً من رحلاته وإنتاجه على صفحاتها وما زال مستمراً إلى اليوم.

وقبل نصف قرن تعرف على الشيخ عبدالقدوس الأنصاري في جدة، وذلك في مطابع الأصفهاني حيث كان الحقيل يشرف على طباعة بعض المقررات الدراسية، حيث كان يعمل وقتها مديراً للكتب والمقررات في وزارة المعارف، كما وطد علاقة ومعرفة بواسطة الأصفهاني بأدباء كالزيدان، والعطار، وحسين سرحان، والسباعي، والعمودي، وطاهر زمخشري، ومحمد حسن عواد وغيرهم من رجال الصحافة والأدب.

في ركضه الطويل في رحلة الحياة وضع عبدالله بن حمد الحقيل عصارة فكره وتجاربه وذكرياته في ٣٠ مؤلفاً مطبوعاً بدءاً بكتاب «كلمات متناثرة»، و«رحلات وذكريات»، و«على مائدة الأدب»، مروراً بكتاب: «مراحل إعداد المعلم في المملكة»، و «رمضان عبر التاريخ»، و«في التربية والثقافة»، «صور من الغرب»، و «من أدب الرحلات»، و «المفيد في الإنشاء»، «الشذرات في اللغة والأدب والتاريخ والتربية»،

إلى جانب كتب أخرى عن رحلات في الشرق والغرب، ويوم في ذاكرة التاريخ، وشعاع في الأفق ديوان شعر وعبر السنين (ديوان شعر)، ورفقاً بالفصحى، وتوحيد المملكة العربية السعودية وأثره في النهضة العلمية والاجتماعية، ومسيرة التوحيد والبناء (لمحات تاريخية)، واللغة العربية هوية وانتماء ورحلات ومشاهدات في الوطن العربي والأندلس، وكتب ومؤلفون، وآراء وأحاديث في التربية والتعليم، وآفاق فكرية وشجون تربوية، وانتهاء بآخر مؤلف له وهو صور من أدب الرحلات إلى الحرمين الشريفين. ورحلات وذكريات في ربوع بلادي.

ما بعد تلك الرحلات

وبعد أيها القارئ فلم يبق لي من تلك الرحلات سوى الذكريات مردداً مع الشاعر العربي قوله:

قد جئت معتذراً ما في فمي خبر
رجلاي أتعبها الترحال والسفر

ملت يداي تباريح الأسى ووعت
عيناي قاتلها ما خانها بصر

إن جئت يا وطني هل فيك متسع
كي نستريح وهمي فوقنا مطر

وهل لصدرك أن يحنو فيمنحني
وسادة حلماً في قبضه شجر

الفهرس

بين يدي الكتاب..... ٥

مقدمة المؤلف..... ٧

في ديار الغرب ١٣

فرنسا..... ١٧

شواطئ مدينة نيس..... ١٨

منظر من باريس..... ٢٠

في قصر فرسَاي..... ٣٩

في بريطانيا..... ٤٧

في مكتبة المتحف البريطاني..... ٥٢

ما بين قصر فرساي ومتحف اللوفر ومعهد العالم العربي في باريس..... ٥٦

في ألمانيا..... ٦٧

في سويسرا..... ٨١

في إيطاليا..... ٩١

البندقية- فينسيا..... ١١٥

في أسبانيا..... ١٢٩

إلى برشلونة..... ١٣٧

قصر الحمراء..... ١٤٠

مدينة قرطبة..... ١٤٧

في النمسا ١٥٩
في موناكو ١٦٧
في هولندا ١٧٣
مدينة هولندا الأرستقراطية ١٨٠
في بلجيكا ١٨٣
المركز الإسلامي في بروكسل ١٨٧
صناعة الماس ١٩٠
في اليونان ١٩٣
ما بين النمسا وسلوفاكيا والمجر ٢٠٣
الخاتمة ٢١٢
مع كتاب رحلات وذكريات ٢١٨
مع الحقيل.. في رحلاته ٢٢٧
عبدالله الحقيل.. أديب غاص في بحور اللغة والتاريخ ٢٣٥
ما بعد تلك الرحلات ٢٤١
الفهرس ٢٤٢